Yaseen Ghaleb

الماجدة

كنت زوجة للرئيس

رواية

ياسين غالب

ياسين غالب

الماجدة كنت زوجة للرئيس

رواية

تأويل

Al.Majidah Novel

في الثانية التي سقطت فيها هليكوبتر وزير الدفاع عدنان خير الله طلفاح بدأت هذه الحكاية.
كان الملاذ الآمن من كارثة سقوط أخرى هو التدوين عكسيا حتى نقطة الصفر من زمن خلق صدام الأول .
من يقول كل شيء مرة واحدة؟ من لا يقول ذلك ؟
من يُهرِّب الحقيقة كاملة عبر أسلاك الخوف الشائكة؟
من يُسرِّب ذاكرة كل ثانية أقفلت عليها أبواب القصر الجمهوري بشوارب وأبواب وأسلحة؟
للتاريخ وللدهشة وللثأر المعنوي كتبت كل هذا.
أنا سيدة العراق رقم واحد أو صفر.
أنا ساجدة المسلط، الأم والزوجة الرئاسية والرفيقة .
كل شيء ولاشيء. حين تصغي لحكايتي هنا فلتعلم..
ليس لأنه خيالي يعني أنه لم يحصل، وليس لأنه حصل يعني أنه ليس خياليا.

ISBN:978-9-1986778-8-1
9 789198 677881

العراق بغداد _شارع المتنبي عمارة الميالي ط1
009647725925712
السويد اوربرو 0046737405443
Örebros konst och kulturförening
dar.taweel2018@gmail.com

تأويل للنشر والترجمة

الماجدة
كنت زوجة للرئيس

الماجدة
كنت زوجة للرئيس.
الطبعة الأولى :2021

جميع حقوق النشر محفوظة ولا يحق لأي شخص او مؤسسة او جهة، اعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت الكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

منشورات تأويل

منشورات تـــأويـــل للـــنشر والترجمـــــــة
Taawielfõrlagpublikationochöversāttning

بغداد شارع المتنبي _ عمارة الميالي ط1
009647725925712
Sweden Öerbro
Örebroskonstochkultrförening
0046737405443

البريد :dar.taweel2018@gmail.com
taweel.dar@yahoo.com
جـــميعالآراءالـــواردةفي هـــذاالكتاب تعبرعـــن رأي كـاتبهاولاتعبربـالضرورةعـــن رأي الناشـــر.
ISBN:978-9-1986778-8-1

ياسين غالب

الماجدة
"كنت زوجة للرئيس"

الإهداء.. إلى أبي.

"إن كل هذا خيال كاتب نُسج بناءً على الوثائق وروايات الشهود، وليس لزاماً أن يكون حقيقياً".

Just because it's fiction doesn't mean it's any less true.
.Jodipicoult

للقلم والبندقية فوهة
واحـــــد صدام حسين ـــــــــدة.

"فريق تجميع البازل".

عين قزحية مركبة من عدد لا متناهٍ من العدسات، تقترب عبر سماء بغداد من منشآت رئاسية نصف مقصوفة. أضاف الدمار والفوضى بعداً جمالياً لمعمارها العباسي، المتداخل الأقواس والنقوش الفيروزية للقباب المذهبة التي تستدير حول رقبة كل منها أبيات من الشعر بالخط الكوفي، أُقتطعت أجزاءً منها بسبب القصف.

"سمائي... وأرضي ومائي..

عليها سيبقى لوا... ""هنا أبدع الله ط....

وأنشأ من..... لعراقا".

أحاطت بالمشهد ألسنة من العشب المُصفر، أشجار تمسكت بخضرتها لآخر نفس. كان نهاراً برياحٍ مزاجية بلوني البيج والرمادي، تلف أفق المدينة كآلاف الأوشحة المتطايرة معاً. لم تتغير اللوحة الأيقونية لبغداد ذات الألف قبة وقبة، الألف عمامة وعمامة، الألف سر وسر، منذ ولجها أول جندي من المغول، أو تخلى عنها آخر مقاتل من قوات الحرس الجمهوري. الزمن ممطوط جداً، وبلا أطراف لمدينة اعتادت أن تنضج فيأكلها أهلها أو الغرباء. ومع هذا وللدقة مازال القاشاني المزرق المخضر، والأقواس العباسية المتشظية إلى ما لانهاية، رغم سخام الحرب، يومض للعين الفضائية التي تراقب كل شيء، وتجدول ذلك في خوارزميات معقدة ومقدرة تتجاوز مقدرة جِنِّي بغداد، لو قُدِّر له أن يتحرر من مصباحه

الأسطوري. "عيون المها بين الرصافة والجسر.."
التاريخ يتجلَّط هنا، شعور آسر وكأنك سقطت في سجادة مينياتور فارسية، أو منمنمة للواسطي. ما كسر رتابة هذا المشهد الاستشراقي التقليدي أن سحاب من الدخان الكثيف ينفث غضبه هنا أو هناك من زوايا المشهد، بينما حلَّقت أجسام غرائبية كالحيتان الطائرة في الأجواء فلنسمها "الأباتشي".
كلما اقتربنا من قصور الخليفة، المنصور بالله، صدام حسين، ذات المعمار المُستَنسخ من قصور هارون الرشيد الغابرة. نلحظ حركة أجساد بلون خاكي باهت. أشباح داكنة مسلحة بقطع حديدية سوداء لامعة رائعة، مع أنها مميتة بدقة عالية. حسناً فلنخلع على هؤلاء لقب "المارينز".
يتجول بينها شاب بقميص أزرق وبنطالجنز أقفل رأسه ب "كاسكيته" حمراء متسخة زُينت بعلامة مقلدة **Ck**.

"هاري، أين أنت؟ تعال الآن، **Mother fucker**. . . "صاح الميجر ماك ستنالي بعصبية مُستنسخة من مشهد شهير ل الباتشينو. قَدِم يتبعه أربعة جنود، ابتسم أحدهم ببلاهة، بينما تفَّ آخر علكته للسماء. ولمن لا يعرف هاري هذا فهو مترجم عراقي شاب اسمه بالكامل أ. م. الحريشاوي من أبناء أحد أحياء المدينة الشيعية الفقيرة "سدر ستي" كما يلفظها ميجر ستانلي، كلما صار الحديث عن مواجهات هناك. يبتسم هاري أحياناً عند ترجمة توصيفات ميجر ستانلي متمنياً من قلبه أن تكون هذه الأكاذيب حقيقية يوماً ما. يشير بأصبعه لرسمة المدينة. : هاري انظر هذه، الفلاح أفنيو "هذه" العورة هايبر ماركت "ذلك" داون تاون قطاع عشرة. أين "السدة" التي تخشى أن يجدوك جثة في مزابلها؟ :قول بالعراقي "شكو ماكو"، "شاكووو ما كووو". بالمناسبة هاري هذه عبارة وردت في مسرحية لشكسبير هل تعلم؟ : والله؟ ور "هـ" ل "سيد" . : شكر

للمعلومة. وهل شكسبير هذا من "الحبيبية"؟ يمازحه الميجر: أي نعم. والــ له. وورو"ه" سيد. : قول "يلاكونا لو بيهم زود..". قول "بن السيد كلنا جنوده..". : "انجب". هاري أكول خره، يلا يلا: **go on do your duty. bitch:** يتفهم ميجر ستانلي أن يغير المترجمون العراقيون أسماءهم للتمويه. : يعجبني هذا الـ هاري العراقي. شجاع وطامح ليعمل معنا، رغم أن عقوبة ذلك مليشياوياً الموت في أي ثانية. يشرح لهاري الذي يبدو منشغلاً بهاتفه "نوكيا". : الديمقراطية ستنتشر بواسطتكم، أنتم الجيل الذي يراهن عليكم الرئيس بوش كثيراً في المنطقة لنشر قيم الديموقراطية. الأمر مُربك، الانتقال من حكم الرئيس صدام إلى الرئيس بوش. ولكنه سيمر بسلام وستعتادون الأمر هاري. الثمن باهض من أموالنا وجنودنا، ولكن لن نغادر حتى نجعل حيك الشعبي "سدر ستي" نسخة من "يفرلي هيلز" أو "سيلكون فالي" صديقي، هل فهمتني؟ : أنا هنا لأعين عائلتي بدولاراتكم، ولأجمع مال للهروب "أطفر" من العراقلاحقاً.

: لماذا؟ نحن جئنا لأجلكم، فما معنى أن تفكروا بالذهاب إلينا؟ جلبنا الديموقراطية لـ.. يقاطعه هاري: نحن نريد خبز وأمان، الديمقراطية لاحقاً. أنا مهدَّد ميجر، وأعود كل يوم لمنزلي من طريق مختلف. اغتيالي عمل مقدس بالنسبة لكل سكان مدينتي. البارحة راقبني أحدهم فبلت في سروالي من الخوف. العمل معكم عار ويجب أن يمحى بمحونا نحن المترجمون كما يرون هنا، ولكننا بحاجة إليكم لنعيش. في صلاة الجمعة يصف إمام "جامع الحسن المجتبى" عملنا بالقذر والمقزز، كما لو أن أحدهم ينيك أمه في مكان مقدس. هل تستوعب حجم "الخطيئة" ميجر؟

: نعم، لكن هل تعلم، هذا الإمام وغيره يتلقى مساعدات شهرية منا، ثم يُحرِّض على قتل من يعمل معنا، هل أواجهك معه ليخجل ويصمت للأبد؟

: لا أرجوك سينتقم مني عندها، سيحرقني وكل عائلتي إذا كشفت أمره. في الصباح التالي. حول أربع صناديق من المعدن المقوم للرصاص جلبت من غرف القصر، كانت بأحجام متوسطة تكفي لأن يجلس أحدهم فوقها لا غير، كسروها، احتوت قطعة حرير نادرة ووثائق ومصوغات ذهبية، تناهب الجنود المحتويات، أمر الميجر : هيه، هاري ترجم هذه الرزمة من الورق الآن، قد تكون قوائم لشخصيات مهمة. : لا شيء مهم سيدي.. قوائم مكافآت لحمايات القصر و..، كاد هاري أن يضيف شيء، إلا أن الجميع انبطح أرضاً عندما دوى انفجار قريب لشاحنة مفخخة. خمَّنت أن ذلك حصل قرب البوابة الرئاسية على بعد مئة متر، ثمة عصف باعد الميجر عن المجموعة، ثمة دخان صار يزحف كحيوان أسطوري باتجاهنا

: هلللو ..الجميع بخير. صاح الميجر ستانلي. اختفى المترجم هاري مع الرزمة. في اليوم التالي سأل الميجر ستانلي عنه

: هل يعرف أحدكم لم أختفى هاري؟ لم يأتي للعمل اليوم، مرَّ أسبوع.

: هل ترك هاري الوظيفة؟ هل اتصلتم به؟

: سيدي، هاتفه مغلق. جاءت عائلته لتسأل عنه كذلك. ليس لدينا معلومات دقيقة، على الأرجح خُطِف كما حصل ويحصل يومياً للآخرين من المترجمين، لنكون متفائلين ونتمنى له قتلة رحيمة، من دون تعذيب حتى الموت من الألم. :**f..k**.

بعد أسبوع.....

: أريد أن أبيعها بعشرين ألف دولار، المخطوطات التي أخذتها من القصر أقصد.

: أها. إذاً أنت حي، سأتصل بمكتب جمع المعلومات في القاعدة الأمريكية إذا كانوا مهتمين للأمر. ولكنها لا تخصك، وعليك إعادتها بأي حال، هذا أمر عسكري؟

:هههه، إذا كنتم جادين بالشراء اتصلوا. باي.

بعد يومين.....

: الو، هاري؟ ..

: ألو نعم، لا، لا أريد بيعها.

: هل تمزح معنا؟ ماذا تريد إذاً، تذكّر أنك سرقتها من محتويات المارينز الأمريكي، وأننا متسامحون معك لترجعها، وسيكون المبلغ مكافئة وليس ثمن، لا ندفع ثمن لما نملك أصلاً ولا نشجع السراق. "علي بابا".

: اسمع مجند كرو، وأنت ميجر ستانلي، عليَّ أن أهرب خارج العراق. أنا انكشفت للجميع في مدينتي المتشددة، سيتم ثقبي بالمثقاب الكهربائي قبل أن يفرغوا مخزن كلاشنكوف في وجهي وهم يصلُّون على محمد وآل محمد. أريد حياتي مقابل هذه المادة، التي أتوقع أنها مهمة ونادرة وثمينة ولن تتكرر، كل ما تعرفوه عن صدام شيء، وهذه المخطوطة الوثائقية بيد زوجته شيء آخر. خمسة وأربعون سنة زواج وقبلها قرابة وصلة منذ الطفولة. تصوروا ما الذي ستفاجئكم به؟

: حسناً، إذاً ماذا تريد؟ يرد مجند كرو مُساوماً لهاري.

: فيزا هجرة خاصة لأمريكا، سأعمل هناك وأعيل نفسي، لن أكلفكم سنت. المهم ألا أموت هنا. تصوَّر المليشيات السنية والشيعة هنا يتقاتلوا فيما بينهم، ولكن يتفقوا جميعاً على قتلنا.

: حسناً، لك الحق كمترجم في حماية خاصة، لا تمر بمكاتب الأمم المتحدة ولا مكاتب الهجرة الغبية، سلِّمنا النص وسنسلِّمك تعهد بإنقاذك.

:اتفقنا

:اتفقنا.

: طوووووط. يبلغ "رصيدك صفر دولار. وصفر سنت، شكراً لاستخدامك شريحة آسيا سيل".

:.....

:.....

: ألو، هاري هنا.

: ألو هاري. أسمعك، ولكن.. لا أفهم لماذا كلكم لصوص "علي بابا"، هل لأننا في بغداد؟

: انظر من يتحدث عن اللصوص، أنا سرقت شيئاً من بلدي، لم أنتم هنا؟

: لدينا مهمة لتأديبكم أو إصلاحكم. حسناً هذا لا ينفي أنكم لصوص. أعطني المخطوطات، وسنتصل بك لاحقاً لترتيب أمر لجوئك للولايات المتحدة.

: لم أجلبها كلها. فقط صفحات غير مترابطة من المسودة، أنا لا أثق بكلام شفوي، أريد فيزا هنا في وسط جوازي. هل تفهم ميجر؟ فيزا، فيزا أغنيها لكم؟ واستثنائي من شرط عدم إكمال 12 شهر من العمل كمترجم مع القوات الأمريكية الشقيقة. اقرأ مجند كرو. "تأشيرة للهجرة الخاصة (**SIVS**) القسم رقم 1059من قانون إقرار الدفاع الوطني عن السنة المالية 2006" : أنا مطَّلع على هذا لا تلقنِّي محاضرة بعملي، أفهم أنك لا تثق بنا أليس كذلك؟ حسناً هل تعتقد أننا

نتعامل بطريقة المخابرات العراقية مثلاً أو أي مخابرات عربية؟ نعد ثم نقتل؟ لا أنت لا تفهم، لدينا سيرة ذاتية ناصعة نحافظ عليها، كذلك لدينا مجلس شيوخ، وجهات حكومية أمريكية تراقب أداءنا العسكري والاستخباراتي، أنتم لا تفهمون هذا؛ لأنكم اعتدتم الديكتاتوريات، لا أحد يراقب أداء الرئيس أو طاقمه الحكومي، لا حقوق أنسان لا قضاء مهني لا تعهدات تُنفذ، لا يثق المواطن ولا بأمه حتى، أليس كذلك؟ لكن.. في أمريكا الصحافة قد تُقيل الرئيس بفضيحة لأي تسريبات خبرية، تصور؟ لا لا يمكنك أن تتصور ذلك خصوصاً أنك اعتدت أن تكون صحيفتك اليومية بنصف صفحة لصورة صدام يومياً والباقي تغزل بوسامته وشجاعته، هل كنت تقرأ الصحف أم تستعملها كورق تواليت؟ أوه، أنتم هنا تشطفون مؤخراتكم بالماء عادة.

: حبيبي، مجند كرو الغالي، لا أريد لا بلا بلاب.. لست هنا لأسمع ما يُردَّد يومياً بالإذاعات الأمريكية والغربية من إكليشيهات، لو تم تصفيتي من جهازكم الاستخباراتي الآن هل سيُقال السيد بوش مثلاً، أو يعقد مجلس الشيوخ جلسة خاصة لمناقشة ذلك؟ لا أعتقد ذلك، كن واقعياً. حرفياً نحن لا نعني لكم شيئاً، وكل الحريات التي ذكرتها حصرية لديكم ولكم دون الآخرين، مع أني أشك بأنها، هذه الحريات أقصد، مدارة جيدة في حيز لا تتعداه. ليست لشؤون إنسانية طبعاً، وإنما إعادة تقييم كفاءة الأجهزة الاستخباراتية في تحليل البيانات؛ لمنفعة مهنية لا بحثاً عن حقيقة. الأجدى من هذا الحديث الذي لا يعنيني أصلاً.. إذا سلمتني جوازي بالفيزا اليوم سأسلمك المخطوطة غداً، أنا هكذا أثق بكم فعليكم أن تثقوا بي.

طوووووط:الو.... الو. . . . .

لافتة سوداء.....

"كل نفس ذائقة الموت"

صدق الله العلي العظيم

ببالغ الأسى تنعي عشيرة الحريشاويين فقيدها الشهيد المغدور "أحمد مرداوالحريشاوي" الذي اغتالته يد آثمة في مدخل مدينة الصدر المنورة. ستقام الفاتحة في حسينية "الإمام الحسن المجتبى "ع" في قطاع خمس وخمسون.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

تقرير استخباراتي.

"من المشجع أننا وجدنا المذكرات كوثيقة سليمة. تكتسب قيمتها بأنها كتبت من زوجة الرئيس المخلوع صدام حسين، وأنها لم تمر تحت مقص رقابة المطبوعات العراقية من قبل؛ لأنها لم تُنشر أو تُكتب للنشر، رغم أنها ينقصها الترتيب وبعض الصفحات. أوعز بتشكيل فريق، فليدعى "فريق تجميع البازل" من أمريكيين وعراقي أمريكي لترجمة المجموعة بصورة أولية، ورفع توصيات إذا ما كان المشروع يستحق الجهد والمتابعة لاستخدام المعلومات الواردة في الوثيقة أدناه كمادة للضغط على صدام أثناء التحقيقات وإعادة تقييم مستوى تحليل أجهزتنا الاستخبارية لشخصية صدام ومدى مطابقة ما توقعناه لما هو موجود على أرض الواقع.

إِنْتهى.

مكتب التوثيق والمتابعة لأرشيف الحرب على الإرهاب .

م. روث

نيويورك .أبريل 2006

تنويه عائلي.

أنا ساجدة المسلط، الإنسانة والأم والزوجة والأخت والجدة والمعلمة والماجدة، والسيدة الأولى للعراق. السيدة صفر بالواقع العملي. أكتب مذكراتي لأسرتي حصراً وأودعها مكان ما كما تُدس وثائق في حجر أساس البناء، للتاريخ وللحقيقة بعد كذا ألف سنة وسنة. أدون لمحاربة الشيخوخة وللتمرد على قوالب العيش كأسرة حاكمة. كل ما سأكتبه خاضع لمزاجي الشخصي ومستواي الأدبي الكتابي، أنا لا أكتب تاريخاً سياسياً، إنما أكتب ما أعي وما يقع في مدار يومي العادي منذ ولدت وإلى اليوم...؟ لم أقرر نقطة ابتداء للذاكرة بعد، ولا أعرف أين سأنتهي؟ أقصد في أي زمن أو موقع جغرافي أو اعتباري. لن أطيل عليكم.. أنتم يامن ستجدون المدونة الورقية هذه يوماً ما من أفراد أسرتي. اغفروا لي أخطائي الإنسانية في الأحداث.

هذه المذكرات عائلية، وخاصة جداً، وغير مُصرَّح بها للنشر في حياتي، وإن حصل ووجِدت يوماً ما بعد وفاتي فتُطبع، ويعود مردودها المالي للاتحاد العام لنساء العراق، بوكالة مني للسيدة منال اليونس الألوسي "أم يعرب"، أختي وحبيبتي ورفيقتي، شكر خاص للصحفي أ. أ لمراجعة المذكرات واستنطاقي أحياناً لإنعاش الذاكرة.

ماما ساجدة. بغداد. 15 .10. 1989

المخطوطة 1

في *4. 5. 1989*كنا في العمادية. في قصر السحاب على جبل كاره، نزلن إلى مصيف سرنك، وشاهدنا قلعة العمادية على فوهة بركان خامد معلقة بين السماء والأرض،والآثار الآشورية والإسلامية المتبقية، قبل أن ننتقل إلى الموصل، وهناك سمعنا بأخبار الكارثة.

حوار لصحفي مع ساجدة خيرالله في مجلة ألف باء.

لا أشاء لليل أن ينتصف هكذا سريعاً، بينما رياح السعادة المنعشة تجول بيننا وبين ضحكاتنا العفوية في مصيف سرسنك، أقول ماذا لو توقفت آلهة الوقت الكونية عند هذا الحقل الزمني دون رجوع أو زيادة؟، ماذا لو تدثرنا بنسمات الشمال الباردة هذه، وفتحنا صدورنا وأذرعنا لنار المواقد اللعوب، حيث الشواء يسيل أبخرةً وزيوتاً على الصخر الساخن والمجعد كوجه مُسنَّة كردية رأيتها اليوم تبيع "من السما" والفستق في الطريق؟، ماذا لو غطسنا كصابئة الجنوب بهذا النهر من الاسترخاء حتى يتموج كل شي؟، فنجد أنفسنا نطفو متنهدين بارتياح، كما أفعل الآن في السرير المقابل لظلع زجاجي من جدران الغرفة، يطل على أنوف الجبال المتعالية في ليل مبهج منثور فوقه أضواء منحدرة على طول السفوح.

يومٌ ممتع ومتعب من التجوّل بين الينابيع والمنحدرات الصخرية لالتقاط ثمار الجوز. قال: نامي أنت سألحق بك بعد نصف ساعة، أتصل ببغداد للاطمئنان أن كل شيءٍ في محله، وأُدخن وأعود إليكِ.

: نصف ساعة؟ أستطيع أن انتظرك إذاً؟

: لا تتقيدي بي أنت حرة، خذي راحتك.

يقع المنتجع الرئاسي على رأس جبل كارة، قرى هنا وهناك غرستها يد التاريخ والجغرافيا، منذ يومين ونحن نجوب هذا اللوحة الملونة من "سرسنك" حيث الشمس تتشظّى على أكتاف الأشجار إلى درجات من الأخضر لم أراها من قبل. مرة مصفر ومرة داكن أو أخضر محمر حتى، يا الله كل هذا وينابيع الماء تدفع سوائلها ببطء عذب، بينما يتسارع المشهد عند مساقط الشلالات، حيث للماء لغة بمقطع صوتي واحد شششششش. ندخل تحت الأردية المائية الباردة

: لا أسمع ما تقولين، هيه.. أمسكي يدي حتى لا أسقط، بالكاد أتوازن تحت الشلال، صوت الماء "شششششش. "هههههههه". "ماما.. هلللو". ضحكنا ولعبنا حد الطفولة، غنينا وصفقنا لأنفسنا، وأكلنا كباب الكورد الشهي وشربنا لبنهم المدخن، إجازة في الجنة هكذا عنوانها برأسي.

: أبو حمزة، هل من داعٍ لتغادرنا الآن، ابق أخي، ودع آخرون يكملون مهامك.

نظر إلى عيني صدام وتفاهما بصمتٍ طويل، بما معناه هذا أمر "أختك، زوجتي، بنت خالي كل هذا التوصيفات لا تدخل بحسبان القيادة والعمل، ولو كنا في إجازة".

ضجرةٌ أقف على حافة الشرفة في قصر السحاب. أبدو حبة ملح فوق قمة جبل. مشهد هائل تحتي الآن مرسوم بالبشر والأشجار والقرى

والينابيع والطرق الملتفة كحبال حول أعناق الجبال، وكأنما تسحبها للأعلى. أفتح يدي كصقر يلمس بأطراف ريشه الهواء، أفعل هذا كما يفعل لأشعر أني محلِّقة وأنا في الشرفة المعلَّقة بين الغيم الأنثوي البارد والحجر الذكوري في الأسفل.

: آه ه ه. أتنفسني أو أتنفس هواءً عذباً ونقياً لم تعتاده رئتي في بغداد. أزفر ما في صدري من أكداس الهواء المُعبَّأ بذاكرة مريرة، مختنقة ومُسمَّمة. من هذا الارتفاع تكون السماء قريبة من هنا والنجوم تبدو كصفائح فضة يمكن جمعها باليد.
أتساءل: هل تكفي ليلة أو ليلتين ليندمل الجرح الذي صنع بسنوات؟ هبت ريح مفاجأة، هزت شعري الأصفر ونكشت أجزاءه، صففته بيدي.
يُسمِّيني "أم راس". بسبب هذه الكتلة من الشعر التي تشبه شجيرة برية كثيفة. كان شعري أسود كما صنعه الله، ولكن الحياة دفعت لأصبغه بالأصفر كجزء من متطلبات الدور في مسرح الحياة. كلنا نؤدي أدوارنا منذ سنين، بمكياج ثقيل، وملابس أثقل ووجوه تدعي السعادة، وإلا.. يطردها الجمهور، وتصبح نسياً منسياً.

: هل أعجبك شعري الأشقر، انظر؟ : يبدو بلاستيكياً كباروكات ملوك فرنسا في اللوحات الزيتية. : يعني أعجبك؟ نعم أبدو كملكات فرنسا في القرن الثامن عشر، شكراً عزيزي صدام.

: قلتِ (ملوك فرنسا)يعني مصطنع. لا يليق بعمرك، ولا بكونك زوجة الرئيس، الغجريات والمطربات من يفعلن هذا وليس بنات المسلط، من دفعك لهذا ومن شجعك؟ يبدو أنك تأثرت بالمغنية الشعبية سعاد عبد الله؟ يالله ما أضحل النساء؟ نفث دخان صدره.

: لكن سميرة بشعر أصفر، أليس كذلك؟ هل هذا ما أثارك لتطلقها من زوجها وتتزوجها سراً؟ ايش أعمل وأرضيك؟

: أن تتركيني وشأني هذا كرم منك. خلاص انتهينا من هذه السيرة، لا تصدعي رأسي مجدداً. أنت أم أولادي وزوجتي في التلفاز، ألا يكفيكِ هذا؟ : أي زوجة عراقية أفضل حالاً مني، ترد وتجادل وتتعارك، وقد تشتم زوجها أو تطلب الطلاق، صدام حرمتني من أن أغضبك حتى، أين أذهب؟ وأنت في الماء والهواء، وعلى الجدران، وعلى ورق العملة، وفي الصحف والتلفاز، أين أهرب؟

: بالمناسبة هي شعرها أصفر بالولادة، وليس بالصبغة المُشقِّرة وأصابع المصففين. : للسلطة ضريبتها، وللسن والاعتياد ضريبة.

هل فهمتني؟

يارب. كيف أشفط عشرين سنة من عمري؟ أنا أشيخ كل ثانية، بينما هو يزداد رجولة وفتوة كل يوم. لديه كادر متخصص للعناية بصحته ولياقته وحتى شواربه.
اعتاد عدي على لغة الشتائم حتى أمامي. أُحذِّره هذا المدلل بلا جدوى.

: العاهرة الرخيصة سرقته منا، سأقطع ثدييها بيدي، وأشويهما في حديقة نادي الصيد.

: انتبه لحديثك عدي. لا تكن سخيف، سيشويك ويشوي نصف بغداد لو سمعك تهمس بهذا لأحد. ثم هو من سرقها من زوجها، هو من.. أستغفر الله. وهو من حرمك من حبيبتك مرة وجعلك مضطرباً دائما. وهو من حرمني منه الآن.

: لن أسكت ماما، تصوري لو أنجبت وشاركتنا الثروة والرئاسة في المستقبل.

: أبوك الآن يفكر بيومه فقط وبلذته منها، لن يفيق من سميرة هذه لوحده، علينا أن نستعيده، أتعرف ما معنى حسرة وخسارة أن يتقاسم أحدهم معك رجل كصدام، لا تعرف؛ لأنك لم تصنعه وتتزامن مع صعوده أفقياً من منزلنا الفقير إلى عرش بغداد التاريخي. أنت لا تعرفه جيداً كما أعرفه، وحتى أنا ومع أربعين سنة خدمة كحبيبة وزوجة وابنة خال لازلت أجهل الكثير عن دماغه؛ كيف يفكر؟ ومتى يحب؟ ومتى يكفر بمن يحب؟ متى يسترخي؟ ومتى يتشنج ويأمر بإعدام حتى أبنائه؟ هناك خارطة إلكترونية معقدة في رأسه وضعتها العمة صبحة، وأقفلت عليها ورحلت. يعود عدي للغة الشتائم. قد اكتسبها من طول معاشرة المتملقين والمنتفعين من القوادين والعاهرات من حوله في حياته الليلية.

: من دلَّه عليها، الساقطة، بنت القحبة هذه. : دلَّه من دلَّه على غيرها، وأنا أسمع وأرى و"أتغابى". اسأل صديق طفولتكم وأمه خادمتنا في القصر ومربيتكم، أسألهم لماذا تواطأ الجميع ليقهروا أمك، ها. : تقصدين أم ملكو وكامل؟ هل كامل حنا من فعلها؟ والله أذبحه وأنيك أمه.

: كفى عدي شتائم. على كل حال لا يهم، "الفاس وقع في الرأس". تذبحه أو تتركه لن يعيد هذا لي صدام، ربما يبعده أكثر. ترن في رأسي أغنية"ومن أين أجاني هواي وداده هواي أيش دلَّه عليه؟"

. . . . . .

(انا وخلي سهرنا بليلة قمرة.. تنادمناوسكرنابلا خمرة)في إحدى الليالي. بينما (وحيدة خليل) تغني من الكاسيت، يحرضني تلذذ صدام بسجائر " كوهيبا" فأطلب منه أن أجربها. يضحك كعادته بهز كتفيه بقهقهة ممسرحة.

"أسمح لك إذا صرتِ رجل فقط"."ها، هكذا إذاً، ألم تقل مرة لإخوانك على عشاء عائلي "ساجدة بعشر رجال".

"أنتِ بألف من الرجال، بنت المسلط والنعم منك ومن أهلك أخوالي".

"إذاً سأدخن هذا السيكار، ولن يكون هذا رجولياً أكثر من أن علمتني استعمال المسدس والرشاش في ساحات الرماية في بسماية".

تُصر هذه الليلة في كردستان على أن تفقأ ذاكرتي كلها، ربما المشهد البانورامي للسفوح ليلاً يدفعني أكثر لاستعرض كل حياتي. من أعلى الشرفة وتحتي بسكون وحميمية تغفو القرى الآن في مشهد ساكن إلا من دخان كوخ يتطاير هنا أو هناك. : صدام؟ هل أكملت اتصالاتك بالقصر ببغداد؟ هل ستلحق بي عند الشرفة؟ صدام، هل تسمعني. لا جواب. يبدو أنه في جزء آخر من مبنى دار الاستراحة. لكن عطره لا يزال. منذ زمن وهو يعشق عطر كارتير ديكلاريشن و(يعشقها).

: اسمه أصـــــــ.. دام، هكذا نقولها في تكريت، وليس صدام كما في بغداد. هكذا علمتني عمتي صبحة نطق اسمه منذ سن الرابعة، حيث بدء شريط الذاكرة بالتسجيل. كنا في زيارة لتكريت، إلى قرية الشويش في العوجة بالتحديد. هناك في سنة الرابعة اكتشفت أن لدي زوج مستقبلي أعدَّته العائلة جينيَّاً.
الساعة الخامسة فجراً وصدام لم يعود إلى السرير، الهواء معتدل ويحمل رائحة شواء كباب، ربما رجال الحماية جاعوا ليلاً فبددوا الضجر والجوع بالطعام. أبحث في الراديو عن ما يسامرني في أرقي هذا، رغم تعب الجولات التي قمنا بها على سنون الصخر وحواف الماء، والتي أدت إلى كسر كعب حذائي.

: ساجدة كان لازم تنتبهي لموضوع الأحذية، بيئة جبلية ومصايف لا يسير أحد هنا بكعب إيطالي ولا هندي. :ايشمدريني صدام، يلا، هكذا صارت بعد.

أمسكت بعصا غصن شجرة اقتلعها الحماية والمرافقين، توكأت عليها، وأحياناً على ذراع عدنان أو قصي. يوم مدهش كان وكأنما الله يعوضنا عن سفرة البصرة قبل أشهر، حيث الحرارة والرطوبة العالية، والتي أفسدت تصفيفة شعري كلما خرجنا إلى سواحل الفاو أو شط العرب. لم أحب البصرة صيفاً، ولا أعلم لماذا قرر صدام بناء مجمع رئاسي هناك في البساتين التي تمتد بآلاف النخيل على خاصرة شط العرب، لو هُيأ لي أن أعيش فسأختار الشمال على الجنوب، فنحن من تكريت الأقرب إلى بيئة الكورد جغرافياً والأبعد عن الجنوب. يقول والدي خير الله طلفاح إنهم جِيء بهم من الهند في زمن الفاتح محمد القاسم. وفعلاً لاحظت أنهم سمر جداً ولا يشبهوننا، ولهجتهم خليجية.

أجيل نظري في الجناح الرئاسي، ثمة ثلاجة ملئت بالبيبسي والأيس كريم والبيرة والمرطبات والفاكهة، ثمة جوز وكرزات مالحة، ثمة تلفاز وفيديو، كل هذا لا يثير شهيتي. خطر لي أن أكلم إحدى بناتي التي جاءت معنا، لكني تراجعت عن الفكرة. المسكينة ستكون الآن في أعالي النوم مع زوجٍ يحضنها جيداً على صدره، وتحس أنفاسه تدفئ رقبتها، بعد جولة سريرية لذيذة أرضت الطرفين فتنهَّدا وسكنا ثم ناما. هل أتصل بعدنان؟ ربما هو الآن متعب بعد أن غادر بحوامة عسكرية إلى بغداد عصر اليوم. عدنان شارد الذهن منذ الصباح.

سألته "ما بك؟"

:أفتقد أطفالي وزوجتي في هذا السفرة العائلية المبهجة الرائعة.

: "أرسل في طلبهم ليلتحقوا بنا".

"ربما، وربما سأذهب لأجلبهم، خصوصاً أن لدي بعض الترتيبات في القاطع الشمالي سأنجزها في طريقي إلى بغداد، نعم عائلتي تحتاج لراحة بعد أن تعبوا خلال غيابي عنهم في حرب القادسية، ثمان سنوات أم عدي، هل تتصورين؟ وظيفة ثقيلة لإدارة جيش من مليون عسكري".

"كلنا تعبنا عدنان، كلنا، وجاء وقت قطف ثمرة النصر" سنذهب غداً للموصل. سنزور غاباتها وآثارها الآشورية، وربما مدينة الحضر الرومانية الطراز. " سأُودع كامرتي لديك حتى أعود، حافظي عليها وعلى الأفلام، تذكرين مرة كسرتي لي كامرةAgfa "

"في الستينيات هل تتذكرين؟".

"أعشق التصوير لأننا ننزف زمن لا يتوقف. هكذا أعمارنا ومضة فلاش لا أكثر". "أوه ه، عدنان هل لازلت تذكر؟ كان برزان من طلبها للتصوير أيام خطوبته من أحلام وأعادها مكسورة. من حقك أن تعتب لأني أعطيتها لهم دون إذنك. أي والله أيام مرة وحلوة، ولكن انتهت كل المرارات وأيامنا القادمة خير وسلام وراحة بال، لقد سحقنا الأفعى المجوسية رأس أيران وانتصرنا بعون الله وجهودكم".

: ساجدة، كان الثمن شباب عجُنوا بالتراب والدم والبارود، جنودي الذين أحب وجيشي الذي أتألم لخسارة أي منتسب منه، كان ثمن ثقيل وطويل السداد، ولكن بالنتيجة لا شيء يستمر للأبد، السعادة، الحرب، الصحة، التعب وحتى العمر، كل شيء مؤقت ويبقى وجه الله وحده.

: عمرك طويل أبو حمزة، نحن هنا لننسى ونصطاف، لا لنتذكر الهموم أخي الغالي. اسمع، يصدح المسجل بأغنية تحبها. "يلعب

يلعب.. صقر السمتية الي ما يتعب.. يلعب يلعب.. هذه الساحة ووين الي يقرب".

"خالو هذه الأغنية مكتوبة لك أليس كذلك؟" يبتسم عدنان.

ترقص حلا وأخواتها الجوبي بفرح طفولي.

تنسحب الظلمة من سفوح الجبل كجيوش الأعداء المنهزمة، بينما الصبح يحل كطرف ذيل ثوب عروس أبيض، عذري وطازج. ضمن برنامج السفرة لهذا اليوم أن نزور قلعة العمادية، تهيأت هذه المرة بملابس خفيفة وحذاء مسطح بعد يوم سابق من المشي المتعرج بكعب عال. "اذهبوا مع حسين وصدام كامل، لن أرافقكم اليوم ساجدة، لدي ألم خفيف بالفقرات القطنية، سأكتفي بجولة بالهليكوبتر وأشاهدكم من الجو". قال صدام من دون أن ينظر إلى وجهي. كان وجهه غائماً جزئياً، وقد تمطر عينيه في أي ثانية. لم انتبه لتبدّل مزاجه، ربما لأن اعتدت ذلك حتى أصبحت القاعدة أن يكفهر في أي ثانية، بينما يصدف أن يكون معتدل الطقس أو المزاج. بالحقيقة كنت متحمسة للاستمتاع بالطبيعة وتعويض ألم قدمي في اليوم السابق.
"طيب، راح نفطر بالشرفة أنا والبنات وأزواجهم وعائلة قصي، هل ننتظرك؟ "لا، بالعافية، لدي موضوع ما مع أزواح البنات وقصي، استمتعي أنت والبنات بإفطاركم، غادروا مع الحماية لقلعة العمادية".
"صدام بروح العمة صبحة، أي اجتماع الآن؟ أرجوك كلنا في عطلة أنت كذلك، الأوقات الحلوة نادرة والاجتماعات الرسمية والأمنية تفسد الأجواء العائلية، تجاوزها هذه المرة لخاطري وخاطر العائلة".

"ساجدة اسمعي، أنا رئيس وقائد عام للقوات المسلحة في كل ثانية من يومي ولو كنت حتى بالتواليت، لن يستغرق الأمر كثيرا من الوقت، فقط توجيهات مبدئية ونقضي الأمر سريعاً، يلا خلص، اذهبي مع البنوات". قالها بحزم منهياً الحديث. لم يبدو عليه أي

مشاعر بحصول كارثة في مكان آخر بعيداً عن هنا، كان يخبئ انفعالاته بصورة قاسية منذ الطفولة، وأتقن ذلك بعد الرئاسة بمساعدة فريق روسي دربه على لغة الجسد وضبط الثبات الانفعالي حد محاكاة الصخر، أو برودة القطب الشمالي.

فندق أوبروي نينوى 5/5/1989

"لم أرد أن أفسد جولتكم السياحية لهذا اليوم، ولنقل إنها جرعة من السعادة لتعينكم على الساعات القادمة من الحزن".

"لم أفهم ما تقصد، ايش صار؟ هل توفي والدي خير الله أم والدتي، من توفي؟ لماذا ينشج قصي في طرف من دار الاستراحة؟ ولمِ حسين كامل صامت يقضم شواربه بأسنانه بتوتر؟ قصي أجبني بدأت أشعر بالخطر والخوف، ما الكارثة الجديدة التي هبطت علينا بعد بضعة أيام من الراحة والتقاط الأنفاس؟ ما هذا النحس والحسد من الآخرين؟ ألعن أبوك "سميرة" بهذا اليوم، أين صدام؟ ذهب لها. أحدكم فليجبني. بعد ساعات كانت الإذاعة العراقية تبث قراءة قرآن بصوت علاء الدين القيسي القارئ الرسمي للفواجع وللمناسبات.

{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمن من قضى نحبه منهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا}.. صوت صدام المميز بقراءة بيان النعي بانفعال من فقد عزيزاً للأبد..

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها الشعب العراقي العظيم ايها الرجال الاوفياء في قواتنا المسلحه الباسلة انعى اليكم ببالغ الحزن وعميق الاسى اخي الحبيب ورفيق دربي الطويل الفريق اول طيار ركن عدنان خيرالله طلفاح لقد سقط نجم لامع من سمائكم الصافية ايها العراقيون الغيارى لقد صرعت الاقدار واحدا من ابرز قادة القادسية وبيرقا من اعلى بيارقها وسيفا لم تثلمه الملمات واخلاقا ومعاني قل نظيرها الا ان عزائنا في ان المبادئ التي ناضل من اجلها اخوكم ورفيقكم عدنان تأخذ طريقها بثبات لايتزعزع على طريق التطبيق وعزائنا فيكم انتم اصحاب الشهامة والغيره والوفاء ... كان اخي ورفيق دربي الطويل في جوله في شمال العراق زار فيها وحدات من قواتنا المسلحه الباسلة وعددا من مدن وقرى شمال الوطن الحبيب وعندما كان في جولته التفقدية هناك صادف ان زرنا مع عائلتي مدينة الموصل وتنقلنا في شمال الوطن لمدة يومين متتالين وشاركنا المرحوم عدنان في جولتنا هناك وبعد الظهر توجهت مع العائله مدينة الموصل فيما كان المرحوم عدنان قد حزم امره على العوده الى بغداد بطائرة السمتية وترافقة من نوعها طائرتان وبعد توجهي مع العائله الى الموصل اقلعة الطائرات السمتية وعلى متنها اخي ورفيق دربي الفريق اول طيار ركن عدنان خيرالله طلفاح من منطقة سرسنك في شمال العراق متوجها الى بغداد وفي طريقه الى بغداد صادفته عاصفه مغبره هوجاء جعلت طياري الطائره يفقدان السيطره عليها فهوت الطائرته الى الارض وتهشمت وهشمت قوة الصدمة من كان فيها ولم ينجي الا واحد من ركابها .. في ما نجت الطائرتان من العاصفة وبذلك فقدنا الفريق اول طيار ركن عدنان خيرالله ذلك القائد الشهم الشجاع الذي لعب دورة المعروف في قادسية العرب الثانية بشرف وفروسية

.

وناضل في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي قرابة الثلاثين عام فأنا لله وانا اليه راجعون .

.

.

صدام حسين

تاريخ بيان النعي

١٩٨٩/٥/٦

4/5/1989

قبل الحادث بأسبوع، وأنا بين النائمة واليقظة، أصرخ بلا صوت كانت الأشباح الرمادية الثلاثة تأكل من كتفي الأيمن، وتلعق عظمي الذي بدا ناصعاً في الظلمة، بينما امتلأت باحات القصر بالدم، وأمتار لا تنتهي من القماش الأسود لفَّت كرستال الثريات وضوء النوافذ، صارت الأشباح دخان تشكَّل على مهل بهيئة ثلاث نسوة وقفن عند عتبات السلم اللولبي الرخامي وصرخن، صرخن، صرخن حتى تشظَّت الشرفات، وسقطت بكل زجاجها ونقوشها المغربية الدقيقة وأعمدتها من الكرانيت القاني. توقفن عند هذا القدر من الدمار، ثم انسحبن على مهل إلى داخل المشهد، غبن في الضباب. ارتعشت بفزع من قد سلخوا جلده حياً، على ضوء النهار المتسرب من قطيفة الستائر الزيتونية اللون، تلمست السرير بحثاً عن صدام الذي يختفي فجراً كالعادة، وجدت مخدته على الأقل. حصل هذا وأنا في بطن حوت النوم الدافئ والعميق. بعد أربعين يوماً على هذا الحلم "النبوءة" وسقوط طائرة أخي عدنان ومقتله....

بعد أربعين يوما، مساءً عدنا من قبر عدنان، شاركنا زوجته هيفاء وأولاده ذكرى "الأربعينية" في منزله في حي اليرموك، شعور ثقيل كغيمة من رخام رمادي داكن على رؤوسنا جميعاً. يسود أجواءنا العائلية حزن مر وغضب مستتر تحت رماد، لا يحتاج إلا لنفخة ليجمر. أقسى عام هذا العام، أفسد حلاوة النصر على إيران في السنة الماضية، قريباً ستأتي الذكرى الأولى للنصر بلا صانع النصر الفريق الأول الركن عدنان خير الله. بلا ابتسامته الدمثة. بلا طوله وشواربه وروح الدعابة وذكائه. عدنا بلا عدنان، تلتقي عيوني

بصدام من دون أن تقف عنده. جبهته معقدة التضاريس منذ أربعين يوما، منذ حصلت الفاجعة، جلس قربي على السرير، تحدث عن أيعازه بأمر إنشاء ضريح فخم للفقيد قرب نصب الشهيد، وإعادة رفاته من تكريت لبغداد، وعن تمثالين من البرونز لعدنان بحجم عشرين متراً من البرونز، في بغداد والبصرة. تحدث عن تغيير تسمية منطقة "ديبگة" حيث وقعت الطائرة إلى "العدنانية"، لاحظ شرودي.

"هل أنتِ بخير؟ "يسألني..

: لو أجبتني لأرحت واسترحت. من قتل عدنان؟ قل، حتى لو كنت أنت أرحناصدقني سأسامحك، لأني بلا خيار أصلاً. لن يعيد عدنان للحياة غضبي أو رضاي منك. كن شجاعاً كما في القصائد والأغاني، وأخبرني، وإلا لن أحترم كيانك بعد الآن.

:ساجدة، عدنان أخي وذراعي، من يقطع ذراعه بيده؟ من؟

:حسبي الله ونعم الوكيل.

: الله يرحمه، ويرحمنا جميعاً. تذكري ساجدة أن

"الشهداء أكرم منا جميعاً...".

"تقصد أسوأ حظاً منا جميعاً..".

حين أخبروني بما حصل لم أُبدِ أي رد فعل، تبلَّدت، عضضت شفتي السفلى كما يحصل لي عند أي خسارة، تعتقد غالية أني أدوزن أحمر الشفاه ككل مرة لتتساوى شفتي. هذه البرودة هي نفسها التي انتابتني حين صار صدام رئيس للجمهورية. حين أتت "البنوات" يتصارخن: خالو، خالو وقع من الجو واستشهد، زاد كآبة الأجواء بكاء الصغار ونحيب عدي النسائي المتعالي.

: كذب، لا أصدق، قال سيرجع غداً للشمال. أكيد ليس طيارته، أكيد ليس عدنان. لم يسقط، ولا أسمح لشخص يقولها على أخي أنه ... مات، مات، لا، لا اسكتوا اتركوني، اخرجوا. سقطتُ أرضاً بعدها، خارت قواي من الصدمة. حُملت لمستشفى قريب للفندق، وتلقيت حقنة مهدئة للأعصاب. حين صحوت كان صدام في بغداد أو في الطريق إليها ينهب الطريق نهباً بموكبه من سيارات المرسيدس ليصل لإجراء مراسيم التشييع. حتى إن إحدى سيارات الموكب الرئاسي انقلبت بسب السرعة وجرح سائقها.

: آسف هل نتوقف عن التسجيل سيدةساجدة؟: نعم قليلاً.

: لدي سؤال مُلح قبلها، لماذا لم يعد الرئيس صدام بهليكوبتر لبغداد أو طائرة من مطار الموصل؟

: صدام برِّي الحركة، ولديه توجس من حوادث الطيران منذ سقوط طائرة الرئيس عارف في 1956.

هل أنت تمزح؟ ساعات على سقوط طائرة عدنان، وصدام يعرف سر اللعبة وتريده أن يعود بالجو؟

كم أنت ذكي أستاذ أ. أ. ؟

أعود لساعتها، حين علمت بالحادث أو قل "عملية إسقاط المروحية عمداً".
تعرف أستاذ أ. أ. الإحساس بين المؤكد والمنفي. ماذا يسمى هذا لغوياً؟

: لا توصيف يفي بالغرض سيدة ساجدة. شعور ابتلاع محيط من المرارة، أعتقد.

: علمت مبكراً بأن الذي تأجَّل طويلاً، ويجيء يتهادى إلينا بشغف وحزن، يبدأ شفافاً فيتدرج ويتصاعد باللون حتى الداكن المعتم

الخانق، ثم حد اللارؤية.
"الهامسات" قلنها من قبل، كلهن أخبرنني وأقسمن بمواقع النجوم وبالنجم الثاقب.

لم أصدقهن، نفضتهن كلهن من رأسي مرة واحدة، وعاقبت كبيرتهن.
قلن: "لا حلاوة من غير نار".

"لا الخير، خير ولا الشر، شر". صحتُ بهن.

: اصمتن، هذه سنة النصر على الفرس المجوس "ويا محلى النصر بعون الله".

:"الدم على الريش، جناح صقر مهشم، ساعة رجالية فوق أشجار الجوز، تمطر ليلتها أوراق نقدية خضر، على الصقر أن "يتثعلب", على الحرباء أن تنمو بحجمجبل.

: من هن "الهامسات"؟

: أخبرك لاحقاً، أو لا أخبرك أصلاً، لا ضرورة لذلك. إنه عالم هلامي باطني خاص، كوكب بأناس ميكانيكيين، كلما تعطل أحدهم ألقي في "السجن" من دون إصلاح. عيون ضوئية تتبادل لغة خاصة بُرمجت عليها وبها منذ استلمت مهام عملها، كل آلة من هذا الكيان قابلة للتلف برصاصة رخيصة في لوحة تحكم الرأس. تُصر رغد كبرى بناتي على تمثيل التعاطف، رغم أن زوجها حاقد على عدنان.

: أنا بخير، خذي أطفالك لمزرعتك، أحتاج أنام مئة سنة فقط لا غير، ممكن أصحو بغير دنيا، أصحو وأشوف عدنان يلعب على جرف النهر في العوجة، أصيح عليه، لا يرد، يبتلعه الهواء ويأخذه للأعلى، بينما صدام متخصراً يقف قريباً وبيده سيجار.

: ماما، أنت مرهقة، خليني أبات الليلة معاك، الليلة حسين بالواجب.
: أذهبي. أريد أن أكون مع نفسي علَّني أجدها. ألقيت جثتي على السرير، وأدرت وجهي لقماش الوسادة كي لا ترى بنتي رغد دموع البكاء الذي أكل مقلتي. صوت طقطقة كعب رغد تتلاشى فيصمت رخام قصر القادسية، وقع أحذية خفيفة أخرى تختفي كهمس يذوب خلف الأبواب، غادرت رغد مع أطفالها، تدربت أذني كفرس ليلتقط ما لا يقال في جوف القصور الرئاسية، هنا لغة خاصة، شفرات تنتقل مع الخدم وفي الهواء، أسرار مبثوثة هنا وهناك، وأحاجي عليَّ أن التقطها وأحللها، ثم أعمل بمقتضاها. من يفشل في ذلك يُركل خارج القلعة، أو يُحشر في تابوت وبالكاد يجد من يجنزه رسمياً، أو حتى عائلياً. أعصر ذاكرتي، كيف صار ما صار؟، يومها كنت.. هل جهاز التسجيل يعمل؟

: لا، إنْتهى الشريط. أنا أُدون حالياً.

: انتبه لهذا في المرة القادمة. أم أنك تفضل التدوين؛ ولذلك لم تجلب شريطاً احتياطياً؟

: أكرر أسفي.

قال لي الطبيب الرئاسي: ست ساجدة أنت مؤمنة بالله، كلنا نموت. قاطعته: "كلنا سنُقتل بالدور. حتى أنت". تدلَّت شفته السفلى إلى نصف رقبته من الخوفابتلع تهديدي. أجاب بعد نصف دقيقة

: "سيدتي، للوطن كلنا فداء".

: لا تتذاكى دكتور، أنت هنا لست للهتافات، أنت تأخذ راتبا شهريا أعلى من راتبي لمدة ست أشهر عندما كنت مديرة مدرسة ابتدائية، قل لي حل أطرد به نساء القلق اللاتي يزرنني كل ليلة، ويتنبَّأن بمصير أسود للجميع.
: هل ترينهم بالعين، أم في الرؤية النومية فقط.

: أراهن في صندوق النوموخارجه.

: هل يتحدثنا بالمستقبل أم بالماضي.

: كلاهما.

: هل فكرتي بإخراج ذلك على الورق، دوني كل شيء، أفرغي طاقتك على الورق.

: أكتبي مذكراتي مثلاً، مثل الفنانات تقصد، أنت..

: آسف ليس قصدي، جنابك أعلى قدرا.

: قصدت أم لم تقصد. لست منزعجة. لا أحد له قدر هذه الأيام. آه ه ه.

: عظيم، بنفس الوقت سنكسب كتابا مهما عن سيرة رفيقة ومناضلة، وزوجة لقائد عظيم.. وفذ كالسيد الرئيس القائد.. الـ..

: بشرفك هل أنت مقتنع بهذا المديح؟ صدام لا عظيم ولا بطيخ، أنتم السذج، ولكن تخاف أن تعدم أو تُهرس بالتعذيب. أنا أعرف، أنتم تموتون هكذا يومياً. لو كنتم أحراراً فعلاً موتوا لمرة واحدة وينتهي الأمر. بلع ريقه وخرج يرتجف.

صوت طقطقة كعب نسائي على رخام قصر القادسية، وقع أحذية خفيفة، رنا هنا إذاً مع أطفالها، كذلك رغد, أعرف هذا من وقع أقدامهم.

سأحاول الكتابة منذ الليلة، لأجلهم، لأجلي ربما أرتاح وأريح عقلي من القلق.

بدء صدام ذلك مبكراً مع أمير إسكندر. أصدر مذكراته التي صدق فيها بنسبة عشرة بالمئة، الباقي تعبوي للشعب كما نصحه أمير إسكندر، وفلتر كل عفويات صدام التي ضخها، وكانت ممكن أن

تحلل لتقول شي يسير مشفر بلغة الحكم.. اتصلت بطارق عزيز كونه ثقة وملم بالصحافة منذ الستينيات.

: أبو زياد، رشِّح لي صحفي عربي، العراقيون يخافون أن يفعلوها، ليعمل لدي.

: حاضر، سأعمل اتصالاتي اليوم سنزوركم غداً أنا وزوجتي فيوليت بدعوة من أبو عدي، وسأزودك بالتفاصيل حينها.

اثنان حصراً من يمكن لهما أن يجادلا صدام، بل وحتى يستعملان اسمه مباشرة. أنا وعدنان وطارق عزيز.

: ما الميزة لديه، السيد طارق عزيز أقصد؟

: لأنه مسيحي ولا فرصة له بحكم العراق لو فكر بالتآمر. لن يقبل العراقيون "العباسيون" بخليفة نصراني، الدستور لا يشير لديانة الحاكم، ولكن التقاليد هكذا.

: يقبلون بعلماني إذاً ولا يقبلون بنصراني.

: الأمة العراقية وإن اختلفت على كل شيء فإنها تتفق على تدينها الشكلي.

: رشَّحت لك رجلنا في باريس وليد أبو ظهر. رئيس تحرير مجلة الوطن العربي.

: لا أبا زياد. إذا يمكنك إقناعه. أريد أ. أ حصراً.

: فليكن أم عدي، سأحاول وأعتقد أنه سيقبل المهمة الجسيمة هذه.

في عالم الرؤيا، حدثني عدنان قال

: عزيزتي أختي الكبرى ساجدة. إنه يومي الأول في القبر، ما زلتُ حياً، أتنفس وأتذوق مجاجة الدم في فمي وحرارة الكسر في الصدغ والحبل الشوكي، كما أني غاضب مرة وحزين ألف ألف مرة. عندما كان والدي خير الله (المهووس) بالتاريخ، وأقولها فخراً، يحكي لنا عن إمبراطوريتنا العباسية العراقية. وما يتخللها من اختفاء قسري لشخصياتها الكبرى وهي في ربيع نموها وعطائها للدولة والخليفة. ليتني عندها تعلمت الدرس، ليتني تعلمت ذلك باكراً في صباح يوم من تموز 1979 حين اجتمعنا مع الرئيس البكر، وشرَّقنا وغرَّبنا بالحديث من دون الوصول إلى الوجهة وكان هذا رأي صدام، أن نتعبه أولاً ونحن ثلثي القيادة، ثم هكذا نصعقه بالقرار الذي توصلنا إليه، أو توصَّل إلينا منذ ارتدينا ملابس العمل الحزبي، نريد السلطة. وكذبابة مسنَّة انتهت أيامها سريعاً، همدت جناحا البكر إيثاراً للسلامة.

: لم أكن أتوقع أن ينخ هذا الجمل العجوز الحقود بهذه السرعة. قال عدنان الحمداني، بينما دحجته بنظرة غضب، كوني صهره. تلقَّفها فاستدرك.

"لم أقصد الإساءة له أنما قصدت، آه فعلاً الرجل خاو منذ زمن، ولم يكن يحتاج إلا إلى نفخة ويطير". "مجدداً تهين ابن عمنا البكر وجد أولادي" قلت واقفاً ويدي اليمنى على مسدسي الذي في حزامي.

"هيه، عدنان التكريتي وعدنان الحمداني اعتذرا لبعض أنتما أخوة في العقيدة والحزب والدولة". قال صدام بأمر، ربما كان هذا أول أمر يوجهه كرئيس سيُنَصَّب غداً، أو قد نُصِّب مسبقاً منذ هذا

الاجتماع، وسيطبق رسمياً غداً بتنازل الرئيس البكر في التلفاز الحكومي، سيبرر ذلك بالسن المتقدم والتعب من إدارة الدولة وتسليمها لمناضل شاب آخر نائبه صدام التكريتي. "أنا اعتذر مرتين، مرة لعدنان وزير الدفاع ومرة لعدنان صهر الرئيس البكر، لكن أرجو أن تكون هذه بادرة مبكرة للتمييز بين القيادين حسب كونه تكريتي أو لا، أنا لست تكريتي كما تعرفون، ولا طارق عزيز ولا طه الجزراوي ولا عزة الدوري، لا ليس هكذا لا تتحسس كوننا أنا وصدام وأخوته والبكر وعدنان من عائلة ومدينة واحدة، وعباءة الحزب ومبادئ البعث أكبر وأعظم من القرية والعشيرة والعرق والدين، يا أخي بالبعث عدنان التكريتي".

ليلة غير تقليدية في سياقات إدارتي للحياة العائلية. الآن أتكلم بلغة كلية الأركان التي درست بها، واتقنت مفرداتها في حياتي العملية، كما وتماهيت معها، تعلمنا كل الفروسية والإيثار في حياتنا العسكرية، تعلمت كيف أقرأ البعد السوقي والجيوعسكري للخرائط التي تشتبك خطوطها أمامي الآن فتحاصرني، بعضها يعلق في أكداس من الأوسمة والأنواط التي فوق بزتي العسكرية، والتي لم تعد تعني الكثير لي كما في البدايات، أول نوط شجاعة، افتخار بسمو كما يفعل جبل بين السهول، بعدها الأمر سيان فالنكهة واحدة.ليلتي الأولى في القبر إذاً، ليست بأصعب من ليلة عزل الرئيس البكر. عدت لمنزلي المطل على دجلة. في حديقة البيت الواسعة والمتصلة بمهبط المروحيات الخاص بي، كانت زوجتي الجميلة هيفاء أحمد حسن البكر، ابنة الرئيس بنفسها تعد شواء من كباب عراقي يسيل زيت إلية الغنم من أسياخه. رغم أن لدينا طباخ حكومي. إلا أنها كانت تستمتع بأن تعد ما يشتهي زوجها بيديها البريئتين. بينما يقول شكسبير

: " كل عطور الجزيرة العربية لا تكفي لتطهير هذين اليدين", يدي طبعا.

تجتهد زوجتي لتقول أحبك لمعدتي وقلبي.

: حبيبتي هيفاء كيف الحال؟

: تعال عدنان، خذ أكملت أول سيخين كباب، كُلْ حبيبي.لن أخبرها الليلة على الأقل أنها لم تعود ابنة الرئيس، وربما لم تعود زوجة وزير الدفاع كذلك، إذا ما وضعني صدام في منصب رئيس الوزراء غداً.شعرت بضعفي أمام قوة عاطفتها وحبها لي، كم أشبه رضيع ألقاه صدام أو أحدهم في فم دجلة. ستفهم أني جبنت أو لم أكن شجاعاً على الأقل. لست طامعاً في أي سلطة أو منصب حتى إن الرئيس البكر تحايل وأجبرني سابقاً لأكون وزير دفاع في بداية السبعينيات، أنا صقر أُحلِّق خارج أسوار العشيرة والصراعات والمناصب وتكريت وأهلها وضيق أفقها. لكني الليلة دجاجة مشوية في طبق أمام صدام. على هيفاء أن تتفهم أني لن أقلب المعادلة لو وقفت مع أباها. الكون كله لن يزحزح صدام نصف ملميتر عمَّا يريد.
تناولنا أسياخ الكباب مع الليمون، و"انتبذت" فسكرت قليلاً فبحت بما في صدري.

: إذاً، غداً ستسمعين ما لا يسرك حبيبتي هيفاء.

: خير أبا حمزة، هل الأمر يخصك أم يخص والدي أم ماذا؟

: يخص العراق، وربما كل الشرق الأوسط.

: انقلاب ما على والدي البكر أم حرب في الأفق مع أيران؟

: لا هذه ولا هذه، ....، أو هذه وهذه، ولكن ليس كما تتصورين. غداً يستقيل أو يُقال الرئيس البكر ويعين صدام رئيسا للجمهورية، كان يجب أن أقول لك، لكن..

: عدنان أنت تمزح أو النبيذ أو.. ماذا يحصل؟، والدي الرئيس مازال قوياً ومحبوباً من الشعب والحزب بقيادته القومية والقطرية، ما الذي يدفعه للتنحي هكذا وبلا مقدمات، لدينا ميثاق وحدة مع سوريا لنكون بلدا واحدا، كيف يحصل هذا؟ ولماذا الآن؟ هل للنائب صدام يد في هذا.

صمت، لم أحب أن أكذب على من أحب.

: إذاً هكذا فعلها صدام، والدي جاء به للسلطة فسرقها, والله عيب. أجابت نفسها بنفسها. .

: هيفاء، آجلاً أم عاجلاً صدام سيكون الرئيس.

: نعم لكنه استعجل الأمر، أنا افهم ذلك عدنان، كلنا أنت أنا العراقيون أبي نفهم ذلك، منذ غض النظر عن مؤامرة "ناظم كزار" التي لولا عناية الله وتأخر الطائرة لكان والدي مقتولاً منذ سنوات، ولكن.. عدنان كيف لم تقف مع جد أولادك؟ ها، والدي اصطفاك بثقة زوجاً لابنته ووزيرا للدفاع، بينما أنت لم تدافع عنه حتى عندما سرق الآخرون سلطته بالإكراه وأجبروه على التنازل، عدنان كيف استطعت ذلك؟ يا أخي الله أكبر عليكم من عائلة".

: هيفاء، البعث أكبر، الأمة العربية، العراق. . أكـــبر.

قاطعتني بمرارة. "تقصد صدام أكبر"، ثم غادرت غاضبة إلى منزل والدها ليلاً.

كان يجب ألَّا أخبرها الليلة. كنت محتاج لها، لأحضانها لأشعر بالأمان. كنت خائفاً وضعيفاً ومدفوعاً بعواطف شتى لا أعرف

مصدرها. كان يجب أن تبقى معي لكنها تركتني لسكري وتشتتي ولظلمتي الداخلية. ترنَّحتُ مع صوت يوسف عمر.
"يالزارع البزرنكوش ازرع لنا حنة.. حنة، حنة، حنة.."

جلسنا على مائدة تناثرت بفوضى خرائط عسكرية ملونة على جانبيها. "رفيق عدنان، لن تطول هذه الحرب، ربما أشهر أو سنة على أسوأ التوقعات، إنها ثانية في التاريخ لا تأتي إلا كل ألف سنة، إيران مشظَّاة وتائهة بين الحرس القديم من دولة الشاه وبين الحرس الجديد من دولة الخميني، إنها الصولة التي ستعيد ما خسرناه من نصف شط العرب في اتفاق الجزائر المشؤوم. "حسناً رفيقي صدام، وفقاً لما أعددت علينا أن نجتاز معبر الشلامجة الحدودي ونتغلغل في مدينة المحمرة الإيرانية بعمق أربعين كيلو متراً جنوباً حتى عبادان، هل ندخل عبادان؟ نجتاز نهر الكارون؟ وما الجدوى من مسك الأرض هناك؟ إذا كانت عبادان، مصافي عبادان على مرمى مسدساتنا من جهة شط العرب منطقة السيبة العراقية، وبإمكاننا تدميرها من دون الالتفاف براً كل هذه المسافة المكلفة؛ من خطوط نقل وإمداد وتعبئة وعقد سيطرة وقيادة على أرض أجنبية" قلت في الاجتماع.

: لكن المحمرة عبادان والأهواز عربية وليست أجنبية رفيق عدنان.

: نعم عربية، ولكن ليست عراقية هي دولياً تتبع إيران، رفيق طارق ممكن أن يسهب في ردة الفعل من الأمم المتحدة لتجاوزنا الحدود الدولية، وقد يكلفنا ذلك تحمل قرار شن الحرب من طرف واحدة العراق، وإهمال تجاوزات الجانب الإيراني على قرانا ومدننا.

: حتى لو أُدين العراق ببدء الحرب، لن يطبق فعلياً أي عقوبة جراء ذلك، لأننا أصدقاء وشركاء للأمريكان في العداء لإيران الملالي المنبوذ دولياً، ولنفس الغرض السابق لأنه على عداء للغرب

والأمريكان كما يعلن ذلك صراحة.قال طارق عزيز، وهو يعدّل نظارته المقعرة المتهدِّلة كل ثانيتين.

بين عشرات الرتب المُذهَبة النجوم، وحوارات الحرب المقبلة حماس صدام لذلك، وشعوري الخفي بأن أحدهم سيموِّل هذا المشروع الكبير؛ لحرق المنطقة وإنهاء المتبقي من قوة إيران العسكرية التي درسناها جيداً في كلية الأركان كوننا دولة جوار وعداء عقائدي منذ الخليقة.

انسحبت من الاجتماع بعذر تفتيش قطعات الفيلق الثالث ظهر اليوم.

سنة فقط من الحرب؟ كم أنت متفائل يا صدام. أنت لا تفهم أن مشاريع الموت العملاقة هذه بمدة صلاحية مفتوحة؛ لينمو الآخر ونضمر نحن. كل إطلاقة رصاص نطلقها تعني ثانية من التأخر عن زمن الحضارة، الذي يعدو اقتصادياً وتقنياً وبشرياً، بينما نعدو بالسالب بأعمار قوة بشرية وثروات تبدد في الهواء والغضب.
اتخذت من البصرة مقراً للقيادة، عفت بغداد وكرهتها كونها الرأس الذي يأمر فنطيع، بينما أوصالنا تُهشَّم ونصمت. تمزقت بين الواجب العسكري والواجب الإنساني. كل جندي هو ابني حمزة وعلي ولا أود له أن يعود لأبيه لحماً مثروماً في بسطال عسكري مدخن. لا، ليس هذا ما صنعه جعفر العسكري لأجله، ليس هذا ما صنعه فيصل الأول، لم لدينا مركز قرار سياسي إذا كانت الحرب أول الحلول وأوجعها. بسرعة إطلاقة تسير سيارة الجيب العسكرية الملطَّخة بالطين للتمويه بين الطرق النيسمية قرب الفاو الهشَّة عسكرياً. شبه جزيرة سائغة في فم الخليج وإيران. أنظر للسائق في المقعد الأمامي، يتمايل مع المطبات الطبيعية للطريق غير المعبد.

"ولدي، ما اسمك؟"

"م. ق. خ حمزة، سيدي".

"متزوج؟ من أين أهلك؟".

"سيدي، من محافظة بابل. المحاويل، أعزب سيدي".

التفت للطريق. نخل بلا رؤوس تمتد على مرمى البصر. بسبب القصف المدفعي وبسبب. . . "قاتل الله الجهد الهندسي" أُردد. هم من فعلوا هذا ببساتين البصرة لتفتح بصرياً أرض المعركة. سمعت أن النخلة تموت كالإنسان بمجرد قطع رأسها. صيف ونيران مدفعية وهروب جماعي للبشر والحيوان من القرى المخربة.

"حمزة، سأزوجك عندما تنتهي الحرب، هل لديك بنت عم تحبها وترغب بها؟".
"تهتز خوذته أمامي، ربما كان يبتسم، أو لا يصدق أن لهذه الحرب نهاية قبل أن يموت".

"شكراً سيدي،

إذا انتهت الحرب سأكمل دراستي أولاً، كلية إعلام، ثم أرسل والدي للحج وقد. . .

"ضاع صوت حمزة المجند في زمجرة القصف المدفعي وصوت طائرات إيرانية تفتح الصوت فتصدع أذاننا، وقبة السماء الناصعة الزرقة. ربما قُتل حمزة، أو ربما أكمل دراسته كصحفي، وهو يكتب الآن بعد موتي هذا الحوار العفوي بين وزير الدفاع وسائقه العسكري.

كم حمزة علينا أن نقتل قبل أن نقول كفى؟ وهل كفى هذه تعني نهاية المشاريع الحربية الكبرى في المنطقة؟ لا أعتقد. كل ما حدثنا به والدي خير الله طلفاح كان للمتعة والعبرة من التاريخ فقط. بالنسبة لي على الأقل، بالنسبة لصدام كان يعيد تمثيل الماضي في الحاضر، يتخيل عربات البابليون وهي تدخل أورشليم لمرتين وتأسر أرتالاً من

اليهود، كان صدام حينها يتقدم الحرس الإمبراطوري وهو يحرق الهيكل، بينما يطعن ملك يهوذا في عينه ويحمد مردوخوإنليل لهذا النصر، ثم مرة تعود سينوغرافيا الخيال في رأسه. يلز خيله ليقتحم كتيبة الشرف الإمبراطوري لملك كسرى يزدجر، يمسكه من لحيته ويسحله في المعسكر، ثم يقطعه بسيفه كحبة بصل.

كان حالماً وعلى الحلم أن يطيع الواقع فيأتي الآن، بما أن الأعداء التقليدين لم يتغيروا منذ أربعة آلاف سنة. اليهود الفرس وهكذا. لم يكن سارد التاريخ والدي خير الله طلفاح يعي ما يصنع مع آلة الموت صدام، كان يضخ كل شيء لرأسه مرة واحدة، ثم أقفل الثقب. كان يدفعه للصعود إلى الأسفل. كان والدي يصنع من صدام ربّا من دخان ودم وغضب، رب مُتطلِّب لأضاحي بشرية ليستمر بالنمو. أعي أن التاريخ لا ينسخ بنفس التفاصيل وإن تماثلت الأمكنة والشعوب والمنظومات القيمية، ولكن.. من يتفوه بسرد التاريخ لا يعي كيف ينمو الإنسان اليومي، ويتداخل خارج حدود الأرض والغضب والقوميات. الحاجة للتداخل البشري تفتِّت ذاكرة الحقد، فاليهود بعد سبي بابل صاروا بابليون، عراقيون وعاشوا معنا حتى الخمسينيات، حيث نبش التاريخ من جديد وغول ليصنع دراما جديدة ما في أرض كنعان. والفرس، لألف سنة خلت كانوا يديروا قصور هارون بعد أن شكلوا إداريا بالباطن دولة بني العباس. أفهم هذا الصراع المستمر بالنيابة بين الروم الفرس، وكيف تلبس جبة عربية أموية رومية، وعباسية فارسية في الآن نفسه.

ساجدة.. إذا كنتِ لازلتِ تسمعيني، لأني لم أقل لك هذا وأنا حي. كنا أمواتاً أحياءً مكفنون بال "خاكي" طوال اليوم. نعطي أو نأخذ أوامر عسكرية. واقعيين جداً نحدد خسائرنا من الرجال مقدماً، هنا خمسون بالمئة، هنا عشرون بالمئة وهكذا.. إنها الحرب. واقع مميت وسيكون من الخيانة تجميله ليبدو كالحياة. اعتدنا هذا الشعور أن تحضن

أحدهم للمرة الأخيرة كأنما تصلي عليه جنائزياً. اعتاد الجند ذلك حتى إنهم تعلموا أن لا يُكوِّنوا صداقات في الجبهة؛ كي لا يحزنوا بعدها بالفراق القاتل.

"وطي يا حلو لا يصيبك القناص ... ايش لك بالحرب وبسعد بن وقاص".

ضحك الجميع بهستيريا فاقت حتى السكر الذي غطسوا في كحوله.

غنى منتشياً المطرب سعدون هذا المقطع بعد أن أخذ الأمان مني بإشارة من رأسي. هو يعلم أن هذا سيكلِّفه رأسه إذا وصل للرئيس. وثق بي أن أحميه. أنا عدنان الترياق الوحيد لوصفة الموت بأمر صدام. فقط أنا من يبطل هذا العقار القاتل. أفعل هذا كمرهق وناقم ومتعفن في تابوت الحرب منذ 1980ولازلت أُؤدي دوري مبتلع "موس" غضبي ورفضي كوني جزء من هذا المصير "وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد".

الآن سيدور في رأسكِ أني سلبي؟ نعم جداً. أقصى طموحي أن أعيد شريط الأحداث إلى 1979 تموز، وأهرب من هذا الالتواء أو الخطة التي حشرني فيها صدام لأصطف معه ويزيح الرئيس البكر. نادماً لأني لم أُوقف "إله الحرب" البشري وقتها من النمو أكثر.

تذكرت، حُبِس سعدون بعدها لهذه الأغنية ولأغنية أخرى في عيد ميلادي

"يا أبو حمزة يا أبو الكرم والأمجاد. . بمولدك فرحانين وفرحانة كل بغداد".

حافظت على رأسه على الأقل، بكى عندما شكرني وقبَّل كتفي، قال : "سيدي هددوني بالاغتصاب الجسدي والمعنوي". كان يقصد بالمعنوي أن يتحدثوا بالإعلام عن مثليته التي لا يعلم عنها جمهوره.

ربيع آخر يهطل علينا بخضرته المدهشة في منطقة (الطيب) شرق ميسان. أمتع بصري بهذه الطبيعة، وأشم رائحة العشب الطري الذي ابتلع القتلى بملابسهم كسماد منذ سنوات. وأكاد أسمع أنينهم، أو طنين نحلات هاربات من خلاياها استشعاراً لمعركة ما، حيث تحتشد الآلات الفولاذية والبارود والخوذ والحراب اللامعة تحت وهج شمس فتية. كما في مشهد آشوري للنحت البارز على البازل. أعددنا كل شي للموت أو الحياة، وما علينا إلا أن ندير بكرة الروليت ولتقع كرة الخاسر أو الرابح أينما تقع. لم أعد قادراً على فهم صانع القرار في بغداد أو طهران. كلاهما جريح ومصاب في الخاصرة، وكلاهما ثور عنيد يكابر للنفس الأخير من دون رابح أو خاسر .

"خطرت لي فكرة " قلت لفريق ركن أثق به وأعرف إنسانيته. "ماذا لو ذهبت بسرب مدني وهبطت في مطار "مهراباد" وسط طهران، وبصفتي نائب القائد العام للقوات المسلحة سأطلب الاتفاق على السلام كما فعل السادات مع اليهود؟".

صمت ونظر هنا وهناك ليطمئن أن لا أحد يسجل أنفاسنا وجنوني هذا.

: ستسقطك مقاومات الطيران الأرضية العراقية قبل أن تدخل الأجواء الإيرانية، ستُخوَّن وتُعامل كالجاسوس الطيار منير روفا، سيدي.

: عندها أكون أرحت ضميري، وحاولت ولو بدمي وشرفي العسكري وسمعتي حقن دم جنودي.

: سيدي الوزير. أنت إنسان طيب، عسكري محترف وفارس، ولكن السياسة تحتاج لما دون هذا، السياسة أن تمارس عهر حكومي وشرعي، تصور التناقض سيدي.

: حسناً ما إن تنتهي الحرب سأستقيل، سأترك بزتي العسكرية ومكتب وزير الدفاع ل المدلل "حسوني بن كامل"، الناقص الشرف، العاهر بشوارب وبيرية.

كان حسين كامل علقة تعيش على نرجسية صدام. يلعق حتى أحذيته ليرضيه. ربما يحلم حسين كامل بدورة جديدة من حكاية صدام والرئيس البكر، حيث صدام حارس في المكتب العسكري للحزب، ثم مقدِّم برامج زراعية عندما كان في مكتب الجمعيات الفلاحية، ثم هوب هكذا برمشة عين نائب للرئيس. ما الجديد؟ حسين كامل حارس، ثم هوب صار فريق أول كل شي لصدام وصهره المطيع. لكن البكر ليس صدام، ومن سار على شفرة الموت ليلتقم العرش لن يخلعه ولا الموت نفسه منه.

"سيدي، شبه تمرد في القاطع الجنوبي بعد أن حرق الفريق حسين كامل أمراء الألوية أحياءً في سيارتهم العسكرية، جئت الآن وفي الملابس رائحة الشواء البشري، وفي الجو غضب عارم وحزن من المراتب والضباط". أدى التحية العسكرية لي وانصرف أحد العقداء. ذهبت، رأيت حسين يفرك بشواربه وقد تفحمت الجثث حوله. كان يتوعد الجميع بنفس المصير. أي سلطة يملك هذا المعتوه، حتى صدام لا يفعلها علناً وبلا مبررات. فطالما كان الخوف من العقاب أقسى من العقاب بفلسفة صدام.

"من سمح لك بذلك؟ هل تجاوزت حدودك إلى هذا الحد؟ هؤلاء دافعوا عني وعنك وعن كل العراقيين منذ سنوات، كيف سنواجه أطفالهم وأسرهم ونحن نفاخر بهم كحماة للوطن؟".

"إنهم خونة، لم يتقبلوا أوامري العسك...". أقاطعه كمن يلطمه على فمه.
"ومن قال أنت عسكري أصلاً؟ هل تصدق منح عمك صدام لرتبتك هذه؟ إنها لا تساوي الورق المقوى المصنوعة منه".

"سأخبره بكل هذا عدنان، سأخبره أنك تهينه من خلالي".

"أنت ناقص وسافل حسين، عار أنت منذ أيام مراهقتك، وكلنا نعلم حكايتك وأنك...، أستغفر الله، تفهمني جيداً، لن يزكيك أنك ابن كامل الحسن بن عمنا، لن تزكيك رغد صدام زوجتك، كل هذه لن تجعل منك رجل في نظري، ستشتكي لصدام فهذا مداك لا غير وهذه حرفتك الرخيصة".

أشعر ببرودة في أطراف جثتي. هل أنا في القبر أم ما زلت في ثلاجة الطب العدلي؟ هل علمت زوجتي هيفاء بما حصل؟ هل علمت ساجدة، أمي، أبي؟

"انظر عدنان، هذه صينية متخمة بالأنواط والأوسمة لمئة مقاتل، سأمنحها لمن يسترجع الفاو من القادة، ومثلها للفيلق الذي يرفع علم العراق فوق مبانيها بعد التحرير إن شاء الله". قال صدام ضاحكاً حماسا مهولا في عيون جمع من قادة العمليات العسكرية وآمري الفيالق والألوية. هذه الصينية لا تعني لي شيئاً. ولا تعني للجنود الذين سيخترق الرصاص والشظايا عظامهم وأمخاخهم، لأنهم لن يحصلوا عليها. ستذهب لمن يغفو في مكتبه في نقاط آمنة بعيداً عن الجبهة من القادة.

تعني الفاو الكثير لكل مقاتل بسيط في الجبهة، أنا منهم وأولهم. تعني الكثير للعراقيين، لأهل البصرة الذين فجعوا بنخيلهم قبل أولادهم، ثم بترابهم وشطهم. مئة ألف بصراوي هجروا من الفاو منذ بدء الحرب. سنتان والفاو تتحدث الفارسية تحت العلم الإيراني، لم نكن

بحاجة لأنواط وأوسمة، كنا نريد أرضنا وكرامتنا المهدورة هناك، كلنا أرجعنا الفاو و كلنا طرنا من الفرح لذلك وسامحنا من أضاعها وأضاع شط العرب من قبل باتفاقية الجزائر ,لثوان سامحنا صدام.

حسنا، في **نيسان 1988** عادت الفاو تتحدث العربية بلهجة بحارة البصرة، شمَّرت سمر السواعد لترمم نفسها علها تغفر ما حصل لمن فعل.

ساجدة، تقول العمة بدرة " كشفت الطالع لعدنان، لن يشيخ. انظروا إلى وجهه، هذا وجه "عجي" طفل بجسد رجل". ضحكت لحديثها"عمة بدرة أنا مواليد 1939كيف تريننيِ صبي؟ بالنسبة لملامحي فهي ثبتت منذ أيام الصبا هكذا، ولكني أشيخ من الداخل في مهنة الوزير هذه منذ عشرين سنة".

"وليدنا عدنان، عماتك تريدك سالم، لا المنصب والمغانم، فهمتني عمة".

وحينما زارت العمة بدرة ضريحيِ المرمري قرب نصب الشهيد في بغداد، عضت إصبعها ونشجت وهي تضرب صدرها بقبضتها "ياعمة، قلت لك ياعمة، لباس العسكر كفن تمشي به ويمشيِ بيك، يا مصيبتك يا ليلو، يا حسرتك يا خير الله، سواها ابنك صبحة، سواها".

كنت أود أن أسألها من خلف القبر المثقل بالزهورِ والرخام."كيفِ عرفتي أنني لن أشيخ يوماً؟ بالحقيقة كلنا نعرف هذا، ففي مهمتنا أو مهنتنا في مدار صدام لن تطول أعمارنا عن عمره".

أذكر أنك زرتنيِ في قبري أختي ساجدة مع أبنائك وعدي وقصي، لم أكن ساذجاً لأتوقع زيارة رغد أو رنا وزوجيهما وزيرِ الدفاع الجديد وأخيه صدام كامل، مسؤولِ حماية صدام. وإن حصل سأشعرِ بالموت مجدداً إذا ما تهامسوا عن رحيلي القسري. أقسى ما يؤلم

الآن ليس الكسر في الحبل الشوكي، ولا ارتجاج المخ بالنسبة لجثتي في صندوق الساج هذا، والذي يهتز في مسير الجنازة العسكرية، بينما مئات الرتب تسير خلفه ويصطف الآلاف البغداديون بصدمة ودهشة في أول أيام عيد الفطر لفقدانهم فتى تكريتي الأصل، طالما انصهر في بغدادهم وأكل وشرب ودرس العسكرية، وأحب وعام على صدر دجلة مع القوارب في خضر الياس، أو حلق وحمى المدينة كفريق ركن طيار. أنا ابن هذا الصدق الذي دفعهم ليقطعوا عيدهم ويشيعوني بمرارة وحزن وغضب. هذه أوسمتي وشرف خدمتي للعراق، دموع الأمهات وذهول الآباء على طول الطريق قرب نصب الجندي المجهول.

أي تشييع حكومي؟ وما جنيت من الحكومي هذا؟

قبل عام من اليوم، حيث أسرد بما تبقى بي من نفس متقطع، ما أستطيع أن أسرد قبل أن تنتهي بطارية الحياة لدماغي المهشم إثر سقوط طائرتي الهلكوبتر في الليلة الماضية. كانت الأمور تنحدر عسكرياً، وكنا نفقد قصبات وروابي وعقد سيطرة مهمة في شمال العراق. الإيرانيون شحذوا ما تبقى من حرابهم ولن يقفوا إلا في بغداد. لم يكن سراً انكسار المقاتل العراقي وإرهاقه معنوياً وجسدياً منذ ثمان سنوات، بالحقيقة كانت لدى الجميع "الفاو فوبيا". سنتين ونحن نحاول استعادة الفاو من دون أن نحرز سنتمترا واحدا.
عشرات الآلاف من الشهداء والجرحى والأسرى ومساعدات لوجستية من مياه الكويت الإقليمية، وشيك مفتوح للسلاح الأمريكي وخبرات مصرية كانت عبرت قناة السويس المشابهة طبوغرافياً لأرض المعركة في الفاو، قد استعنا بها لم تجدي نفعاً. لن يلعق جرحك مثل لسانك.
انكمش وجه صدام وبدأت نوبات الصرع الرجافي تتزايد لديه في الآونة الأخيرة.

مرة قطع اجتماع عسكرياً عندما تهدلت شفته بشكل لافت، برَّر الأمر للقيادات العسكرية "تذكرت الرفيق القائد المؤسس (ميشيل عفلق) فحزنت". رأيت ابتسامة سرية في عيني الفريق ماهر عبد الرشيد، ومكر في عيني طارق عزيز أخفاه خلف نظارته السميكة.

كان حسين كامل كفطر ينمو بتسارع على طاولات الاجتماعات العسكرية العالية السرية. لم أكن أخفي تجاهلي واستغبائي له. طلب مني صدام غير مرة أن أتعايش معه كأمر واقع فضحكت.

يسكن أخي لؤي ووالدتي معك ساجدة في جناح ما بالقصر الجمهوري. حياتهم رتيبة ومترفة غير أنها محاطة بالبنادق والعيون المتلصصة، وأجواء أمنية صارمة
"ساجدة كأنما منزلكم دائرة الشعبة الخامسة هههه".

"والله صدق، فقدنا حميمة العيش منذ أيام حي التكارته بالكرخ، تذكر عدنان؟.
"لكل سلطة ثمن، بالنسبة, لي ما زال بيت أخوك دافئ عائلياً، وذلك وقود سعادتي واستمراري بالحياة".

"تبدو نظراً عدنان، أترف مني حتى، عيني باردة، بلا حسد".

"أم عدي أقولك شي. عدا عن أمور الواجب العسكري فأنا أتجاهل كل المنغصات والتوتر في الحياة، وأبعد رأسي عن أن يفكر فيها لأكسب راحة البال والطمأنينة كما ترين، المشاكل هي المشاكل، نار تبحث عن حطب، فلماذا نكون حطبها بدلاً أن نكون ماءً لإطفائها؟"

. "تكتيك ذكي سأعمل به".

"هههه. عيني ساجدة، هذا يسمى استراتيجية طويلة الأمد، التكتيك آني ومرحلي، تحتاجي لدورة ضباط هههه". ضحكنا وأكلنا أيس كريم تخزنه ساجدة في ثلاجات القصر لأشهر تقول إنه لا يفسد

هكذا، معقولة؟ عدنا لدقائق إلى طفولة غادرناها بزخم صاروخ إلى حياة مرهقة صاعدة بين الخطر والطموح الجارف، ومؤامرات المخابرات وانقلابات العسكر.

"ها، راجعة شباب أم عدي بشعرك الأشقر الشمالي هذا".

" أخي عدنان تقول ما يسعدني، لكن صدام.. لا يرى ما ترى".

"أها، لأكون أخوك وصديقك هذه المرة، أقصد سأتكلم بأمور حساسة.إدارة حرب بحدود دولية من زاخو إلى البحر بمليارات المشاكل المركبة تحتاج لكائن خرافي عدا عن متطلبات الشعب وخطط الأعداء في الخارج، أقصد عليك أن تتفهمي عقل جسد صدام إذا كان أقل كفاءة في الواجبات الأسرية، الزوجية بالتحديد، تفهميني ساجدة إلى حد الآن أليس كذلك؟".

صمت وقد أشحت نظري لأعلى الستائر كي لا أرى تضاريس جبل الحزن الذي بدء يتشكل.

"تقصد؟". "نعم أقصد هذا، التوتر اليومي يعيق التواصل الزوجي، أنت متعلمة ومعلمة وتتفهمين الأمر".

وقفت قرب النافذة، بينما مساء داكن يربض بالخارج، تتيره مصابيح متناثرة هنا وهناك بين تيجان النخيل من حدائق القصر، تجتهد أن لا أرى انكسارها وحرقة لمستها في صوتها قالت:

"لكنه جيد معها، سميرة الشقراء، أعلم أنك تعلم، كلكم تعلمون ولا أحد لا أحد يذكر ذلك، ولا أحد يوقفه، ولا أحد يشعر بي، ولا أحد ينقذني من صدام، أو ينقذ صدام من نزوته، تصور لقد جن هذا الرجل. طلقها من زوجها وأبعد أبناءها عنها، احتكرها لنفسه، تقول إن الرجال يزهدون بنسائهم بعد الأربعين، تبرر له. كأنك لا تعرف

صدام كما تشكَّل في بيتنا، كلكم تعرفوه وتخافونه حتى لو وصلت النار لمنزله لا تستطيعون إنقاذنا. أنا مجروحة عدنان وسأغادر القصر الجمهوري إلى مزرعتي".

"حسناً، منزلي مفتوح لك وزوجتي هيفاء تحترمك كثيراً، أما بخصوص سميرة فنعم كسر صدام تقاليدنا، وجاء بغريبة كزوجة له، كما أنني لا أستطيع منع زواج شرعي ولو لكان الشخص خادم في منزلي فكيف بصدام. أم عدي أنتِ الأساس وسيفتقدك ويعود إليك بعد أن يشبع منها، نحن من طينته ونعرف تفكيره، فلازال ابن قبيلة ويقدس الزوجة والعائلة كشرف مهما عاشر وأحب فهو سيعود للجذور. أنا واثق من ذلك فقط تحمَّلي هذه الأيام وستمر كما كل شيء مر في بدايته، ثم يصبح عادياً بالتأقلم".

"لكنك لا تعرف مرارة النساء إذا شاركنهن النساء في رجالهم، قس على هذا أن يشاركك أحدهم زوجتك، وستشعر بأن سريرك صار من جمر يتقد كلما تقلبت عليه".

حضنتها فبكت. أطبطب على ظهرها لتهدأ. كيف أوقف نزيف أختي من الحزن؟ لا أعرف. طلبت من استعلامات القصر هاتفياً أن يُحضر حالياً الخادم المرافق لصدام، كامل حنا وعائلته جميعاً.

"سيدي تحت أمرك" أدى التحية العسكرية ووقف مع أسرته في طابور عرض. جلست خلف منضدة مذهبة من طراز لويس السادس عشر. بصوت غاضب.
: كامل حنا ججو، أمك المربية مورين إيشوججو، وأباك حنا الطباخ، أخاك ملكو خادم بالقصر. رفعكم السيد الرئيس من ريف العمادية إلى قصور بغداد، اتخذ أمك مربية لأغلى بناته، وأنت صرت بمعزة أولاده وعينه ولسانه الذي يتذوق به طعامه، ولم تصونوا هذه النعمة. أعلم أنك مسيحي غير متدين، ولكن نحن نعتقد أن تعاليمك في

الإنجيل تمنعك من الخيانة أو التحريض عليها. ألم تسمع وصية لا تشتهِ زوجة قريبك؟ لا تشتهِ زوجة جارك؟ ألم تعلما بذلك أنتما مورين وحنا؟ ألم تمنعاه؟ أتعرف ضريبة العبث مع بيت صدام؟ الموت.. حتى لو أغضب ذلك عمك صدام فلن يعيدك للحياة، ولن ينفعل ويغضب لأكثر من يومين أو حتى أسبوع. ستعود عائلتك عندها للرعي في سفوح سرسنك كما كنتم.
كم أنت متهور لتشارك في إيذاء أم عدي. كيف فكرت لثانية أنك في مأمن منا؟ وكيف فاضلت بينك وبين زوجته وأولاده فاخترت تحديهم وإيذائهم هكذا؟ ها؟ حمار غبي أنت؟

"سيدي، أنت لست الرئيس (ردَّ بصلف) تابع. "كما أني خادم كما تقول ومهمتي الاستجابة لأوامره، إذا كانت ضد الست أم عدي أو غيرها، الرئيس قرَّر وفعل ما أراد، ونحن ننفذ رغبته، لست أنا من جاء بالست سميرة الشاهبندر إليه، أسأل زوجها الطيار الصافي، كيف قدَّمها له؟ وكيف تنازل عنها بثانية؟ نحن لسنا قوادون سيدي. لا أمي ولا أبي ولا أنا ولا أخي. نحن موظفون في قصر الرئيس، وأنتم هكذا تعطونا حجم أكبر من دورنا سيدي".

ساجدة .. كنت متوقعا لنهاية سريعة لهذا الخادم المغرور , كيف , متى , لا أعلم؟

.....

كعادتي كل صباح كنت أحلق ذقني أمام المرآة، رغم أني لدي ماكينة حلاقة كهربائية، إلا أني لا زلت استعمل موس الحلاقة Lord ومعجون آدم العراقي الذي أفضله. تهرع زوجتي إلي، تستعجلني أن أجيب ساجدة على الهاتف. "حبيبتي هيفاء تمهلي حتى انتهي "تقول" أم عدي منهارة وتريد ابلاغك شخصياً، ثمة كارثة في القصر، عدنان أسرع وأجبها على الهاتف، قلبي غير مطمئن، بينما أنت تشطف وجهك وتبحث عن منشفتك بهذا الروتين اليومي البطيء،

وكأن كل شي بخير". "نعم هيفاء، سأجيب ساجدة الآن لا تقلقي، خيراً، كل شيء سيكون بخير".

.....:

...: .

: أها، نعم، لا "تتخبص" ساجدة سأعالج الأمر، أين أنت الآن؟ أين عدي الآن؟ أي مستشفى؟ نعم، نعم

.... :

: حسناً، أنا قادم، فقط تماسكي، سأصل خلال دقائق للقصر، حاولي تأخير صدام قليلاً لأقابله. تسألني هيفاء "ها أبو حمزة، حصل شر لا سامح الله؟ ما تقصد بالمستشفى؟ "عدي حاول الانتحار". "ياساتر إيش صار بهذا الشاب بسبب الحب؟ مسكين الحمد لله على سلامته". "قد يُعدم بعد أن يُشفى". "إيش هذا الكلام، لا رابط بالموضوع، من يعدم ابن صدام؟ من يعدم شاب أراد أن ينتحر؟ أنت غير منطقي عدنان". "لا منطق منذ اليوم، عدي قتل كامل حنا، وصدام يهدد بإعدامه ولو حتى كجثة منتحرة، لن يغفر له، كامل حنا بشارب صدام وعدي قص شوارب صدام أو نتفها بهذا الفعل". "لا أفهم، فوضى من الرغبات والصراعات، حبيبي ابتعد عنها، لا أريد أن أخسر زوجي، أرجوك تجنبهم، آسفة أعلم أنهم أهلك ولكن..".

"خالو.. سيقتلني بابا، خالو لا أريد أن أموت، أنت وماما أوقفوه".

حضنني بوهن فرخ طير صغير، أنابيب المغذي في ساعده الأيمن وصفرة فاقعة على ملامحه، يرتجف كبردية مجوفة، وقد سالت رغوة كزبد كريهة الرائحة من شفتيه.

"لا تخف، كن رجلاً". طبطبت على كتفيه لأشجعه.
شعر بتحسن لبرهة.

"لماذا تنحب ماما ساجدة في الخارج؟ هل سأُعدم الليلة؟".

"لاتكن أبله لن تعدم، الليلة على الأقل، لكن صدام قادم الآن إليك وسيقرر، كن مطيع، تذلل واسترحمه فهذا فقط ما يمكن أن ينجيك منه".

غضب صدام تصاعد، لا يطيق عدي منذ غباواته الأولى وتهديد العائلة بفضيحة دولية، إذا لم يزوجوه طالبة معه في الإعدادية. انتهت الحكاية حينها على جمرٍ خابٍ يستعرـ بنفخة من حسين كامل مثلاً، أو أي حدث عابر، لكن هذا ليس بعابر؛ صدام أقسم على أن يحمي كامل حنا، لكنه لم يقدر، ومن الفاعل؟ ابنه البكر مُدلَّل خاله وأمه.

ضاعف غضبه كون سوزان مبارك، زوجة الرئيس المصري، كانت تنام في استراحة حكومية على بعد أمتار من موقع الحادث، كانت ضيفة على ساجدة. علمت بالأمر وطارت بالحكاية في اليوم التالي إلى القاهرة. "المصريون يحبون الفضائح وسيفضحوننا".

"سيشمت بي حسني مبارك، لديه أبناء في سن عدي ولكنهم منضبطون، أنا لدي حمار بشري".

"أتخيل حسني مبارك الآن وهو يتصل بالرؤساء العرب ليخبرهم".

"هل ستعدم عدي فقط لأن سوزان مبارك حكت القصة في القاهرة؟".

"لا تستفزني عدنان هكذا لأغفر له، ليس هناك مقارنة بين جريمة وعار إخفائها من دون عقاب، لن تنفع طرقك لتخفيف العقوبة ، لأنك خاله ولست محايداً".

أكد لي صدام غضبه "من يجرؤ على من في كنفي سيجرؤ علي، لو

أنه ضربني هذا المعتوه لكان أرحم من أن يضرب من هو في دخالتي".

"لكن.. صدام " قاطعني وهو يلكم صدري برفق (أنت) عربي، عشائري وإن عشت في بغداد، وما في صدرك في صدري، ولكنك تحب ساجدة وتحمي ابنها لأجلها".

"أبو عدي.." رد بحدة. "لا تنادني باسم الكلب هذا، نادني رفيقي أو السيد الرئيس لوكنا في محضر رسمي؛ نادني صدام في خلوتنا، فهذا يطيب خاطري ويزيح عبء الرئاسة لثوان".

دخل حسين كامل، تلكئ في أن يؤدي لي التحية العسكرية فشزره صدام ليفعل.
"سيدي الرئيس وصلت عائلة كامل حنا من دهوك، وهم بصدد تقديم تنازل عن دم ابنهم القتيل. أعتقد أننا بحاجة لتسجيل ذلك وبثه في نشرة جريدة المساء الإخبارية المتلفزة".

"سألتقيهم، لن أقبل وساطة في هذا أو تنازل حتى لا يقال خافوا مني وفعلوا هذا مكرهين". قال صدام ثم غادرنا.

اتصلت بي ساجدة مساءً، بالكاد أسمعها على الخط. سألتها "ما مشكلة ضعف الصوت في الاتصال هل بدَّالة القصر معطلة؟".

"أ كلمك من قصر رغدان في عمان، ذهبت ليتوسط الملك حسين؛ سنطير معاً لبغداد صباحاً".

"يعلم صدام بذلك؟".

"ليس مهماً، عليَّ أن أنقذ ابني عدي من عقوبة الموت، جن صدام بسبب الشقراء، ولن ترضى عنه إلا بأخذ الثأر لمقتل.. قواد.. ها. قالت الكلمة الأخيرة بخجل وألم، لم أسمعها تبذء بلفظ أمامي من قبل.

"إن شاء الله خير، تعودين بالسلامة وكل شي سيسير جيداً مع قدوم الملك حسين، فهو حكيم وقادر على أن يطفئ غضبة صدام القبلية بطريقة قبلية أيضاً".
"أردت منك أن تذهب لعدي وتخبره هذه التطورات في سجنه، منع صدام أي اتصال معه، أخبره ألا يضعف أو ينتحر فأنا أمه وأبوه، ولن أتركه لو تخلى الجميع عنه".

لبوة جريحة ساجدة. لو لم تهمله لماكان بحث عن شقراء أو سمراء، لكنها شاخت سريعاً وزهدت به فزهد بها.

حل برزان الأمر بمكر لمصلحته.

: سأغادر العراق إلى سويسرا، حيث المقر الأوربي للأمم المتحدة وسيكون عدي معي، طارق عزيز، عليك أن تزودني بخطاب تعييني كسفير هناك.
غادرت أختي أحلام، زوجة برزان معه ترافقها بنتها سجى وابنها محمد.
إنْتهى الأمر باختفاء قطعتي شطرنج من الرقعة. إلا أن القطعة الأخطر الآن هو حسين كامل. كان الرابح المحظوظ من كل غباء أو تعقيد درامي يحصل هنا أو هناك.

تنفسنا الصعداء، دعوت أصدقائي من العسكر والتكارتة لحفل في مزرعتي.
"حسناً أنا لست طفلاً ولا مواطناً غربياً لأعمل عيد ميلاد، هذه ليست ثقافتنا وإن كنت ابن بغداد.. لكن لتكن حفلة باربيكيو راقصة، تُنصب خيمتين وتزود بمقاعد تَسعُ خمسون مدعو، مغني ومسرح خشبي صغير ويكفي".

في مساء بغدادي وبينما ينضج البرتقال على مهل فوق الأشجار في الحدائق، ويضوع عطر شجيرة "ملكة الليل". يمس ندى خفي جميع

زهور التوليب التي جُلبت لمنزلي من أمستردام جواً، ويخفق قمر مُحلِّق بين سعفات نخل البصرة على مدى مدخل قصري المتواضع في حي اليرموك.
قلت للضيوف: "هذه ليلة عباسية هارونية خالصة لكم سادتي، لا رتب ولا مناصب ولا آمر ولا مأمور. الليلة، "سعدون" وفرقته الموسيقية هم القيادة حتى مطلع الفجر".

: خالو عدنان؟

: حبيب خالو، قصي، تريد تشرب على مائدة خالك ومحرج؟

: هههه، يعني. ردَّ بابتسامة خجولة.

بعض السيدات المحترمات شاركن بالحفل، ثم غادرن متأبطات بعض الأصدقاء إلى منازلهم القريبة لإكمال السهرة في السرير.

"إنها من ليالي ألف ليلة وليلة، تعبان من كل شيء، ثمان أشواط من اللعب الخشن مع إيران و.....ككول بالعارضة الخشبية.

أين الحكم؟ لم يسجل تسلل للفاو 888 الصفارة، انتهت المباراة "سعدون"، الله يخلي الريس الله يطول أيـــ.....

سكرنا أو صحونا من سكر طويل ليلتها، كنا نحن بلا الخاكي الذي التصق بجلودنا كل هذا الوقت، حتى بدى كوشم مُرقَّط فوق أجسامنا لا يمكننا أن ننزعه، حتى مع زوجاتنا في غرف النوم ثمة صقر مذهب محفور على كتفي، وصوت ارتطام النياشين كارتطام الخصي ببعض في الجماع، فكرت، سأذهب غداً لوزارة الدفاع، وألقي ملابسي العسكرية ورتبي هناك. في جيبي البنطلون الخاكي أضع استقالتي، وفي البسطال أضع مفاتيح مكتب وزير الدفاع، ثم أنزع رقعة الخط الديواني "الفريق أول الركن عدنان. . . " وألقيها من النافذة، أترك كل شيء، وكل إجهاد ومرارة المنصب منذ

السبعينيات، ووجه الرئيس البكر والخميني، والحرب والنعوش، والأكراد والسلاح الكيمائي الخاص، والخيانات وحسين الغير كامل ووو- أغادر بتكسي رخيص نوع "لادة" ب دشداشة بيضاء ككفن حريري مريح، أعود لمنزلي، أعتني بزوجتي وأطفالي، أعتني بزهور التوليب وشجيرات الحناء والأشجار- اليابانية القزمة.

أتابع مباراة الجوية والشرطة والمسلسلات- العراقية، وأشرب شاي مع بسكويت في العصاري الكسولة في الحديقة المنزلية، بينما الآس والجوري والرازقي يجتهد ليعطر المكان، أتلذذ ب عرق العصرية وبيرة فريدة تشجيعاً لذاكرتي في البدايات، ودعماً لمنتجنا الوطني وألتهم الباجة مساءً كعراقي أصيل، وقد أطفو فوق دجلة وأصيد البني والسمتي بالرمانات- الصوتية. نذهب للصيد جواً بواسطة الهليكوبترات، وقد نخيم لأيام في المناطق البرية، حيث يكثر صيد الغزلان والخنازير والثعالب والذئاب.

زوجتي الجديدة تحتاج لكل مسامي، جديدة طبعاً. سأرويها وأرتوي بعد أن تغيَّرت اهتمامات زوجتي الأولى هيفاء البكر إلى تربية الأولاد، الحرب والابتعاد هما السبب، لم نتماس كثيراً خلال الثمان سنوات الماضية، وكأنما أصبنا بلعنة الموت السريري كلانا، هبط الخريف مبكراً، هي راضية واعتادت الأمر، لكني بحاجة لربيع آخر بالحلال.

"إذاً أنت زعلان لأني تزوجت على أختك ساجدة".

"ليس لي أن أزعل من حق يعود لك كرجل، تصور فعلتها كذلك، لكني لم أهمل هيفاء الزوجة الأصل والأم".

"مبروك، تذكر عدنان أنك لم تقل لي مبروك بزواجي من سميرة شاهبندر. أفهم حتى لا تغضب ساجدة، لكن الحرب أثقلتنا كلنا،

والنصر يحتاج لاحتفاء بحياة جديدة روحياً ومعنوياً وجسدياً، حتى لو كنت ماكنة ديزل، هههه فأنا أحتاج ليد حنونة للصيانة".

"ساجدة لا تعلم بزواجي السري ولا هيفاء".

"لكني أعلم كل شيء، كنت أنتظر أن تخبرني".

" أكلمك كعدنان ابن خالك ورفيق دربك الآن، لا سيدي ولا بطيخ".

"ها هاها. أبو حمزة "منسم"؟ شربت كثيراً الليلة، انتبه قد تزعل زوجتك؟

"نعم. أنا مرتاح الآن، ولكني أعي ما أقول نحتاج لراحة، أموال العراق كثيرة علينا أن نسعد الناس وننسيهم من فقدوا من أحباء أو أقدام أو أذرع، علينا أن نُرمم أنفسنا وشعبنا، ننفتح على الآخر، أمريكا أو الغرب كما يفعل الخليجيون. على النفط أن يخدمنا لا أن نخدمه، وأن يحمينا لا أن نحميه".

"هذا صعب، التركيبة العراقية تختلف، شعوب الخليج لا تذبح حكامها في ظهيرات الانقلابات السريعة، ولا تسلخ ولا تسحل ولو جاعوا ولو ظُلِموا، إنهم من تركيبة واحدة، الحكام والشعب أحدهما يغفر للآخر نزقه وتجاوزاته، العراقيون لا يغفرون لأحد، تحتاج لقبضة كلكامش، وقسوة ملوك آشور، ودهاء حكماء بابل لتحكم هذين النهرين والتراب الذي بينهما، نصف الجيش العراقي لحمايتنا من العراقيين، والنصف الآخر لحماية العراق من إيران". "لو كنت رئيسا لـ.. " قاطعني مصوباً عينيه الحادة إلى رأسي. "لو كنت رئيس.. لم أتخيل حتى أنك تفكر بهذا الأمر؟". أوضحت

"قلت (لو) دعني أُكمل عبارتي. لو أنني رئيس لدولة ما، حتى لا تثار حساسية بالأمر ولا تشخصن، لتعاملت بطريقة مختلفة. على وفق ما قلت فالعراقيون حيوانات وحشية تساق بالسوط والإطلاقة،

ربما يوجد من هم كذلك، ولكن حكام العراق من الأستاذ كلكامش إلى اليوم عززوا هذا، وصنعوا أقفاصاً لا مرئية لحجز الحاكم عن المحكوم، هذا صراع وليس إدارة حكم".

"وهو كذلك، صراع بين الحاكم والخونة، أما الطيبون والغيارى من الشعب فنحملهم على أكتافنا ألف سنة ونسير بهم طالما كانوا مهادنين ومؤمنين بمبادئ الحزب والعقيدة".

"علينا أن نحمل الجميع على أكتافنا؛ لأننا تصدينا لهذه المهمة منذ الصغر في نضالنا للحزب والوطن، الجميع من آمن بنا أو لم يأمن، طالما احترم القانون وأدَّى حقوقه فله واجباته، إنسانيتنا وعقيدتنا وأخلاقنا الحزبية وتهذيبنا القومي يحتم ذلك، شرف أن نخدم شعبنا وأمتنا لا أن تخدمنا". تشنجت قسمات وجه لذيل العبارة.

"أعرف أنك تهادن الكل، وتسعى لكسب رضاء أصغر جندي على الحدود إلى آخر فريق أول ركن يجالسك في مجلس قيادة الثورة، لو لا أني تربيت معك وأعرف طبيعتك، لقلت أنك تتصنع ذلك، لأبدو كرئيس الوجه القاتم الغضوب الجائر مقابل نائبه الطيب المسامح، الذي ينقذ الرقاب من المشانق في كل مرة".
"كل جهدي لخدمة بلدي وجنودي، لن أخفيك سراً أنا ابن الجيش، وأحبه أكثر من نفسي وأولادي، وأدافع عنه من المتسللين عن طريق الحزب أو القرابات بلا وجه حق، وقد أساؤوا إلى شرف الرتبة وقيم الفروسية والنبالة العسكرية، كما تشربناها في الكلية والحياة العملية والحرب". "تقصد حسين؟ ". "أو غيره..".
"حسناً، نحتاج لطاقة حسين الشابة والطموحة، دون أن تتجاوز السقف الذي أقرره".

"لقد دفعتَ بصلاحيات الجميع إليه، أحياناً يتكلم ويتصرف بلسانك، وتأتي لي تقارير عن قرار أصدره، أو هناك بالغالب بشكل ارتجالي

وغير مهني، حسين كامل يرى نفسه فيك ويراك في نفسه، حكاية البكر والنائب، يراهن على الزمن لتشيخ ويعزلك، حتى بنتك ستقف معه، لست أقول هذا لأني أغار منه -لا سمح الله- أو أطمع بما لديه الآن، فأنا ممتلئ بي، ولدي من الشرف العسكري ما يرفعني أن اقارن بالمخيلة حتى بيني وبين هذا المُتسلِّق، الخادم الوضيع".
"عدنان. أنت سكرران جداً، وهذا سأعتبره العذر الوحيد لتحدثني بصلافة هكذا".

" هل ستكون له مدة صلاحية "X"؟ : لا أعتقد لأنه جزء من بيتك، ستفكر كثيراً قبل أن تركنه جانباً، إنه ليس غانم عبد الجليل، أو عدنان الحمداني، أو أي شخص خدمك بروحه في السابق، ستتذكر هذا، في غفلة من الزمن سينمو حسين إلى درجة لا يمكن إيقافه بها، وسيلتف حول الكرسي ببطء، ولكن بثقة وقوة".

وأنا أهم بالخروج، دخل حسين التفت إلى صدام بإيماءة من رأسه وهو جالس حيَّاه.

"كنا نتكلم عنك أنا وعدنان" سمعته يقول له، بينما يرد حسين بقهقهة:

"أنا أسمع وأرى سيدي". فهمت مدى انغماس صدام في حسين كامل والعكس بالعكس، الذي قابلته اليوم صدام آخر لم يكن الذي عشت معه طفولتي وشبابي، وتشاركنا البيجامة والخبز واللحاف معاً، الحرب جعلته مرهفاً، كهلاً واتكالياً على ما يبدو.

مصيف انشكي. وصلتُ للتو. هبطت مروحيتي القادمة من بغداد ترافقها بروتكولياً مروحيتي حماية. قمة جبل كارة الأعلى في المنطقة، تقع العمادية أسفل من الآن. يجاورنا مصيف سولاف ومغارة جبيلة كانت مستشفى ميداني في حرب الشمال.

بفتور تصافحني بنت أختي رغد، وبفتور ثلجي آخر صافحت زوجها حسين. سألتني ساجدة:

"أبو حمزة هل جلبت كامرتك الحديثة؟ نريد لهذه السفرة توثيقاً عائلياً عدا عن المصور الرسمي، "استدركت" لم هيفاء والأولاد في بغداد؟ هل سيلتحقون بنا قريباً؟".

"سأطير مساء اليوم لبغداد، تحتاجي لشيء أجلبه معي من القصر، ملابس، أحذية. ههه" مازحتها.

"كأنك تعرف، بالأمس تورمت قدمي من السير بين الصخور بكعب عالي".
"آها، المهم استمتعي بالمنظر، انظري إلى السفوح كقطيفة خضراء ممتدة حتىآخر العالم".

"السماء بزرقة بلورية كذلك، هذا المناخ يطيل العمر، لا أعتقد أن من يعيش هنا يشعر بقلق أو توتر في يوم ما".

"هيا، علينا أن ننزل للمصيف، فلدي بضع ساعات للاستجمام وتناول الغداء قرب الشلال".

"أحضر كسرية الصيد، ربما تجد غزالاً أو وعلاً ما لتصطاده".

"لا أعتقد أنه يوجد وعل هنا، أعرف المنطقة عسكرياً منذ أيام الحرب وتمرد العصاة".

نزلنا للمصيف المجاور من قصر السحاب، المجمع الرئاسي في قمة الجبل الذي بُني حديثاً للرئيس للاصطياف، ويصل له طريق مُبلَّط ومزود بمهبط يسع ثلاث هليكوبترات.

في الظهيرة اختلى بي صدام في بقعة محاطة بالصخور من ثلاث جهات، بينما اعتلت الحمايات زواياها المدببة بين أشجار الجوز للمراقبة.

"هل فكرت بما تناقشنا به في قصر القادسية؟". يسألني صدام بحاجبين منعقدين دلالة أهمية الأمر.

"نعم، لن اتراجع عن قرار الاستقالة، خدمت كوزير دفاع لـ اثنا عشر سنة، ولن يعدم الأمر وجود أكْفاء غيري للمنصب، أسرتي أعارتني للمهمات القتالية مدة ثمان سنوات، وكانوا مفتخرين وراضين بذلك، علي أن أتفرغ لهم الآن وأعوض ما فات".

"هل للزواج من أم محمد دور في قرارك بالاستقالة؟".

"لا، أنا قررت هذا حتى قبل الزواج، وكنت أنتظر نهاية الحرب حتى لا أُتَّهم بالتخاذل، وأنت تعلم شجاعتي وحرصي على الجيش بكل تفاصيله".

"نعم أنت أخي وذراعي الأيمن، كيف تنسحب الآن وأمامنا حدث القرن؟، نسف اتفاقية سايكس بيكو المشؤومة، ومحو ما رسمت من حدود، وعودة أرضنا المغتصبة كإمارة لقيطة اسمها الكويت".

"قلت لك سيدي الرئيس أنا ضد دخول الكويت لعدة أسباب. . أولها". قاطعني.

"أولها، صداقتك المتينة لعوائل حكام الخليج، آل صباح في الكويت والملك فهد. هل سمعت ما يقوله الشيخ عربان أو جربان عن شرف الماجدة العراقية؟ طالبونا بالديون وحين أجابهم رفيق طارق بأننا

خرجنا للتو من حرب أكلت ما ورائنا وما أمامنا.. هل تعرف كيف ردوا علينا؟ كيف أهانوا الماجدة العراقية؟ يقولون: "لو أنزلتم الماجدات للرقص لجمعن المبلغ في شهر؟ تجرؤوا على شرفنا هذه المرة عدنان. (الماجدة) اللقب الذي اشتققته من "ساجدة" أختك وزوجتي وسيدة العراق الأولى".

"لو كان الأمر مفاضلة لفديت أولادي للعراق، فما بالك بصداقات أميرية فقط؟ لكن لا مصلحة لنا في هذا، نستطيع دبلوماسياً وحتى عسكرياً الرد على هذه الإهانة بضربة جوية لمدينة الكويت محدودة التأثير لتصلهم الرسالة.

لكن احتلال الكويت بالكامل، لا. فكِّر هكذا، سنفقد سمعتنا بين العرب، وسنُشيطن ونُقاطع كما حصل من قبل للسادات. ربما يحاربنا العرب أنفسهم، أتذكر أنك قلت هذا بخصوص حافظ الأسد عندما اجتاح لبنان، قلت لا نقبل لبلد عربي أن يحتل بلداً آخر بأي حجة وأي عذر، ومن يفعل نشترك جميعاً لمعاقبته" {فإن بغت طائفة فقاتلوا التي تبغي} أتذكر؟ " نعم قلت ذلك . و هل هذا ليس احتلالاً عسكريا؟الكويت ليست بلد أصلاً، مجرد قضاء عراقي مغتصب، لم يزرها رئيس أو ملك عراقي بصورة رسمية منذ حكمها آل صباح، لا حدود دولية معها. الكويت واجهة بحرية سنختنق بحرياً إذا لم نضمها".

"بالمناسبة كانت سوريا تردد هذا بخصوص لبنان. الشام الكبرى تشمل بيروت وغيرها، مئة كيلو بين دمشق وبيروت لم تكن عذراً لأن يقال بيروت ضيعة لريف دمشق مثلاً".

"الكويتيون سرقونا، وإذا لم نؤدِّبهم فلعن الله شوارينا من رجال".

"صدام لك القرار، أدّبهم ولكن لا تصطدم بأمريكا. ستكون الكويت عظمة للغرب، ولن يتركها حتى يطحنها ويطحننا معاً. ربما ليس

لدى الكويت ذراع ليحميها، لكن الكويت يعني الخليج، هم جزء من تشكيل ولن يصمتوا، وإذا فتحوا الباب للقوات الأمريكية فسيتصرفون كثور مستفز في محل زجاجيات، لن ينجو شيء".

"أمريكا هُزمت في فيتنام". ردَّ بهدوء، بينما يسحب نفس سيجارة ويراقب ردي.

"وستعيد صورتها كمستهتر ومسيطر كوني في العراق، على كلاً أنا مغادر هذه المهمة والمنصب، ولكني سأكون جندي للعراق متى استدعى الأمر ذلك".

راوغ صدام ليقرأ الموقف ويؤكد شكوكه.

"هل سمعت ما يقال في الغرب، أنك الرئيس القادم للعراق وأن الجميع متفق عليك، الجيش، دول المحيط الدولي والغرب، هل استقالتك تكتيك لتعاطف الجيش والتحرك لعزلي، أعرف أن الجيش يطيعك بحب لا برهبة كما أفعل أنا؟".

"سأختصر عليك المسافة سيدي الرئيس : أي ذرة غبار تحزن أختي زوجتك، أو أولادها تحزنني فكيف أكسر قلبها بزوجها؟ هل حسين كامل من رسم هذا السيناريو الخسيس لي؟ هل تراني ناقصاً مثله؟ صدام أنا أُصرُّ على الاستقالة بشدة الآن حتى لو دفعت حياتي ثمناً لأكاذيب حسين السافل هذا". "أنت تهين ابن عمنا وصهري".

"لقد أهنتني للتو صدام، وأنا أقرب لك منه بألف درجة". غادرته غاضباً.

التقرير الجوي الصادر من قسم الأنواء لقاعدة فرناس الجوية في الساعة 1700 من يوم 5 أيار 1989 عواصف ترابية وغبار متصاعد، الغيوم لا ترى بسبب الغبار، مدى الرؤيا أقل من 800 متر، الريح السطحي (عقده) 8/240،الضغط الجوي 979مليبار 734 ملم، درجة الحرارة 36 درجة مئوية، الرطوبة النسبية 25، %وقد أرفق التقرير بتحذير جوي صادر من الدائرة نفسها أعلاه والمنشئ في الساعة 1650 والنافذ من الساعة 1700 محلي إلى الساعة 2000 محلي من اليوم نفسه ((عواصف ترابية وزوابع رعدية شوهدت ومتوقعة الحدوث فوق بعض أقسام المنطقة الشمالية من القطر، الرؤية أقل من 1 كم، كمية الغيوم الرعدية 1-8/3 / 750م)

أقلعت من "قصر السحاب" على جبل كاره. يقع على ارتفاع ألفي متر عن مستوى سطح البحر، وحلقت ثلاث طائرات هليكوبتر، أقود هليكوبتر آر. أس bell 124 بينما تحف بي الأخريين كحماية خلال الطريق. الرؤية تنعدم أحياناً، عاصفة ترابية تصفع الريش التي تقطع الهواء جاهدةً لتحافظ على الزاوية. "سنهبط قرب الطريق العام". وجدنا أرضاً منبسطة تصلح للهبوط، بينما كانت الطائرتان الأخريان قد تجاوزتنا في طريقها لمطار المثنى في بغداد. "هلا والله حياكم الله بعربنا" حيَّانا رجل راعي جاء من بيت شعر يتبعه كلب يعرج. "هل عرفتني؟" سألته "لا بالله بس يبدو أنك كبير العسكر". كنا سبعة أشخاص، أراد الراعي أن يذبح شاة لإكرامنا "كرمك مقدَّر ومقبول،

لكن ليس لدينا وقت لنظاف هنا، سنكتفي بحليب الماعز دون لحمه".
شربنا الحليب ساخناً قرب موقد من ثلاث صخور وحطب أنشأه قرب خيمته، جاءت حرمته بخبز ولبن. لم يشاركنا الطعام، كان آخر يوم للصيام في رمضان. "نحن على سفر ولم نصوم" برَّرتُ ذلك. "غداً العيد سيدي عيدك مبارك". "عيدك مبارك يارجل". سألته لما يحتفظ بكلب أعرج؟، أخاب "الصحبة ووفائه". حتى تغفو العاصفة الترابية وتخمل الرياح. جاريته بالمسامرة وسألت مجدداً "كيف"؟ .

"هذا الأعرج واسمه "صاين" حماني من لغم أرضي، داسه متعمداً قبلي فانفجر بساقه، كاد سيستشهد، سيدي".

"ههه الكلاب لا تستشهد لأنها ليست بشراً ". "إنها أرواح مثلنا، ومن يفعل فعل الشهيد فهو شهيد حتى لو كان طير أو شجر، لسنا نحن من نقرر هذه الكرامة سيدي، الله يمنح ذلك للطيبين من دون حساب لكل مخلوقاته". "حكمة احترمها، البر يمنحكم بُعد نظر وصفاء تفكير وفراسة؛ لأنكم لم تتلوثوا بالكونكريت والتلوث، والأنانية المفرطة، والطعام المعلَّب مثلنا أهل المدينة، كيف ترى لي ما سيحصل اليوم، أقصد الجو هل سيهدأ قريبا؟".

"نعم، هذه الرياح ستهادن لساعات وتشد حيلها من جديد، الغبار يعدم الرؤية لن ترى نهاراً آخر هنا، سيرى فقط وجهك الكريم الشمس مجدداً في بغداد، لكنك ستكون نائماً عندها".

"هل هذه حسجة أم تلغيز بدوي حكيم؟ لماذا وجهي فقط؟ وضَّح يا زلمة".
"نبح الكلب ذو الثلاثة أرجل. تهرَّب الراعي من الإجابة "سأخضر القهوة العربية الآن، تقهوا.. قبل أن تحلِّقوا".

شكرته واستعجلت الآخرين بالنهوض "الجو تحسن عن قبل ساعة، سنطير الآن". ناولته رزمة نقود من ذوات الخمسة دينار، نظر إلي طويلاً دون أن يلمسها "لولا رتبتك بالعسكر لرددت عليك رداً لا يعجبك، لستُ خسيساً، وإن كنت فقيراً لا ستلم مقابل للضيافة".

"اعتذر، لم أقصد هذا" أرجعت النقود إلى الحقيبة. "خذ هذا كارت بأرقامي المباشرة في حال زرت بغداد فاتصل دون تردد".

"أنا لا أقرأ ولا أكتب، مقبولة عطيتك وانتخاءتك لو حدث وكنت في بغداد، لكننا سنلتقي قريباً لو شاء الله، رافقتكم السلامة سيدي". حضنته وأنا اغادر، بينما اكتفى باقي طاقم الطائرة بمصافحته.

"أبلغ سلامنا لأهلك واشكرهم نيابة عنا لزاد وكرم الحفاوة".

"يصل سيدي".

طرنا بعدها، بينما كانت الخيمة تصغر كلما ابتعدنا حتى تلاشينا أو تلاشت من أعيننا....

في اليوم التالي..

كشف أحدهم وجهي للشمس، كنت نائماً بعمق ومتعب لذا لم أتبين ملامحه، إلا أني خمَّنت من هو من رائحة السكار الكوبي في فمه وعطره الرئاسي الذي يستعمله.

كنت مغمض العينين عندها، ملوحة زنجة في فمي وغبار يحرق جفني، أريد أن أحكهما، لا تستجيب يدي المقيدة، وكأني في قماط رضيع.

صحت "صدام، أبا عدي، سيدي الرئيس هل تسمعني؟". كان ينشج بحرقة، تناول يدي اليمنى فقبلها، لم يفعلها لأحد من قبل إلا أمه العمة صبحة، قبَّل جبيني فخجلت. يفعل للنساء عادة.

"صدام هل تسمعني؟، أريد أن أقص عليك ما حصل البارحة، أولاً كل عام وأنت بخير فاليوم عيد الفطر المبارك. لكن اسمع..

بعد أن حلَّقنا من قرب خيمة الراعي عادت العاصفة لضرب ريشة الهلكوبتر، ولكننا تجنبناها بالتحليق بزاوية 160 درجة، وتواصلنا لاسلكياً مع قاعدة فرناس، وكانت الأمور تسير جيداً برعاية الله ومتانة الهليكوبتر الأمريكية المُهيئة لأجواء أسوأ من هذه. لكن بلا مقدمات توقف المحرك الرئيس. أُطفأت الهليكوبتر بالكامل في الجو، قبل أن نصدم بقسوة بالأرض، تذكرت مسير حياتي كله في هذه الثواني؛ تذكرتك طفلاً نتعارف للمرة الأولى عندما جئتكم لقرية الشويش في العوجة، تذكرت اعتقالنا في الستينيات، تذكرت وجوه أطفالي وزوجتي، والدي، أخواتي. وجه أمي ليليو، وجه عمة صبحة، الكلية العسكرية، البكر، الثورة، تحرير الفاو، القادسية ووو توقف بعدها كل شي، حلَّ ليل مُركَّز ووخز مؤلم في العمود الشوكي جهة الرقبة.

هل تسمعني صدام؟، لماذا تعيدني لهذا القماط الأبيض؟، لحوض السيارة "الستيشن" المبردة، لماذا يحضنك حسين كامل بشكل تمثيلي ليهدأ من انفعالك، ويوقف بكاءك لمقتلي، ويخرجك من لحظتك البشرية الحقيقة النادرة هذه، ويوقظ صدام الرسمي فيك من جديد؟ يبدو الصمت محوِّطاً للمكان الذي أرقد فيه، أتحسس الألف "البيريات" والرتب في محيط السيارة الستيشن، متحلقين حولي دون أن يستوعبوا لم يغفو وزير الدفاع في قماط أبيض في صبيحة العيد؟، لم لا ينهض كصقر مصاب، ويزيح حسين كامل من المشهد بعد أن تسيَّد بشماتة واضحة بي كل مفاصل الحكاية والدولة؟ حليب ماعز ذاك الراعي مازال في فمي، ولكني عطشان، وقلق، كيف سيمر العيد على هيفاء وأولادي دون أن أصطحبهم لسفرة لشمال

العراق كما وعدتهم؟، ساجدة تنتظر أن أجلب لها حاجيات من قصر القادسية، كنت وعدتها بذلك، لدي مهام أخرى تفتيشية بعد العيد، هيه، على أحدهم أن يخرجني من هذا الصندوق، أرفس وأحرك جسدي بلا أثر لأي حركة، لربما صرت مشلولاً، بينما الآخرون يتجنبوا إخباري ذلك كي لا أحزن.

حركة فوق قبري المؤقت في تكريت، أقدام تسير وأوامر صوتية، صوت معاول تحطم أسمنت القبر الخارجي، أيدي من الأحياء تمتد لبطن الأرض تهز جسدي توقظني ربما، أو تحاول ذلك على الأقل، هل هذه هيفاء توقظني لأذهب لوزارة الدفاع صباحاً؟

: تأخرت عدنان، لديك اجتماع قيادة في الساعة ألف وعشرة.

:"همم". بصوت كاتم. "ليتني لا أذهب اليوم، نفس الطاس ونفس الحمام".

جمع من الأيدي تقترب من كفني، أحدهم يحضن ما تبقى من بعد ثلاثة أشهر من التحلل البايلوجي للجثة. إلى أين سيأخذونني؟ ومن هؤلاء؟

: يلا أبو حمزة، السايق ينتظر من صبح الله مسكين، هل الرئيس صدام سيكون في الاجتماع؟

: ليس مؤكداً هيفاء، "حسوني كامل" هذا "الخرة" سيتواجد؛ ولهذا أتثاقل بالذهاب.

عندما وصلت الاجتماع، كان صدام منتصب كعادته في صدر الطاولة، بينما تحلَّق القادة حوله، ضغط جسر نظارته بحركة آلية. تنحنح ثم تحدث طارق عزيز

: لست بصدد لوم القيادة على التوقيت، ولكن ما حصل حصل، جهدنا العسكري يجب أن يتوازى مع جهدنا الدبلوماسي وصورتنا في الخارج، يترتب على هذا الكثير.

: رفيق طارق يضع حساباته كما لو أن المجتمع الدولي عادل، ويمتاز بفضيلة الصدق.

: لنقل أنهم بمعايير مزدوجة، ولكن هذا مقلق أكثر، قد يستعملوا زيفهم ضدنا.

: لن يفعلوا ما زلنا فوق نفطنا، ومازالت عيونهم تتجه إلينا.

: علينا ألَّا يخرج موضوع حلبجة والعتاد الخاص (الكيميائي) للتدويل، سيكون للكورد حجة للانفصال وللبكائيات، كما استعمل اليهود أفران الغاز ومعسكرات النازية للتعاطف.

: لن يهتم أحد للكورد؛ لأنهم ليسوا يهود.

: لن يقفوا معهم لأنهم كورد طبعاً، من يهتم لشعب لازال يلبس الشروال ويسكن الجبل سيدي، ما أقصده عند الحاجة سيتم ابتزازنا بملف القصف الكيمائي أمريكياً، خلال الأمم المتحدة ومجلس الأمن بالتحديد؛ ليخرجوا بمكاسب في ملفات أخرى.

: لأكن واضحا مع الجميع، أنا لست موافقاً على موقع القصفة الكيميائية، عندما عرفتم أن الإيرانيين هناك بمكرهم وآلات تصويرهم، فكيف لم تتوقعوا أن ينشروا الأمر للإساءة للعراق؟

رفيق عدنان، ما ردك على ما تسمع؟

: سيدي في وزارة الدفاع نعمل حسب المعطيات السوقية العسكرية، أعداد العدو، طوبوغرافيا ساحة المعركة، اتجاه الرياح وسرعتها بالنسبة للعتاد الخاص "غاز الخردل مثلاً".

أما الجوانب السياسية فنبتعد عنها حتى لا تتداخل الخطط، ولا يصبح العسكري الاحترافي سياسي، أقصد سيادتكم تقررون ونحن ننجز، يحصل أن يكون فارق زمني في المستجدات السياسية والعسكرية

كما حصل، لم يكن يعني الجيش وجود مصورين قرب حلبجة، نحن هناك لنقتل، ولسنا في مهرجان إعلامي لملكات الجمال.

: الفرق أنكم قتلتم قرويين أكراد، وهذا ما أزعج الغربيين.

: لو عادوا قليلاً لأرشيفهم فسيجدون الكثير من هذه المشاهد في الحربين العالميتين، نحن لسنا أصليين بهذا الفعل، الجميع فعلها دون فضائح أو ترويج لموضوع الإنسانية والضمير. وهكذا، قل لي رفيق عدنان ايش يعني القتيل لو مات برصاصة أو غاز السارين، سيقولون مُحرَّم دولياً. حسناً عشرات الاحتلالات والتجاوزات في العالم لا أحد يتحدث عنها، كم منظمة حقوق إنسان هزيلة هنا أو هناك ستصمت برشوة جيدة.

رفاقي، فليتدخلوا في تجاوزات الصين، كوريا الشمالية وغيرها لحقوق الإنسان.. لن يفعلوا لأن القوة هي القانون، هذا ما يؤرقني أن نملك القوة التي تخرس العالم، القنبلة النووية.

صمت الجميع، لا أحد يجرؤ أن يجاري صدام في هذا الحلم المستحيل. لا أحد يقدر أن يزامط ويعده بشيء خارج حدود صلاحياتنا، رغم أن لدينا المال والعلماء الذرين، ولكن لن يسمح العالم لنا بهذا الأمر. تحدثت لأعيد الموضوع عن الأكراد، فهذا واقعي أكثر.

: كم ألف من القتلى الكورد الخونة غير ذي أهمية مقارنة بمليوني كوردي مسالم شريف. كان عليَّ أن أقول هذا لأهدِّئ صدام بعد ما حصل، ولأُجنِّب جنودي في صنف العتاد الخاص من حفلة إعدام كعقوبة بلا تقصير، كثيراً ما تُعدم جنودنا لانزعاج لتفصيلة هامشية في ذهن الرئيس، كان يطمح للكمال والجودة العالية في القتل وما بعده، كان مهووس بالتقانة والجودة والنوع على حساب الكم.
أرتجُّ ممدداً في سيارة مُبرَّدة تطلق صوت قارئ قرآن من كاسيتها،

غفوت على مقامات القراءة البغدادية، صحوت وأنا محمول إلى قبر آخر.
مكان أفخم وأورع رغم أن ما تبقَّى من جثتي هو النصف، بعد أن تآكلت في قبري الأول في تكريت، بعض عظامي من القفص الصدري تداخلت مع قصبة الساق، تصوَّر.

"روحي نخلة بتكريت"..

يقرر لي صدام حتى موقع طمري بايلوجيا، وكيف، وأين، وفي أي تربة على جثتي أن تتحلَّل؟ عندما دُفنت في تكريت أحسست أنها العودة للجذور، رغم أنَّا نموت كلياً في بغداد. جميع مقابر الأسرة هناك، فلما جاء بي صدام لضريح مرمري فاخر قرب نصب الشهيد في بغداد؟

: لتكون قريب من عينيه عزيزي، وإن كنت ميت فالأخ الأكبر يراقبك.
"عاش العراق، عاشت فلسطين حرة عربية، عاشت أمتكم العربية المجيدة من المحيط إلى الخليج، وليخسأ الخاسئون".

انتهت الحكاية، ساجدة. انتهيت ولكنكم لازلتم في انتظار نهاياتكم التي أدعو الله أن تكون بعز وراحة ضمير ورضا الله والشعب عنكم.

المخطوطة 3

أعرف صدام كما أعرف نفسي، وقد أعرف نفسي كما أعرفه، كلانا انطبع بالآخر ولا يستغني عنه، وإن استغنى عنه جسدياً. كنا مكتفين بما تبقى من الأيام الأولى من ذاكرة مشاعر حارة وواقع يومي بارد مثلج، هو يحب "سجيدات" كما يناديني، أنا ذاكرته وعشيرته ودمه الذي لا يتنصل منه، وإلا جفت عروقه وصار هشاً تتداوله كف الرياح وتقلعه بسهولة. يقول لي في نشوته النادرة.

: العائلة أنتِ، مرآة افتخاري، مجدي وصعودي، بك صرت أبو عدي وقصي. ومن خلالك عرفت المرأة جسداً ومعاشرةً أسرية.

: لست واثقة من هذه الأخيرة، بي وحدي صدام؟

: حسناً. فلنقل أنتِ الأساس لا تكوني غيورة كما الصغيرة حلا من أخواتها.

جاء أ. أ مبكراً اليوم إلى القصر الجمهوري. استقبلته العاملة الأرمنية ودعته إلى إحدى قاعات الاستقبال، شرب قهوته بسكر، ضيَّفته بمعجنات عراقية عملتها شخصياً للعائلة بمناسبة عيد ميلاد حلا.

: كليجة رئاسية بالفستق، ومن يد السيدة الأولى شخصياً.

: شكراً جزيلاً هذا كثير على شخص بسيط مثلي. يخرج آلة تسجيل. أُحرِّضه على الكتابة؛ لأنني لا أحب صوتي بالتسجيل.

: هل تتكاسل عن الكتابة، لماذا تسجيل كل مرة؟ لا أرغب بحفظ صوتي أرشيفياً. : ست ساجدة، أعدك بإتلاف الأشرطة بعد تفريغها، كلمة شرف من صحفي. كنت استأذنت صدام بالكتابة، لا يمكن أن

يخفى عليه شيء، وسيعرف من غيري طبعاً. لا أقوم بعمل مؤامراتي حتى أخشى إعلانه، لكنه فاجأني "لا، لا. لا أوافق" وأنا اتبعه إلى مكتبه في القصر، "السبب"؟ يكلمني بظهره "أنتِ لستِ قائد، أنتِ أم فقط. هل كتبت أمك ليلو مذكراتها مثلاً؟ "أغضبني"، "ولم تكتبت أمك العمة صبحة مذكراتها كذلك". استفزه ردي بعصبية، صرخ بي كنابض حلزوني هب في وجهي:

"ساجدة، اسمها المرحومة صبحة بالنسبة لك".

أردُّ الغضب بالغضب: "واسمها عمتي وزوجة خالي ليلو بالنسبة لك".

لأمر هام كان طارق عزيز وبعض الوزراء هناك، لانشغاله ولينتهي من الموضوع أو يدفع النقاش لوقت مناسب آخر. "أفعلي ما تحبين، ولكن لن تنشر ما دمت حياً، ولن تنشريها إلى الأبد، كما سأوصي بذلك إذا لا قدَّر الله وتوفيت قبلك". أردُّ بثقة: "لم أقل إني سأنشرها، ستكون إرث لأسرتي فقط، شكراً أبو عدي لموافقتك". أسمع صوته ورائي "أنا لم أوافق كلياً، هناك فرق ساجدة، وتغضبيني منك تعرفي ما يمكن أن يخرجه الشيطان مني ساعتها". تركته، ولديَّ رخصة بأن أفرغ ما في داخلي على الأقل نصياً حتى لو كان إرثاً عائلياً ليس للنشر. بالحقيقة سأكون حرة أكثر بالبوح هكذا دون خشية تسريب سر أو موضوع للناس في الشارع، وربما انتقادنا من قبل الخصوم وما أكثرهم حولنا. حكيت هذا ل أ. أ، عضد على كلامي "عين العقل ما يفكر به الرئيس صدام، أوافقه، لنفرض أن مذكراتك تكون كالوثائق والصحف والعملة التي توضع في حجر الأساس عند البناء، تأريخ لمئة سنة ضوئية على الأقل، من يدري ربما تقرأها الأجيال كما نطالع الآن صحف البردي المصرية، والرُقم السومرية في متاحف العالم ". أعقب بهدوء وراحة الآن: "هذا ديدن نساء الحكام

في بغداد، أتوقع أن تكون نساء الخلفاء فعلن هذا، ودفنَّ مذكراتهن في أساسات الملوية أو المدرسة المستنصرية أو بوابات القصر، لا كما يقول الشيعة، وهذا سمعته من والدي خير الله طلفاح -الله يرحمه- أن العباسيين دفنوا أشراف من الشيعة أحياءً في أساسات المشاريع المعمارية العملاقة، هل سمعت بهذا من قبل أ. أ؟ ردَّ متخذ وجه مؤرخ مُسن.

: "بالحقيقة، سمعت، أعتقد حصل تصحيف وتدليس، ربما دفنوا أمراء بني العباس بعض ملابس وعمائم الأشراف العلويين في الأساسات المعمارية للتبرك، لا خبر يأتي بلا تعديل زمني وشخصي، حتى في عالمنا الآن هنا مليار حكاية وحكاية لكل حكاية قريبة ويومية".

"المهم، نكمل ما بدأنا.. أشرب قهوتك أضنها بردت. وكل من معجناتنا الخاصة".

"شكراً ست ساجدة، دام الله العز وأهله".

28 نيسان1982

أقترح صدام هذا اليوم عيد ميلاد له، وبدأ الأطفال يحتفلون بهذا اليوم مع أكبرهم زوجي الرئيس صدام. "عيد ميلادك اليوم ... عيدت حتى النجوم" عيد ميلادك يا غالي .... لاب لابلابلاب. عليَّ أن أهديه شيئاً ثميناً من هذا العام وصاعداً، بالحقيقة هذا التاريخ افتراضي كما هو الفرح والاحتفال والكعكة العملاقة، وحب الشعب والأغاني كلها افتراضية محض.

دعاني صدام لغداء من السمك المسكوف في قصر الجادرية، أن يخصص لي وقت لتناول الغداء معاً صارت "مكرمة". على شفة دجلة المترقرقة بانعكاس زرقة سماء صيفية مشطبة بغيمات هنا

وهناك جلسنا، أنا وصدام فقط، كانت حرير ابنة رغد تلعب غير قريب مع كلبها، اصطحبتها معي لحالتها المرضية من ضيق تنفس ونحول عام، قلت علَّ هواء وماء دجلة ينفعها لتستعيد لونها القمحي الداكن بعد أن مالت للون الموز الناضج، أمر صدام فابتعد الخدم، واجهني بحزمة أوراق مُلئت بكتابة مطبعية، لم أفهم بادئاً، قالها بالهدوء الذي يسبق العاصفة: "أنا كل هذا ساجدة؟" ""ماذا تقصد؟" "مذكراتك يا أم عدي، يا مصون، تصفيني بكل شيء دون تحفظ، كل شيء، هل تفهمين؟، كيف تُفرِّغي حياتنا الخاصة في كاسيت، ها؟، من ضمن لك أن الصحفي أمير إسكندر لا يبعه لأعدائنا؟، لماذا أنت ساذجة في كل عصر ومكان؟، في الشويش القرية، في الكرخ الشقة الحقيرة، أو في القصر الجمهوري، في زمن الفقر والمطاردة أو زمن السلطة والسطوة، ماذا أعمل بك الآن؟ أنت أمانة خالي وأمي رحمهم الله".

"اذاً. كان الصحفي يزودك بنسخ ورقية من المذكرات؟".

"لا. كنا نأخذ الكاسيت لجهة أمنية، ونفرغه بمعرفتنا ونتلف المحتوى، كل مرةكان يزورك فيها صحفيك الهمام هذا".في القصر الجمهوري البارد رغم أن الحرارة التموزية في الخارج 50 مئوية.

يقف عند عتبة الباب دون أن يدخل أو يخرج، بينما أغلي كألف بركان انطلقت بالتزامن من قمم متجاورة.

: اذهب الآن.. الآن وأخبرـ عمك وسيدك، ولي نعمتك بما حصل.. هيا اجرِ إليه كجروـ مخنث سافل قوادـ ابن القواد، لولا أني أعرف أمك جيداً كمربية لحلا لقلت إنها كانت قحبة، بس أنت أسوأ من القحبة، ألا تخجل لشواربك كرجل أن تصيرـ قواد، ها؟ لو طلبك صدام للفراش لا أعتقد أنك تمانع يا قذر.

. . اذهب قبل أن أطلق كلابنا تشرب دمك الآن.

: حاظر ست، أم عد.. ي. قال بارتباك وصدمة.

: لا تلفظ اسمي أو اسمي أولادي يا نجس.. تفووو. بصقت على شاربه الكثيف. مسحها كوضيع، وانسحب ككلب منزلي متملق لصاحبه.

سيعاقبني صدام الليلة بالحرمان، مؤكد أن خادمه الصغير وشى بما حصل معه طلباً لحمايته مني. يعرف الجهة التي ينصاع إليها. الجهة الأقوى، ولكن بين قطبين أنا وصدام لا بد أن ينسحق يوماً وعندها سينسى كما لو لم يكن أصلاً. ربت صدام على كتفي، جالسين على السرير بملابس النوم، "فهمت.. ليس الليلة لأن بالك هناك". تجاهل عبارتي، خرج للشرفة أومضت سجارته من خلف النافذة والستارة الشفافة مكوناً سرب من غيمات دخانية، نفث ما بصدره بعمق. إليها وحدها كل عواطفه، جسده المطفأ معي، وما الجسد بلا روح؟ شارد عني وعن جسدي إذاً، شغلت التلفاز وجهاز حديث يسمى الفيديو، كاسيت متوسط لماركة سوني، أدرته فنطت سوزان العطية بقصة شعرها التي تشبه شعري إلى الشاشة، غنت الأطلال في حفلة مسجلة بالقاهرة.

"وأنا قلب وشوق ودم وفراش حائر منك دنا

ومن الشوق رسول بيننا ونديم قدَّم الكاس لنا"

طلب بعض النبيذ الأحمر الفاخر فوضع على الطاولة بثوانٍ. هناك كادر خفي يعمل الكواليس لكل رغباته يتحرك معه بخفية أينما حل. طلبت عشاء خفيف جيء به بعربة ذهبية صغيرة. : نأكل معاً أبو عدي؟ : سأغادر الآن.. بالعافية. قبل أن يهم بتغيير ملابسه، : صدام.. كم تحبني؟ ألقى نظرة على ملامح وجهي، بينما وجهه بلا ملامح لا غضب ولا تعبير، محض برودة تصدر منه فيقشعر شعر جلدتي. : كأنما رجعتي مراهقة جدة ساجدة. انتبه للأغنية. "أم كلثوم

حرضتك على الحب الليلة إذاً. أكمل ارتداء ملابسه. أجبتُ بالنيابة عنه. : كنت تحبني، ايش صار، أين قلبك؟، إذاً صدق ما سمعت بالقصر فـــــــ.. قاطعني.

: فـــــ... ماذا؟

: كل العراقيين يهمسون، كلهم يعرفون ومصدقين الحكاية عدا أنا، سمعت ولا أريد أن أصدق مع أني أعرف منذ مدة. أكمل ارتداء بزته العسكرية دون أن ينظر إلي، رفعت صوتي

: صدام بيزي عاد.. أنت تهين أم أولادك هكذا.

: تصبحين على خير.. إذا سمعتي أي شيء من أي مصدر فقط أخبريني، وسأشطره لأربع أوصال في ثانية بيدي هذه. كوَّر قبضته ليخيفهم أو يخيفني. أنا لا أخافه.. لكني أتجنب غضبه ما استطعت. وهو يهم بصفع الباب والخروج للرواق خارج الغرفة، صحت بقوة مليون "ماجدة" ليسمعني هو، القصر، المرمر والعراق..: حتى لو كان المصدر كامل حنا ججو؟ رجع إلي: أحذرك تقتربين لخصوصياتي. أنت أو أولادك، عندك فلوس وقصر ومزرعة استمتعي، سافري لعمان، بيروت، جنيف لأحلام أختك.. ساجدة، أنا أسمع وأرى كل شيء، كل شيء لا تراقبي صدام، الذي يراقب حتى الله في سمائه.

...

زودني صهري "صدام كامل" متردداً بصورة لها، طلبت ذلك أولاً من "حسين كامل" صهري الآخر، ولكنه كان يخاف أن يخسر صدام زوجي، اسمها سمر أو سميرة، لا يهم، في نهاية الثلاثينات بوجه تفاحي مستدير، شعر أشقر لامع ومكياج غير ضروري بالنسبة لجميلة مثلها، تبدو متزوجة من خاتمها، سيكون هذا سِفاح، صدام لا يؤمن إلا بنفسه، ولكنه يخاف إحساس لعنة ما إذا ضاجع متزوجة،

يتطير كثيراً، يؤمن بالديمومة ولا يحب المنغصات، لن يواقعها إذا كانت متزوجة، أنا واثقة من ذلك، ليس تديناً، ولكن لن يستمتع ولديه إحساس الشريك بجسد حبيبته، حتى لو صورياً، لن يغصبها على الجنس؛ لأنه أحبها كما أكدت لي غالية وجميع من يعرف القصة.

لدي فرصة، أن التقي زوجها، أُهربهما معاً لأي بلد أوربي، سيغضب صدام، يشتمني، يسلبني مزرعتي، أو حتى يضربني إلا أنه سينسى يوماً ما، الحرب والأعداء سيشغلانه.

تطقستُ، زوجها الصافي مدير عام الطيران المدني، يارب يطير معاها ويختفي خلف الشمس.

: تزوجها إذاً. أخبرني "صدام كامل" بكل شيء، كانت رنا ابنتي "زوجته" حاضرة.

: أبو أحمد، هل هذا حصل حديثاً أم منذ زمن طويل، وأنا نائمة بالعسل؟

رد صدام كامل: لا يهم عمة. الآن أو قبل مئة سنة. أرجوك تعايشي مع القصة كواقع.

: ماما، أنت سيدة العراق وكل العالم يعرف ذلك، هي بالظل وستبقى بالظل.

أردِّد بحرقة وألم في القلب والحنجرة

: إذاً تزوجها، نسي كل شيء. العهد والتضحية والانتظار، والعشرة الزوجية،

والسنوات الحلوة والمرة وال.. وال..

ثم بكيت كما لو لم أبكي من قبل.

منذ أُبلغنا بواسطة السفير أن السيدة أم علاء، سوزان مبارك، ستزورنا، تسارعت جهود أم يعرب، منال يونس، وتسارعت جهودي لاختيار ملابس ومكياج مناسب لهذا المناسبة، أم علاء ستحتفل معنا بالنصر على إيران، بالحقيقة هي قادمة بدفع من زوجها لزيادة أعداد المصرين العاملين بالعراق، خاصة بعد انتهاء الحرب والحاجة الماسة لبناء البلد، كانت سُحب غضبي لم تتقشع بعد، وكانت المناسبة مرهم لتطرية الأجواء. عدي لن يتردد في قتل أباه لأجلي. هذا الشاب كالمفاعل النشط من الغضب.

: نعم هو لا غيره، القواد ابن القواد، كامل، كامل، راح أنيكـــ. ... صرخت به

: اصمت لا تشتم، أنا أمك احترم مقامي. هل أنت متعاطي أم سكران؟ تكلم مع ماما بأدب الملوك ولدي عدي.

: أعتذر ماما، والله أعتذر. يتصرف كصبي، عدي ذو العاشرة من العمر. الصبي الملحاح البكَّاء بلا سبب طوال الليل. كنت أعاقبه كمعلمة وأم بأن يجلس في غرفة مظلمة لساعات بسبب تحطيمه لمزهرية ما، أو إسقاط ثرية كرستال بسلاح الصيد الذي أهداه إليه والده صدام حينها.

: كامل حنا خان إحساننا له ولأهله لسنوات. دون أن تغضب أبوك صدام، أدبه، عذبه. ولكن لا تميته. : أكيد ماما، وبالنسبة لزوجة بابا.. الجديدة؟ دحجته بنظرة عتب وتوبيخ؛ لأنه ذكرها بالزوجة الجديدة. كأنما وصفني بالقديمة دون قصد منه. عدي لا يجيد التعبير بالأيام العادية، فكيف وهو منفعل وغاضب؟ : بالنسبة للقذرة سميرة شاهبندرتقصد؟ سنصل لها لاتقلق، دهس بسيارة أو دفع من سطح القصر، أي شخص يُنفِّذ أتعهد له أن أنقذه من الإعدام، قد يُحبس لسنة، أتعهَّد خلالها بدفع راتب شهري لأهله طوال مدة محكوميته.

جلب لي سكرتيري مطلك أحدهم. شاب كثيف الشعر تحيط عينيه غيمتين سوداوين، ربما من أثر الكحول أو المخدر. التقيته خارج القصر في مبنى حكومي يعود لاتحاد نساء العراق بعد انتهاء الدوام الرسمي.

قال إنه مستعد لكل شيء.

: كل شيء؟

: ست. أنا لا أملك شيء بالدنيا وسجلي العسكري فاض بالهروبات. أُعدم بعد يومين إذا التقطني الانضباطية "الزنابير". ليس لدي ما أخسره.
سأحييك، وهذه الإسوارة ماركة بوتشلاتي ستكون مهر زواجك إذا نجوت.
: موافق، ست ما المطلوب مني؟

: سأدبِّر عمل لك في القصر الجمهوري أولاً، ثم أنقلك لقصر آخر خلال أسبوع.
مهمتك أن تصدم السيارة التي ستقودها، أو تسقطها في دجلة حال مرورك من أي جسر.

: موافق.

كنت متفائلة أكثر مما يجب وساذجة، ربما اسمي ساجدة مقارب لساذجة.
لا أحد يعلم أين تسكن، ولا أحد يعمل بالقرب منها إلا بعد مقابلة شخصية من صدام نفسه.

أما هذا الشاب الذي جنَّدته لاغتيال سميرة فنسيت أمره، لم أسأل مطلك سكرتيري الشخصي عمَّا حصل له حتى.

: ربما أعدم لنيته اغتيال زوجة الرئيس سميرة الشاهبندر؟ تعلمين سيدة ساجدة النية وحدها جريمة في عراق الرئيس صدام.

: أعلم هذا، وتأكد لي لاحقاً حين قتلوا أخي عدنان الذي لم تكن لديه حتى نية ما، ومع هذا قُتل كالآخرين.

طلبت أن تأتي أم كامل حنا لأصبَّ غضب إخفاقي فيها، مربية أولادي منذ أوائل السبعينيات، سيدة مسنة أرمنية مسيحية، تطاير شعرها هنا وهناك بلون فضي مصبوغ بالحناء الرخيصة، كلما تنقلنا أو انتقلنا لمكان كانت تتنقل وتنتقل معنا، بالحقيقة كان لديها احترام مكتسب من طول خدمتها لنا. عدي وقصي ورغد ورنا ينادونها "ناني". يحبونها ويحترمونها ويهتمون لأمرها إن مرضت أو اختفت لزيارةٍ ما للقوش أو مخمور أو العمادية مدن أقاربها في الشمال.

: سِتنا وتاج رأسنا أم عدي بخصوص كامل ابني اسمعيني من فضلك وكرمك للآخر، أقسم لك بمريمنا والسيد المسيح لا علاقة له بالأمر.. قاطعتها.

: أعرف ذلك مورين، أبو عدي أكبر قدر من أن يسمع لابنك ويترك أم عدي بتأثير خادم، لكن كامل لم يغزر به الزاد والملح وتربيتنا له، لم يعترض ولم يقف بجانبي، لم ينفث آرائه كحية بإذن أبو عدي أو يُلمِّح للألم الذي سينالني من وراء هذا الزواج، كان يقدر يخربها، لكنه وأنا متأكدة جمَّل الفكرة برأس صدام، وصلني أنه قال له راح يرجع شباب وأنه يحتاج مع حلاوة النصر العسكري لحلاوة أخرى. قال له كذلك،" أنت إنسان ورئيس، أشبع الإنسان حتى يتعزز الرئيس ويتجدد. تعرفين؟"، ابنك هو من روَّج لفكرة كلما نعاشر أحد ما أصغر منا بالسن سنبدو أصغر من أعمارنا البايلوجية، يعني أنا عجوز، وأبو عدي محتاج شابة غيري حسب ابنك السافل بن ال.. كافي غادري القصر من اليوم، كل خدمتك لي ولأولادي ما تشفع لك

بسبب ابنك، أنا أُحمِّله كل هذا، أبو عدي يحبني، ولكن كامل طلَّعني من عينه، لأن يغار منا، من أسياده، ويريد يساويكم ويَّانا بالاحتيال والمراوغة والتملق، اطلعي الآن، اطلعي.

.....

العتمة الهابطة مبكراً في أجواء بغداد تغري بنوم مبكر، لكني قررت أن أرتب أفكاري لمقابلة الصحفي غداً، وتنضيد الذاكرة الذي أصبح جزءاً من مهامي الشخصية. بالحقيقة في السابق وكمعلمة سابقة، كان اليوم الدراسي ينتهي عند الواحدة بعد الظهر، أعود أرتدي ملابس ربة البيت، أصير أم وزوجة عندها، أبدل حفظات عدي أو قصي، أكنس غرفة الجلوس وأسلق الفاصوليا "اليابسة" وأنسف الرز، بينما ينضج الطبخ أكون غسلت قطعتين أو أكثر من ملابس صدام ونشرتها في سطح المنزل.

أما في القصر الآن لانخلع ملابس الوظيفة ولا صفاتنا الحكومية، السلطة لذة مدفوعة الثمن من قلق وقيود، نحن من نقننها لنكون في أمان، لا شيء مجاناً.
لو كنا كالآخرين من عوائل رؤساء العالم الآمن، لو كنا نستطيع أن ننام بعمق دون مفاجأة ليلية، من الآخرين أو من الأقربين، لو كنت أقدر على البوح بما في داخلي ولو لي أنا شخصياً، كل شيء مقنن، حياتنا خوفنا شهواتنا وأفكارنا، وأحلامنا وتاريخنا، ماضينا ومستقبلنا وحاضرنا.

عندما أنجز أمير إسكندر مذكرات صدام، أو كيف يرى صدام صدام. أسماه الكتاب "صدام حسين مناضل" وأصدره عن دار نشر " هاشيت" الفرنسية.
شعر عندها بالارتياح لوهلة حين ألقى ما تكلَّس من ذاكرته على الورق. لأكون دقيقة لا نلقي ذواتنا كاملة في كتب للنشر، وهذا ما

حصل مع صدام، ولكن على الأقل قد قشط جزءاً من مخه المكربن بسواد الأيام الخوالي بمرارتها وحرائقها التي توارثها في خلاياه، ولن ينساها أبداً.

لذلك قررت أن أفعل مثله، أقي ذاكرتي في كتاب، أحارب الزمن وأعيده بالمقلوب بتسلسل الأحداث والمواقيت. طرحت الفكرة على أم يعرب، طارت من الفرح. : لو وفقط لو طبعنا مذكراتك ست ساجدة فأكيد ستكون كتاب في يد كل ماجدة، وسيكون مرجع بالقيم العروبية والبعثية الأصيلة، ودستور عمل في اتحاد النساء، يا عيني، متحمسة من الآن أحصل على نسختي "وضمتني إليها مباركةً الفكرة".

إنها منال يونس الألوسي، صديقتي منذ السبعينيات وسيدة نساء العراق الحكومية والفعلية لنشاطها الذي لا يقف، وزخمها المعادل لزخم طائرة تهم بالهبوط.

.....

أمرت سكرتيري الخاص "مطلك المطلك" أن ينبش دائرة أحوال الكرخ، حيث سجلاتنا العائلة ليجد أي وثيقة تقود إليها، لن أتردد في قتلها ولو خسرت صدام ونفسي وكل السلطة والعراق بأكمله. لم نجد وثيقة تقود إليها، ولا إلى ابنها حتى. كانت قد ولدت صبي بعد عام غير أنه لم يسجل في النفوس العراقية؟ ولا الزواج مسجل في أي محكمة، كان يحميها منا بمهارة. أصرخ في مطبخ القصر: غالية ... غالية.. أين أنتِ يا كسولة؟ تهرول إلي بجلبابها الأسود الشعبي. : عيني ست أم عدي.. بخدمتك. : يلا.. شوفي لي الفنجان وبخت اليوم، تعالي ورائي. غالية خادمتي التي تربت على يدي، أصولها بدوية من المنطقة الغربية الملاصقة للملكة السعودية، طويلة ومصقولة البشرة كشمعة العرس، ذكية وكتومة ومسلية بموضوع البخت والنصيب والطالع، لديها حس فطري طوَّرته لإرضائي،

تجمع المقدمات أو المعطيات وتصنع النتائج بفراسة أهل البادية، وتقنعني طبعاً أنها تتنبأ، وأنا أصدِّقها لأشعر بالرضا. : أين ابن صدام؟ فاجأتها بالسؤال، صمتت ووجها الدائري يلتمع بانعكاس لشمس الصيف اللاهبة المتسربة من نوافذ القصر، أين ابن صدام، علي؟ أين أمه سميرة؟، تفترش مرمر القصر. جمعت أصدافها وتخت الرمل الذي بين يديها، همهمت ككاهن، طال صمتها، هممتُ بالقيام من الكنبة المذهبة، لأغادر لمنزل عدنان أخي. : غالية لم تعد قدرتك وشياطينك تساعدك، هرمتِ وتبلدتِ مبكراً، سأ... قاطعتني على غير عادتها، باغتتني بالإجابة: في تكريت.. زوجة السيد الرئيس تعيش مع ابنها في تكريت، في قصر سري، أوراق زواجها مسجلة هناك.

.....

على الغداء وقد كان الصيف يشعل أسفلت الشارع لسخونته، جلست قرب إحدى حفيداتي، نبع، ابنة رنا، كانت خادمتها متغيبة لمرضٍ ما، أجلست نبع في حضني، أطعمتها بملعقتي رز وسلطة سلمون، بينما صدام يتناول طعامه بشرود واضح. : نبع، هل شبعتي ماماتي؟

: ممم، أريد ماما. كانت رنا في زيارة لطبيب العائلة لتأكد من كونها حامل أم لا، رافقتها رغد بينما زوجها صدام كان في واجبات الحماية. ربما هذا ما قاد لشيزوفرينا خفيفة، نحن عائلة توظف أبنائها وأصهارها لحمايتها، يختلط الأمر كل مرة، فبينما ابنة صدام صهري على المائدة أو زوجته حتى، يكون هو واقفاً خلفنا لحمايتنا. كنا نتشظى بالأدوار، بين حياة عادية ومشهد غداء عائلي، وبين مشهد مركب لنفس أبنائنا في وظيفة الحماية الرسمية بنفس المنزل. : أبو عدي؟ كيف ترى صدام وحسين كامل؟ موظفين لديك، أم أصهارك، أم أولاد عمك أم ماذا؟

: كلهم واحد تحت الخاكي والبيرية، كلهم في خدمة العراق.

: يعني حتى زواجهم من بناتك وظيفة، لخدمة العراق؟

: عندما تستقر عائلة الرئيس نفسياً يستقر الرئيس نفسياً، بزواجهم مبكراً يكن نساء مصونات كما عاداتنا أهل القرى، هذا يخفف عني التفكير والوساوس، ويمنع القيل والقال، يمنحنهن حصانة من الشائعات.

: أكيد، نحن كعائلة في الصورة، وعين الناس تلتقط هفواتنا وتكبرها.
: كنت أتمنى لعدي نفس الاستقرار، وأن يصون اسمي واسم آل المجيد، عدي عابث وأنا السبب، كان عليَّ أن أربيه ولكنه تربية أمه، تربيتك المدللة سجود، أنت وعدنان أفسدتم عدي بحمايته من غضبي وعقوبتي. أخطأت كثيراً عندما اعتمدت كلامكم بأن عدي مريض نفسياً، وعليَّ أن أسامحه كل مرة، وأتفهم دوافعه للتمادي في الجنون.

: هو متعب نفسياً منذ سنوات وعلينا رعايته لا تحطيمه، مرة في ماضي حطمنا حلمه بالزواج ممن يحب، علينا أن نعالج هذا، أعني لم نكن على خطأ بمنعه من الزواج من حبيبته سندس، لن ندخل غريبة إلى العائلة حتى لو كنا بلا سلطة، لن ننسى زوجة أبي الغريبة التي هربت بعد شهرين.

: لم أرفضها لأنها غريبة أو ليست من آل بو ناصر، أو البيجات.
: إذاً؟

: رفضتها ل"تولدنه". وهددني بإساءة استعمال اسمي الذي يلي اسمه إذا لم أوافق دون شروط على فتاته تلك. تذكرين أراد أن يهرب للخارج، وتصوري كم من أعدائي سيلتقطوه كثمرة ناضجة في أحضانهم الدنيئة.

تموز 1982

تحربن صدام كثيراً. لم يرتدي الكثير من بدلاته الحريرية الصنع. غطس في بدلة الزيتوني العسكرية منذ عامين على الحرب مع إيران تقريباً، ولم يخلعها إلا ليستبدلها ببدلة زيتونية أخرى، إنها الحرب وهو يؤدي دوره بإتقان مبالغ، تعويض كونه لم يقبل في الأكاديمية العسكرية الملكية كما حصل لأخي عدنان، ربما تعويض آخر لكونه لم يذهب للخدمة الإلزامية العسكرية من قبل، لكنه مقاتل بالفطرة، وقد كان مسؤول المكتب العسكري في الحزب في الستينيات، وأدار وهو مغمور كبعثي صغير خلية للانقلاب على عبد الرحمن عارف كما يقول. العسكرية ليست دراسة كما يُعلِّم ولديه عدي وقصي.

"العسكرية أن تقاتل وتقتل كحل أولي، ثم تفكر بدوافع لمقاتلتك بعد أن تنتصر".طلبت من العاملات أن يحضرن، كن خمسة. أمرتهن وأنا أفتح الدواليب.

: أريد تفريغ جميع ملابس هذه الغرف وتخزينها في مكان جيد في القبو.

جئن بنشاط عاملات خلية نحل، رهبةً وطمعاً ربما بما قد أجود به عليهن من ملابس مستعملة أغلبها أصلية لمصممين أوربيين، نشيطات أكملن إنزال نصف طن من أطقم بدلات صدام وأودعنهن في القبو. عندما جاء.

: ساجدة. أين بدلاتي؟ سألني.

: في مخازن القصر الجمهوري، لم تعد ترتديها؛ لذا أبعدت كل ملابسك المدنية.

: حافظي عليهم قد يصلحن للعرض في متحف عن سيرتي الشخصية بعد سنوات، خصوصاً بدلات فترة كوني نائب للرئيس البكر -الله يرحمه- وبدلة أدائي قسم الرئاسة من بعده، بدلة كشف الخونة في

قاعة الخلد، بدلة زيارتي لأبو مدين وتوقيع اتفاقية الجزائر، وكل بدلاتي التاريخية، بدلتي التي أهداها لي صديقي جاك شيراك في باريس، هذ عهدة وإرث للتاريخ ولأبنائنا وشعبنا وأمتنا العربية المجيدة.

استدرك وبعينين تجمدت لثوان تنظران لقاع المستقبل.

: ساجدة اسمعي. بالعادة رب البيت عند وفاته تُجمع ملابسه، ثم تُوزَّع كثواب لروحه، هل سأموت قريباً؟ أرد عليه وأنا أحضن جذعه المستقيم رغم امتلائه.

: لا اسم الله عليك صدام، يومي قبل يومك ومن عمرنا على عمرك، ايش تقول؟

: ها هاها. ضحك بارتياح واطمئنان من أُعفي من الموت لبرهة.

: أعياد ثورة تموز بعد كم يوم، فلنفرح قليلاً، غداً لدي زيارة لبلد، وبعد أن أرجع سنسافر العوجه نستجم.

: أي استجمام في جو حار وبيئة قاحلة. فلنسافر للسليمانية؟

: هناك في العوجة "العهد" والجذور، وكل توربينات قوتي الروحية والفكرية والجسدية. لا تتنكري لذلك "سجودات". نحن من الطين خرجنا ولن ننكر أصلنا.

الحضور المهيمن لصدام في العائلة لم يمنع أن أكون حاضرة بمقاييس النسوة العراقيات. قد يقرر لي، ولكنه لا يقرر عني. أنا الخاصرة الرخوة في جسده، قد يتجاهلها لبرهة، ولكنه لا يشعر بالسعادة كاملة دونها. نهض صباح اليوم وقد زاره النبي محمد في الحلم وسلَّمه عهدة أن يحرر القدس ويطفئ نار المجوس. : ساجدة الشعب فقد إيمانه بالمعجزات. على الحزب أن يكون معجزة،

على صدام حسين أن يكون معجزة أخرى يتبعها الشرفاء من شعبنا ويصدقها حتى الرضيع.

: لكن كنت تقول "أنا فارس بين الفوارس، قائد بين القواد"، كيف ستزيح الكل وتصير أنت وحدك معجزة؟ : من خلال حزبنا العظيم البعث العربي الاشتراكي بكل القيم والمثل العليا التي تربينا عليها، وإيمان الرفاق والخيرين من شعبنا سأكون إن شاء الله. : هل ستكون الدولة بعثية خالصة؟ : بل صدامية خالصة. البعث كحزب خوَّلني أن أقود الأمة مدى الحياة.

لكن تعلم أستاذ أ. أ. كل محاولاته ليكون نصف بشر ونصف إله لم تجُدِ. العراقيون بالجين والفطرة يحبون، لديهم أيقوناتهم الخاصة، ليس اليوم أو البارحة. من آلاف السنين أئمة وشيوخ وسادة علويين أشراف، يصنعون معجزات شعبية يؤمن بها حتى بعض الكادر المتقدم بالحزب. يتخذونهم عوناً لحل مشاكلهم اليومية التي تشبه دغل كثيف. للمرض والرزق والسعادة والإنجاب وكل شيء. تخيلت صدام كربٍّ عراقي جديد. لم أمانع نفسي من الضحك.

:أوافقك. صدام كرئيس وحارب مرتين، طيب لو أصبح رب ربما غزا المجرة.

: صحيح. وكل هذا ليس للتسجيل. بيني وبينك أستاذ أ. أ مرة زرت قصر الفاو، شاهدت أسماءه التسعة والتسعون في باطن القبة المركزية.

أنا صدام الأول. . . الفارس، البطل، الشجاع، الكريم، المجاهد، الزعيم، الحامي، المناضل، الودود، الضرورة الحتمية، التاريخ، الحاضر، المستقبل، السيف، التواب، الغفور، المصور، الشجاع، المحيط، أمير العرب، قاهر الفرس ومركِّع الغرب، الرئيس، المهيب، الركن، القانون، الأب، الحنون، الحكيم المنتخي، المؤمن،

السلام، الحرب الناهض، الخافض، الحافظ، المديد، العروبي الأصيل، الإنسان، أبو الليثين، الولي الوصي، النور، النار، النخلة، الجبل، النهرين، بابل، آشور، أوروك، أريدو، واور، القدوس، القوي، الأمين، الراهب، الزاهد، العابد، الساجد، القديم، المتجدد، المتجذر، الرفيق، الأنيق، العصي، العنيد، المورق، الباكي، المبكي، المحروس، المصان، الواهب المكرمات، الأبي الطعان، الصابر، المصان، المصون، المحبوب، المرهوب. عبد الله المؤمن، سيف العرب، الغاضب، الهصور، الجسور، وجه الله، مالك الملك، ذو السيادة والإقدام.

من عرفني فقد نجا، ومن أنكرني فقد ضل.

آمنت بصدام وأشهد الله على ذلك.

.....

سألت الخادمة غالية مرة: ها، ما الجديد في الشارع عنا من إشاعات الأعداء؟

: والله أبلع لساني وأموت، ولا أقول ما يسئ لعزكم وسيادتكم.

: لا لا عمرك طويل بنتي، قولي، لا تخافي.

: لاست أم عدي ما يجوز.. ما يليق بيكم أنتم.. أسيادنا.

: غالية، أنا آمرك تقولي، ولست أترجاك.

أذعنتْ. قالت: سمعت شائعة عن رئيسنا صدام -حفظه الله ورعاه- أنه.. ترددت. صفعتها بنظره حادة. تدفقت بالحديث.

: الأعداء أخزاهم الله، ربما العجم أو الشراكوة، يقولون إن صحة وسلامة السيد الرئيس من أي اغتيال، مصدرها مخرز في كتفه الأيمن معمول بسحر أسود من يهود بابل، ويقولون إن الريّس لا

يموت ولا يخترق جسده الرصاص؟
ابتسمت عندها.

: إذا حصل انقلاب -لا سمح الله- وأراد المتآمرين قتلي فليفعلوا ذلك بالرصاص لا شنقاً. هذه وصيتي، فأنا القائد العام للقوات المسلحة.

: عمرك ألف سنة صدام، ما الداعي لهذا التفكير الآن؟

: الحياة تسعون بالمائة خونة وعشرة مخلصين.

: أتمنى ألَّا يخوننا أحد. طالما أجهزتنا الأمنية يقظة. قاطعني

: الخيانة من تحت جلودنا، ومن نطفنا ودمنا أحياناً.

: لا تقل هذا صدام. أنا أعرف أنك لا تموت بالرصاص، العمة صبحة أخبرتني هذا.

: العسكر يُعدمون بالرصاص ساجدة. اسالي عدنان وخالي طلفاح عن هذا الأمر إذا كنت لا تفهمين بالأمور العسكرية.

: نعم لا أفهم لأني لم أكن جنديا يوماً بالجيش، ولم أدرس علوم عسكرية فكيف لي أن أعرف؟

امتعض، وحامت شحنة من الغضب في أجواء قاعة الطعام في القصر. تهدلت شفته السفلى أكثر كما يحصل حين يغضب، لم أكن أقصد أن أقارن أو.. أن أُلمِّح إلى أنه لم يكن جندياً يوماً ولم يدرس العسكرية. المهم هو الآن يحمل على كتفيه أعلى رتبة بالعراق والعالم. "مهيب ركن".

للتعويض عن عدم قبوله في الكلية العسكرية الملكية في بغداد، كلية الملك فيصل الأول، لازال يُحمِّل مسؤولية ذلك لوالدي خير الله، يقول إنه لم يسعَ بما يكفي، بينما توسط لابنه عدنان ليقبل. ربما كانت هذه نقطة تحوّل دفعته بزخم كوني ليصل إلى عرش بغداد بأي ثمن،

كانت بغداد ملكية حينها، كان القاسي والناعم كالماس، تسلل من كواليس السياسة والعسكر ـ ككومبارس، إلا أنه اختطف دور الرئيس لاحقاً.

خلق صدام الحانق بالتوازي مع عدنان المتصالح مع نفسه، الذي انفرد عن الآخرين بجمع ترافة بغداد وفحولة العوجة، مدنية العاصمة وقوة القرية، يشبه نفسه عدنان، يشبه أمي قليلاً الحاجة ليلو.

في بيتنا "راغبة خاتون" وبينما أصوات الباعة المتجولين والسيارات تصخب الشارع، ثمة نقاشات حادة وصخب حزبي آخر داخل البيت. جاء صدام للمطبخ
: ساجدة أحضري الشاي والكعك.

ينعقد اجتماعاً حزبياً في غرفة الجلوس.

أُسلم لصدام صينية الشاي والكعك وأعود لسريري لأنام. لكن أصواتهم المرتفعة تحول دون ذلك.

كان عبد الخالق السامرائي وصدام وبرزان وعدنان في حلقة حزبية يناقشون أمراً ما. رشح إلى سمعي ما يدور، ولو بصورة مشوشة بسبب عصبية الجميع ذلك اليوم.

: رفيق عدنان، لو استسلمنا لمرونتك وإنسانيتك لن نقتل ذبابة.
: رفيق صدام، أنا لا أوافق على استهداف عوائل الخصوم، فهذا غير إنساني، وحزبنا البعث عظيم بأفكاره التي تعمل للإنسان ليكون كريما أياً كان مؤمن بأهدافنا أم لا.

: رفيق عدنان، نفذ ثم ناقش. إِنْتهى.

كان هذا في الستينيات. خرج بعدها عدنان وانسحب من المهمة، وجد القدر بديلاً بسرعة. رجل لا يقول لا للدخان والدم. اسمه "أبو حرب" أو ناظم كزار.

: عدنان يعرقل مهامنا بالاغتيالات لخصوم الحزب أو حتى العرض لهم، أنا واثق أنه مؤمن بالبعث، لكنه هكذا يتميع بالقرارات رغم شجاعته وقوته، ومن يتميع يداس بالبسطال. أقاطعه بحزم: لا تقول "يتميع" على عدنان، أخي ينضح رجولة، ولكن له اعتقاداته الخاصة، لا تقل كذلك يسحق بالبسطال.

: لا أقصد عدنان مؤكداً، وإنما أُمثِّل، والأمثال تضرب للاعتبار ولا تقاس.

بالمناسبة أنتِ أكثر صلافة من عدنان، لو كنت رجلاً كان صرتي مسؤولنا الحزبي ها هاها. ضحك هازاً أكتافه.

أضاف بسخرية: لكن حتى لو كنتِ رجل لتزوجتك.

خرجت من الغرفة بامتعاض لما قال لي، وما مر من فكرة وسخة في رأسه.

كان لؤي في قصرنا عندها، هو أخي الأصغر- غير الشقيق، اعتاد على البقاء معنا هو وعائلته في إحدى الأجنحة، واعتدت على رويته تعويضاً لافتقادي لرؤية أخي عدنان الذي - ولأكن صادقة- لا يسد فراغاً تركه في القلب أحد، ولاوالدي حتى.

.....

كان عدنان في البصرة في الجبهات المستعرة مع إيران، الجارة التي نحارب لنكف أذاها، ونوقف تحريضها الشيعي السياسي العلني لكذا مليون عراقي يؤمنون بنفس العقيدة.

: يتوقعون اسقاطي جماعة طهران بكم مخبَّط شيعي تابع لهم، وكأنما استلمت الرئاسة كهدية مع العدد لمجلة ما هههه، ثم بغضب

بركاني: "لا، واهمون، الخميني يعرفني جيداً، وأنا أعرفه جيداً، أنا أقسى منه وأشد عناداً من ألف من عينة رأسه".

: أشعر أنك تشخصن العداء هكذا، أقصد أنت تكره الخميني منذ زرته في النجف كما قلت لي، ولم ينظر لوجهك أو يحدثك حتى خلال ساعتين من المقابلة، هذا وأنت السيد النائب للرئيس البكر، ولديك صلاحيات ليست للرئيس نفسه.
لكن، أخشى أن أقول هذا فتفكر أني ضدك صدام، أو أني أخشى على عدنان أخي الذي صارت حياته جزء من المعارك في حرب القادسية، لكن هل يمكن لهذا أن يتوقف؟ أقصد.. نعم، أنا أخشى على عدنان، ويهمني أن يكون قريباً منا هنا في بغداد مع أهله وعائلته.

: ساجدة، كيف تفكرين هكذا؟ لو دار هذا الحديث في رأس مواطناً آخر لقطعته بيدي، حتى لا ينشر عدوى الأفكار بالتخاذل بين الآخرين، أنا أكره الصلف الذي لدى الخميني، الرجل نسخة من الشاه بعمامة، ونسخة من كسرى بلا أساور الذهب التي سمعنا عنها. الخميني كتلة من الغرور والفخر الفارسي المتجدد كل مئة سنة، نسخة من البرامكة، نسخة من الفضل بن سهل، نسخة من كل من سمعنا عنهم منذ أسقطوا بابل عاصمة الدنيا، وأقاموا بدل عنها طيسفون المدائن إلى اليوم، أنا جزء من نطفة الفوارس العرب الذين قطَّعوا كسرى وملكه بسيوفهم، نحن نقاتل هناك

في التاريخ، في القادسية، قبل ألف سنة ويزيد، نُطَف بهمن ورستم اتصلت إلى اليوم وعلينا اجتثاثها.

توقف صدام عن الحديث كما لو أننا في محاضرة أو ندوة حزبية. لا أحب الإيرانيين، ولكني لا أحب الحرب كذلك، صدام ملتحم دماً ولحماً بما قرأ من تاريخ العرب والفرس العسكري، وهو يوظف ذلك

ليقنع نفسه بالاستمرار بالحرب، أنا أعلم أن كل هذا قبة من ورق تخفي صخرة معرقة من القلق والخوف على العرش الجمهوري.

أعلم ما خفي، الصفقة، مع ال.. أصدقاؤنا الأقوى في العالم، أعلم كل ذلك من عدنان الذي باح لي بالسر، لماذا نحارب إيران؟ ومن يدفع بهذا في الغرب؟ ومن وكلائهم في الخليج كحلقة ارتباط لتمويل هذا المشروع الهائل؟، ثمان سنوات من العراك البدائي البري الدموي حد الأنياب والمخالب والحراب في قفص مغطى من الخارج بصور جنود وجنرالات وآلات حربية حديثة وسفراء وأعلام دول وأوراق قرارات تذهب كل مرة لسلال النفايات في "الخارجية" ومكاتب الأمم المتحدة.

: ها غالية وبعد.. أُكمل تحقيقي مع الخادمة للتسلية.

: الله يخلي الريس، الله يطول عمره، ندعيله بكل ساعة غالي وحلوة أطباعه..

صارت تتقافز وتغني لتجنب المزيد من الأسئلة من قبلي.

: ها، أيا شيطانة، أنت لست سهلة "غلاوي".

اتصل بنا حسين كامل، كان مضطرباً، وصوته دفق من التوتر وعدم الوضوح، قال "السيد الرئيس مصاب "تصوب". ألقيت ما بيدي من مجلة الموعد، وأسرعت بارتداء ملابسي لأغادر، تذكرت وأنا في مدخل القصر، تساءلت مع نفسي: إلى أين أنا ذاهبة؟ طلبت من الحماية أخذي لمستشفى ابن سينا التخصصي، توقعت أن يكون صدام هناك. عندما وصلنا لم أجده، كان قد غادر. أكدوا لي أن الأمور بخير، وأن رضوض وخدوش سطحية فقط هو ما أصاب

الرئيس، وأن الله حماه كما يفعل كل مرة من الأعداء الفرس المجوس؛ ليكون خيمة لكل قيم العروبة وهكذا..

استمعت للأكليشيه هذه من مدير المستشفى التخصصي الدكتور ولاء البشير. جرَّاح العائلة الشخصي.

غاب عن رأسي أن أسال عن تفاصيل ما حدث، كم كنت متسرعة؟ أو كنت زوجة لصدام أكثر مني زوجة رسمية لرئيس يهمها بروتكولياً أن تعرف كما أجهزة الدولة الأمنية ماذا حدث بالتفصيل؟ ومن المستفيد؟

على العشاء بينما صدام شارد مع سحابات دخان سيجارة الكوبي، كنت أردد "الحمد لله على السلامة صدام، أبوية أنت وأبو بيتي، الله يحميك من العين ومن كل عدو".
لم يكن يصخ السمع إلا لما في رأسه.

استدار لمرافقه صدام، الذي يقف عند ستارة النافذة المطلة على حدائق القصر "صدام, من تعتقد سيكون فرحاً اليوم لو كنت الآن جثة في ثلاجة الطب العدلي؟ باغت السؤال صدام الجندي المرافق. لم يرد، كسر الصمت جرأة حسين كامل أخو صدام كامل والمرافق الآخر للرئيس.

"عدا عن الدجال الخميني وأعوانه في طهران، ربما هناك مستفيد دجال آخر وأعوانه في بغداد". استدار صدام لحسين كامل بكل جسده. توقفنا عن الأكل وتفاجأنا بجرأة هذا المجند، وإن كان من أقرباء الرئيس.

"تعال هنا" أمره صدام بأن يقترب. "اجلس هناك قرب رغد". فعل ما طلب منه، كانت رغد تبادل هذا المجند النظرات المشفرة، التي تلتقطها أم مثلي بسهولة وتحللها إلى إعجاب مُبطَّن غير معلن.

: كُلْ تفضل، أنت من فرع العائلة آل بوغفور، وهؤلاء أهلك، أخواتك وأخوتك، لا تتردَّد في قول ما تريد.

: سيدي الرئيس أشكر لك كرمك، أنا في الواجب ولم أعتاد أن أتناول أي طعام إلا ما يتناوله صنفي من الحمايات.

قاطعه صدام: صحيح، العسكري الحقيقي يشارك أخوته كل شيء كدلالة على الضبط، ولكني أنا القائد العام للقوات المسلحة على المائدة الآن آمُرك كجندي بأن تأكل معنا، حسين هذه مكرمة رئاسية عليك أن تتقبلها بالأمر.

: شكراً سيدي، عُلِم ويُنفذ. وأدى التحية العسكرية واقفاً.

ركَّز صدام عينيه العسليتين ببوء ضيق على حسين وأطال النظر، بينما يكسر الصمت احتكاك الشوك والملاعق والسكاكين بالأطباق. مر وقت انغمس الجميع فيه بالطعام من لحم الغزال المشوي على الفحم فوق منسف الرز الممزوج بالكاجو والفستق والصنوبر. قطع ذلك صوت صدام الحاد ذو النغمة الآمرة المرتفعة قليلاً.

: ما قصدك بما قلت قبل قليل؟ حقيقة كنا نسينا الأمر مع نكهة الطعام الطيب، وشهيتنا التي فتحت بشراهة ربما بسبب سعادتنا بسلامة صدام، ونجاته من موت محقَّق.

وقبل أن يجيب حسين وقف صدام فجأة، وقف حسين كما دفع بنابض حلزوني ووقف بسرعة، بينما أشار لنا صدام أن نستمر بالأكل.

قاد صدام حسين كامل إلى مكتبه. توقفت عن الطعام ولحقتهما.

: ساجدة لماذا لم تكملي طعامك؟ لما أنت وراءنا هنا؟

: شبعت، يهمني ما سيقوله حسين الآن، لأكن واثقة من سلامة زوجي في الأيام القادمة.

: لكن هذا شغل رجال. قاطعته بثقة. "وأنا أخت رجال، ثم إن هذا ليس اجتماع وزاري أو مجلس قيادة الثورة، كما قلت هذا اجتماع عائلي وحسين ولدنا".
سمح لي أن أكون حاضرة معهم على أن لا أبدى أتكلم، أستمع فقط.
انتقد حسين وبشكل غير مسبوق أمام صدام ضعف وتخلف الإجراءات الأمنية المرافقة لموكب الرئيس، ولم يتردد أن يزرع الشك في صدر صدام، مشيراً إلى أن هناك يد عليا ترعى هذا الضعف الأمني؛ لتجني ثمرة ما بحجم منصب الرئيس نفسه،

كما لمَّح دون أن يصرح إلى أن المستفيد من نجاح العملية سيكون أقرب شخص للرئيس من الدرجة الأولى ربما.

: من تقصد؟ أم عدي مثلاً هاهاها.

قال صدام مازحاً ليخفي في وجهه قلقاً أراه أنا فقط دون الآخرين لطول معاشرتي له.

: لا، لا أعتقد، ربما أنت تبالغ حسين، آل بو غفور ومنهم عمك علي حسن المجيد رجال مخلصين لصدام، وربما إخلاصهم وحذرهم على حياته يقودهم لاتهام آخرين مخلصين كذلك، ولكن بطرق وصيغ نضالية وعملية أخرى.
تدخلتُ: "هذا كلام خطير حسين، أنت تقصد برزان وبيت إبراهيم الحسن، ونحن لا يخفى علينا تلميحك هذا، انتبه برزان أخ صدام وزوج أختي أحلام، كيف تجرؤ على أن تفكر هكذا ها؟

: اهدئي أم عدي، حسين يقصد أناساً آخرين عملاء أو مقصرين، وليس برزان أليس كذلك؟ سأله بعينين تخترق قشرة دماغ الآخر، وتقرأ ما سيفكر قبل حتى أن يفكر.

: نعم سيدي، كما تقرر سيادتكم.

أجاب حسين بمكر، بذر البذرة الأولى لحقل من الشك سينمو ويتشابك ليحصد حسين الثمرة الأغلى، وهي رغد بنتنا كزوجة، بعد أن قرر صدام إلغاء صفقة زواجها من ابن برزان محمد، الصفقة العائلية العشائرية التي كانت برعاية العمة صبحة أم صدام، والتي لم تعد ذات تأثير يذكر عليه؛ ولذلك لم ينفذ رغبتها.

.....

سألت غالية مرة "كم يُعبر العراقيون عن حبهم لأبو عدي؟".

جلست أرضاً، وقد افترشت عباءتها الرجالية الجوخ المنسوجة من وبر الإبل، يتدلى من فوطتها السوداء شراشيب تؤطر وجهها فينصع بياضاً مُشرباً بحمرة ونظارة.

"يذوبون في حب الريس".

"غالية، لك كل الأمان تكلمي كواحدة من الناس، وليس كواحدة من عاملات القصر الجمهوري".

"يحبونه"، "حلو، نزلنا درجة وبعد.. ". "ملة تحبه، وملة تشكو الفقر، وملة تشكو فقدان الوالد والأخ والزوج والابن، راح فدوى لوجه القايد والوطن، وملة.. ".
"أكملي"، تململت في جلستها، لن تنطق بلسانها ما قالته بتعابير وجهها المدور كما لو رسم بفرجال، "ها. . وملة لا تحب القائد تقصدين"، هبَّت واقفة مرعوبة، وكأنما لدغت من قطيع عقارب، "ينقطع لساني ولسان كل من ينوي يخون زاد وملح الوطن وحكامه"، "لو فرضنا أن بعض أعداء الوطن والرئيس لا يحبوه، ما الأسباب كما تعتقدين؟، كوني مباشرة، أنت تنقلين صورة كما آلة الكاميرا، صورة الأشرار لنواجههم، صورة من كفروا بالنعمة وحب الرئيس، وناقل الكفر، يا غالية، ليس بكافر".

عادت لبعض هدوئها وجلستها على رخام أرضية القصر.
"يقولوا تعبنا من الحرب، نريد نعيش، نأكل وننام ونتكاثر كالدود، ليس لديهم همة القائد في رفع شأن العراق وأهله".

"أحسنت غالية، قومي لشغلك".

عندما تسألني عن رأيي بما حصل مع غالية فأجيبك بصراحة ومنطق لن يستوعبه إلا من كان عراقي، أنت عربي طبعاً، ونحن العراقيون عرب، ولكن لنا خصيصة ليست لدى أحد، مثلاً لا يكره الأعداء من العراقيين السيد الرئيس لشخصه، إنهم يعشقوه بدواخلهم، ولو قُدِّر لأحدهم شيء من الجرأة والحظ ليصير- صدام لصار صدام ونصف، يحبون غضبه ويحبون رضاه، يحبون عنفه ورقته، يحبون عدله وظلمه، لكنهم يسخطوا لفشله، خذ مثلاً لو احتلينا الكويت وصار محافظة تابعة لبغداد، كما حلم بذلك كل العسكر أصحاب القرار منذ الباشا نوري السعيد إلى المنصور- بالله صدام حسين، لما اعترض ولا عراقي واحد لو وفقط لو.

لن تعرفوا كيف يفكر العراقي إلا إذا كنتم عراقيون. شعبنا يغضب ويتذمر ويسبنا إذا فشلنا في مهمة ما، كاحتلالات أو حروب لجيراننا، أو حتى الإعدامات والعنف والاغتيالات لمعارضينا، ولكنه يتقبل كل ذلك ويبرره لصالحه لو أنها نجحت وعادت بمنجز ما، حتى لو أنها تكلفه أبنائه أو قطع أطرافه الأربعة. المنظومة العراقية الأخلاقية لا تقبل أن يفشل الحاكم حتى لو كان على خطأ.

1983 نيسان .

عند الثالثة صباحاً وصل صدام، كانت الحرب مع الفرس المجوس تأكل وقته، هجوم كبير يُشن الآن، والتلفاز يتصاعد بالأحداث على صيغة بيانات عسكرية، أتابع بعضها لست قلقة، فأنا واثقة أن الجيش العراقي قوي ولن ينهزم، ولو كلَّف ذلك مليون شهيد في اليوم الواحد، لكني أراقب الأخبار أحياناً لأجد صدى نفسية صدام فيها، الحرب تدور في الجبهات وفي أسرتنا، كل قلق عسكري يزحف لشراشف الزوجية بالنسبة لي ولأم يعرب، وكل الماجدات في العراق.

: صباح الخير أم عدي. حيَّاني هكذا، ليلة رسمية إذاً بنكهة التعب والتقاط الأنفاس بلا حميمة تذكر، أداعب ظهره دون ردة فعل تذكر منه: "عيني أبو عدي منصورين إن شاء الله، سباع العراقيين، شجعان جنودنا، يصدوهم و..." : "ها، أي نعم، العجم وصلوا للطريق السريع بين بغداد والبصرة، زتوا دراجات نارية وثغروا خط الصد الأول والثاني والحجابات والألغام، ملاعين شياطين مستميتة، أغلبهم دون ال خمسة عشر، أطفال معصبين بخيوط خضر في الرأس، جلبناهم مقتلين وعرضنا جثثهم على جنودنا". أدعيت النعاس ليوقف سرد تفاصيل الجثث، ألم أقل إن الدماء والأشلاء المقطعة والشظايا دخلت أسرتنا وأكثر.

: هل غطيتي في النوم؟ أووف منك بس لا تشخرين، ساعة واحدة وأغادر فلا تقرفيني." خخخخخخ". أرد بشخير مصطنع.

ينسحب الليل بخفة الضباب من النافذة.بينما فجراً سماوياً يسير خلفه جيئة وإياباً. من بعيد أرى صوت أذان وتكبيرات عيد الأضحى، امتلأت بروحانيةٍ ما رغم جدران القصر الرخامية التي لا تسمح بذلك، وتقف كحرس بيني وبين السلام الداخلي الذي أضعت منذ صرت زوجة للمناضل صدام. يصر أذان الفجر الشفيف على التسلل من ستائر الشيفون عابراً القباب المزركشة وأسراب الفاخت، وأكتاف أشجار الجوز والصنوبر في غابات الموصل الغامقة الخضرة، وكأنها ملابس جنودنا. سكون متلجلج في رأسي، وراحة وخدر لا أدري من أين تغمرني الآن. طق طقطق من يطرق باب غرفتي الآن في الجناح الرئاسي في فندق نينوى أوبروي؟ أي سخيف هذا، وكيف سأغسله برزالة صباحية ثقيلة لتصرفه هذا، يزداد الطرق بتسارع، ليس يتوقف كشواكيش صفارو سوق السراي. أهبُّ متحفزة للباب لأسكت طارقه.

عدي، طفلي المدلل، كأنما أضعت العداد الزمني، كم كبرت حبيبي، لم تعد تحمل حفاضتك مناشير حزبية وخطط هروب من المعتقل، لم تعد تعبأ بأخبار المناضلين والتعليمات السرية لرفاق العقيدة والنضال، غائمة الرؤيا الآن، كيف كبرت من حمامة صغيرة بحاجبين كثين إلى حصان بارتفاع مترين يبكي بهستيريا في بابي.

حضنني، لا أسمع شيء، كان منهاراً، بالعادة يدغم الحروف فتصير الراء غين كما ينطق الباريسيون، في العادة يتحدث هكذا، فما بالك الآن وهو نصف ميت من البكاء؟. "خاوو خاوو". "عدي ايش بك، كسرت بابي من الصبح، أنت هنا حتى تنطق كلام كوردي؟ ماما، أنت سكران؟".

"حسناً، حسناً فهمت" أجبت الهاتف، بينما غاب عدي في شبه غيبوبة على الكنبة البيضاء في غرفتي، أخبروني استعلامات القصر أن صدام على الخط.

: "صباح الخير صدام. عدي من الصبح في غرفتي منهار يبكي ولا أفهم منه شيء، هل هو معاقب من قِبلك كالعادة؟" نحيب عدي أفقدني التركيز.

: قتلته، قتلت كامل حنا. بابا سيقتلني. اااه. زوجك صدام سيذبحني أقول لك.

: يا غبي، ماذا فعلت؟ سيكرهني صدام أكثر، وسيتهمني بتحريضك على قتل خادمه. متى تكبر ماما؟ متى تتصرف كرجل ناضج؟

وضعت رأسه في حجري ولعنت الساعة التي حبلت بها بهذا الطفل الصبي الرجل.

.....

عدنان حصلت كارثة، سأفقد عدي للأبد. سيعدمه صدام أنا متأكدة ليعاقبني من خلاله ويخيفك والآخرين. : مستحيل لن يفعلها أنت تبالغين ساجدة. : لا، صدقني أنت لا ترى صدام من الداخل. طرد أهل القتيل كامل حنا عندما جاؤوا ليتنازلوا عن حقهم الشخصي بدم ابنهم. : صدام ونعرفه هو يماطل ويتصنع ذلك ليؤدِّب عدي لا ليعدمه. : بالنسبة لي هو جاد، عدي كسر الخوف الذي يحتمي به صدام من الآخرين، وإذا تركه سيجرؤ عدي والآخرون عليه شخصياً. كامل حنا كان بالون اختبار لمن يجرؤ على ملامسة خصوصياته، عدا أن صدام يحبه ويثق به، ويرى به شبابه الذي لم يستمتع به في الستينيات، وضاع بين المنفى والسجن والعمل الحزبي في المكتب العسكري. : سأحاول أن أنهي الأزمة، حسين كامل

يتصيد الفرص ليكون جزءاً من المشهد. : أبا حمزة، أعرف أنك لا تطيقه، ولكن لخاطري تحمَّل، ولا تشعب الأمور، "الي فينا مكفينا".

: كل هذا سببه أنت ساجدة. لم تحتوي صدام جيداً وتسلل منك إلى أخرى، كان عليك أن تكوني كل ما يرى وكل ما يسمع، كنا تجنبنا زواجه من سميرة وغيرتك عليه واحتكاكه ب عدي الأرعن الذي فعل ما فعل. نحن نخسر صدام لصالح آخرين. نخسر القرار ساجدة، والتأثير ونضعف يوماً بعد يوم في حمايته من غروره ومن حماقاته، التي ستصلنا أنا وأنت والجميع من بيت المسلط يوماً ما.

: اتفق معك. هذا حسد، عين أحدهم أصابتنا، أذهبت نشوة النصر في القادسية، وألقت بصدام في حضن أخرى.

: ألو ألو.. الخط غير واضح وهناك صدى. يبدو أن أحدهم، بل مؤكد أن هناك تسجيل للمكالمة، على كل حال لا تكوني سطحية وتصرَّفي بحكمة.

لم أقتنع أن عدنان الذي فقد تأثيره على صدام بعد انتهاء حربنا مع إيران سيقنع صدام بالعفو عن عدي، كان إحساسي في محله، عدنان إنْتهى معنوياً، وصدام يجتهد في صناعة حسين كامل كبديل.

في الليل هبطت طائرتي في عمان، في صباح اليوم الثاني طارت طائرتي إلى بغداد محمَّلة بالملك حسين شخصياً.

: جلالة الملك أريد عدي من شاربك.

: أبشري. إن شاء الله لن يردني أخي صدام، وتنتهي الأزمة على خير.

بحنكة رجل البادية الحكيم الذي يعرف كيف يفكر قبَلي كصدام. أقترح الحل.

: ديننا الحنيف وعاداتنا القبلية تقبل الدية في حال القتل الغير عمد،

وولدكم لم يبيت النية لذلك، ولم يعلم بمصرع الضحية حتى صباح اليوم التالي، وبذلك عُدَّ هذا حادث وليس جريمة مسبقة الإعداد. بخصوص الحق العام العراقي فيمكن تخفيف العقوبة للحبس، وأنتم أبا عدي أدرى منا بالقوانين العراقية، وكان الله يحب المحسنين.

اقتنع صدام. زار المقبرة الملكية في الأعظمية لقراءة الفاتحة. ثم صلَّيا في الحضرة القادرية. وهو يغادر بغداد قبَّلت رأس الملك حسين لإنقاذه عدي من أبيه.

: اليوم، وبالأمس، وغداً، جميلكم لا ينفد اتجاهنا أسرةً وبلداً، ليديم الله الصحة لكم، وللعائلة الهاشمية الشريفة.

: لا أريد أن أرى عدي أمامي لخمس سنوات على الأقل. طار برزان وأحلام بعدي إلى جنيف. مرت سنة لم أرى فيها مُدللي عدي.
: أريد أن أزور عدي في جنيف؟ : موافق. خذي حسين كامل معك وكوني على اتصال يومي بي. استقبلنا عدي والسفير العراقي في المطار. هيَّئوا لي فيلا خاصة، لكني رغبت بالسكن في بيت برزان. منزل أوربي بامتياز. ليس فارهاً فخماً كقصورنا في بغداد، ولكنه مريح وهادئ تحيطه أشجار الصنوبر بخضرتها، بينما ترامت في المدى سقوف القرميد لمنازل السويسريون. : شجرة الدر تعشق صباحات جنيف، حيث اعتادت على ممارسة الرياضة الصباحية في الشارع. قال برزان. نضرتُ متسائلة. : شجرة الدر؟؟؟ من تقصد؟ : أحلام أختك. أخترت لها هذ الاسم لأني أحبها جداً، أعشقها وأتمنى موتي قبل موتها –لا سمح الله- لأنها.. لأنها كيف أصفها؟ ماء الحياة أو الهواء الذي أتنفسه. إنها كل شيء كل شيء يا أم عدي. : والله محظوظة أحلام بك، ياريت صدام يتعلم الرومانسية منك. ضحكنا جميعاً. : عدي الغالي تبدو شاحباً، هل تعاني من شيء ماما؟ كان

قليل الكلام والطعام، لاحقاً همس لي حسين كامل: علينا أن نعيده لبغداد، إذا بقي هنا سينتهي به الأمر في مصحة إدمان الكحول والمخدرات.

وافقته الرأي. لن أسال صدام موافقته على عودة ابنه. سيكون أمراً واقعاً أن يجده في القصر حين عودتنا. قد يغضب مني أو منه لن يأمر بعودته لجنيف. قبل عودتنا لبغداد بيوم اتصلت حلا وطلبت شوكولاتة سويسرية من محلات معينة، كانت قد شاهدت إعلاناتها في المجلات الأجنبية. : لكن غداً يوم أحد، عطلة نهاية الأسبوع في سويسرا ولن يفتحوا.

: اتصل بمتاجر "كونفدريشن". سأدفع أجور يوم الأحد كامل للعاملين إذا وافقوا. من يقدر أن يزعل حلا دلوعة أباها صدام. كما أنني سأشتري ساعات ومجوهرات كهدايا ل "البنوات" ول أبو عدي.

سألت برزان: هل تعود معنا أنت وعائلتك لبغداد، برزان؟

: لماذا؟ أجاب بعصبية. أردف بحدة.

: لن أعود أبنائي يدرسون هنا، كما أني سفير للعراق في المقر الأوربي للأمم المتحدة.

: سألتك لأننا نرغب بتزويج عدي لابنتك سجى، خاصةً بعد أن عاش عدي معكم لسنة في جنيف وتقاربا خلالها.

: لا مانع لدي إذا وافقت، سأكون أحرص منكم على ترابط العائلة.
: ماذا تقصد؟

: تتذكرين وصية أمي صبحة بأن يتزوج أبنائي من بناتكم. لم تنفذوا وصية المرحومة وزفت رنا ورغد لأولاد كامل، حسين وصدام، بينما لم يمر أربعين يوماً حتى على وفاة أمنا صبحة, أتذكرين؟

: أتفهم غضبك. صدام من يقرر لا أنا، أنت تعرف وتعي ذلك. ولهذا سجى وعدي سيعيدان تدفق نهر العائلة بقوة بزواجهما. بالحقيقة يحتاج عدي لزوجة ذكية ومتعلمة جيداً لتدير أو تخفف حماقاته. واثقة، ستعود الفرحة لقصورنا بعد كل سوء الحظ هذا والقلق والمفاجآت الثقيلة. لو لم يكن صدام تزوج سميرة لما قُتِل كامل حنا، ولما وصل الأمر للتهديد بإعدام ولدي البكر، ولما حرمت لسنة من أن أكون معه. لكن الحمد لله انتهت على خير. رغم أن جرح زواج صدام لازال يرعف كل يوم، حتى وأنا بعيدة عنه في قصر آخر باختياري. : هل تعتقدين أنك تعاقبين السيد صدام هكذا؟ : أعاقب نفسي لأني صمت كثيراً حتى أضعت صدام.

: تحبيه؟ : من تكن زوجة لصدام عليها أن تحبه شاءت أم أبت. قلت لك نحن عائلة وأقرباء، ونتبادل الأخطاء والغضب والحسد والحقد أحياناً. إلا أننا من خامة واحدة تعيد تشكيل نفسها كلما انفصلت. هل فهمت أستاذ أ. أ؟

: بالحقيقة لا أفهمكم، ولن أفهم هذا أبداً، سيدة ساجدة.

: غداً سنفتح ملف السبعينيات، العودة العكسية بالذاكرة مرهقة، وقد تبدو غير متسلسلة، لكنها أكثر دقة في اكتشاف الجذور لكل ما حصل. موعدنا الرابعة عصراً.

المخطوطة 4

تموز 1979.

"عزاز والله عزاز.. وشوقهم شوق الشواطي لليل دجلة، مدللين. . . ".

يصدح المسجل الناشنال بأغنية لياس خضر في جناحي الخاص في القصر الجمهوري.. أقاوم الكسل وأنهض هابطةً من السلم الرخامي للطابق الأرضي، حيث القاعات والمكاتب الإدارية. ثمة الكثير لأتآلف مع هذا القصر العظيم، متحسرة على شباب المسكين فيصل الثاني الذي بناه ليكون عشه الزوجي وبلاطه الملكي. "لا يدوم ملك لأحد، والحياة سلِّم واستلم، كنت مؤمنة بهذا إلى زمن ما، لكني أتصرف الآن عكس هذا بالحقيقة. من يملك ينسى نفسه. من أروع ما يكون أن تمتلك حديقة منزلية بمساحة خمس مدينة بغداد، ربما أبالغ لو قلت إني كنت سعيدة، كنت خارج الزمن ببلادة بين أن أصدق أو لا أن منزلي العائلي صار القصر الجمهوري، وأن شاطئ دجلة سيكون حديقتي الخلفية. قفز إلى رأسي وجه نجاة العجوز، وهي تسحل أغراضنا للشارع بعد أن طردتنا من شقتها في الستينيات. الساقطة كانت تفح بصوت مليون أفعى في أذني. : حفاة، اخرجوا، أشبعوا بطونكم قبل أن تستأجروا المنازل ولا تدفعوا الإيجار. كان عدي يشكو من الجدري، بينما أجتهد أن أحمي قصي من العدوى، كان صدام في المعتقل يشاركه عدنان الأرضية الإسمنتية، والأنفاس المكومة والقمل.

أتذكر أثاثي المتواضع وهو يُرمى في الشارع، بينما احتضن طفلي وأبكي داخلياً، وألعن اليوم الذي تزوجت فيه من صدام الذي لا

يصلح للزواج و "العوئلة" كما تصفه أمي ليلو. أخذنا يومها برزان لمنزل رفيق بعثي فارغ قيد الإنهاء، نمت وأطفالي على كارتون السكائر الأسمر وصحف صفراء، حلمت بأني أبتلع كل أحبارها وحروفها وأغص بها.

: ماما جوعان. يردد قصي كل عشر دقائق، إِنْتهى ما اشترينا من بسكت وتمر وقناني حليب "ماما.. ماما، بردان" يردد عدي الصغير فأحضنه بقشور الجدري التي على جسده وأجهش في بكاء صامت.

رجعت لمنزل أهلي بولدين، وبدايات حمل في بطني "بالخاتون" رغد.
أحرِّضه "صدام ابحث عن نجاة وأجلبها لي، أريد أن أكرمها".

همست في أذنه ونحن نجتاز مداخل حديقة القصر الجمهوري، التقط ما أفكر به. عرف المقصود والمعكوس من كلمة "أكرمها". قرآني بذكائه الفطري.
"سجودة"، لا تكوني أحقد من بعير، لن أعاقبها لأن الجميع يفعل هذا مع الضعفاء، ولذلك لن أسمح للزمن أن يعيدنا ضعفاء، تعلمي الدرس فقط، الأقوياء لا يهانون ولا ينتقمون عزيزتي".

: لكن عدي كان مصاب الجدري، لم تقدِّر أني بلا زوج، كانت جشعة ورفعت الإيجار لتضغط عينا بالمغادرة، أقول لك، كان أخوها شيوعياً وعضو لجنة محلية، عندما علمت أن بعثي "تخبلت"، أقول لك..

ضاع صوتي لصدام عندما فتح نافذة السيارة، ودخلت رائحة نهر دجلة مذابه بالآس والجوري والقداح. كل هذا مذاف في الهواء الطري المنعش بينما السيارات الأمنية الأخرى تحف بنا.

كنت أُبسمل وأنا أدخل البهو الرئيس للقصر، مؤكدة على الحرس أن يحافظوا على ممتلكاتي التي جلبتها في الحقائب من الكسر.

إذاً هذا هو القصر الجمهوري. يالله ما لهذه الرهبة والعظمة، الجدران السميكة والأبواب المرتفعة بعلو طابقين، السقوف المزركشة بالزخارف، والثريات الكرستالية المتراقصة الأضواء والتي تلتمع في الهواء كنجوم قيد السقوط بين الأرض والسماء.

سجاجيد تغوص بها الأقدام وستائر سميكة وثقيلة كأنما من الكرانيت المنحوت، أثار انتباهي موديلاتها التي لم أرَ منها من قبل، بفضول نسوي سألت التشريفات: "من هو الخياط في بغداد الذي خاط الستائر". ببسمة لئيمة أجاب "ستائر القصر تخاط وترسل من قبل شركة أجنبية سيدتي، شركة كتانا".
لتدارك الإحراج سألت: أين المطبخ، لدي أواني طبخ خاصة بي، وجرار زجاجية، أسرع وأرصفها فوق الرفوف، هيا.

: سيدتي، المطبخ من هنا، هو مكتمل ومجهز للولائم الكبرى، عدا عن كادر مختص.

تتدحرج شمس بغداد في مدارها السماوي نحو حمرة خافتة بعد نهار مضيء لتنتهي كمصباح غرفة نوم. طرق الباب في تلك الساعة المغربية على غير العادة، أسرعت إلى طفلي ووضعتهما في غرفة النوم، وأقفلت الباب من الخارج.
: من؟

صمت مغلف بترقب أكرِّر: من من أنت، برزان؟ عدنان، والدي خير الله؟ لنصف دقيقة أصيخ السمع، ولا صوت سوى ضجيج الشارع من منبهات السيارات، وأحاديث المارة التي تصلني من خلف الباب الخشبي الداكن.
: سجود، لا تخافي افتحي أنا صدام.

لم أصدق نفسي، كيف خرج من الوكر وهو بحذر قبيلة من الثعالب، في ثوان كان يحضنني وفي ثوان أقل كان يستمع لنشيجي، مسح دموعي بصمت. كدتُ أن أقول له اشتقت لك أحبك لكن انتبهت، عدي الصغير بالغرفة لوحده.

: هلا بابا عدي. المناضل البعثي الأصغر في الحزب. حضنه ثم أعاده لي.

: أنا لا أخاف منهم، أنا أخاف عليكم، لكن اليوم والأعمار بيد الله قررت أن أخرج معكم، نأكل كباب في مطعم شعبي كعائلة ونتصور صورة، قد أموت ولا تحفظ ذاكرة عدي صورة لي معك. ها؟ ايش رأيك؟

أثارتني السعادة والفكرة، فتأنقت كبغدادية معلمة ومتعلمة في مدينة عريقة، كانت سيدتها زبيدة زوج الخليفة تحدد الموضة العالمية للبلاطات الملكية في العالم قبل ألف سنة، هل سأكون زبيدة يوماً ما؟ هذا السهم الأعمى المنطلق لقبة الكون، صدام. هل سيكون هارون رشيد آخر؟ هل سيكون ولدين. الأمين والمأمون. هل تعاد الحكاية ويذبح أحدهما الآخر؛ ليجلس على عرش بغداد؟ كم هو متطلب ومكلف هذا العرش. ثمة لعنة تصيب كل من يعتليه.

التقطنا الصورة بالكاميرا الخشبية، خزَّنت الكاميرة سعادتنا في النكتف وفي داخلنا. موعد الاستلام بعد أسبوع من الآن، للتحميض والرتوش. اختفى صدام بسرعة عند أول الطريق، وعدت لوحدي أحضن عدي، وساعات من السعادة الطارئة مع زوج كصدام.

أُعتقل صدام بعدها وهرب واختفى في وكر حزبي في حي اليرموك، وأعتقل وهرب وهكذا أنهى طفولة ابنه عدي بعيداً عنه. تعلق الطفل بي وبخاله عدنان. كان ذكياً ليفهم أن أباه يطارد حلمه، ولن يقف حتى يخنق أحدهما الآخر. كان الطفل واعياً أن أباه ليس له وقت ولا مشاعر ولا تربية. صدام لصدام فقط.

المخطوطة 5

منذ أسبوع وأنا مشغولة باكتشاف غرف ومخابئ القصر الجمهوري. الثلاجة الكبيرة ذات الأبواب الستانلس ستيل وأدوات المطبخ الغريبة، لم تستعمل هذه مثلا أو تلك من القطع؟ تجيب كبيرة العاملات هذه لفتح قناني الشمبانيا، وهذه السكاكين للكيك، وتلك للسمك، وهذه السكين لكذا وتلك لكذا. هذا الشوكة لهذا الغرض، وتلك لذلك الغرض، وما هذا العجين الغريب الداكن والمحبب القوام في الثلاجة؟ الكافيار سيدتي وما هذه؟ آه زبدة الكاكاو.. أنت غبية هذا أبيض اللون كيف يكون كاكاو هذا؟ عشرات الأطقم ومئات القطع. أحتاج لشهر لأعتاد المكان بعد أن كان مطبخي لا يتعد موقد نفطي، ودولاب طعام متهالك، وثلاجة عاطلة استعملها لتخزين البصل والثوم والخبز الجاف.

لم نكن فقراء، زوجي كان نائباً للرئيس البكر، ولدينا منزل جميل يعود لعائلة يهودية غادرت في الخمسينيات، ثم آخرهم في السبعينيات إلى "أرض الميعاد".

حين غادر اليهود العراقيون وأغلبهم أغنياء ورجال اقتصاد أمَّم العراق ممتلكاتهم، صارت منازل لرجالات الحكومات المتعاقبة حصراً.

كان صدام -والذي صار رئيس قبل عدة أيام- رئيساً رسمياً لجمهورية العراق، يبدو لي غير سعيد على غير المتوقع. طوال اليوم عيناه تقول إنه يفكر كثيراً، ورأسه مملوء بسيناريوهات ستنفذ حالاً، كما هي طبيعته الغير مترددة مهما كانت النتيجة.

: أبا عدي، ممكن تركز بهذا الكتالوك من شركة كتانة، أريد تغيير ستائر القصر الجمهوري للزهري أو المشمشي. ايش رأيك عزيزي؟
: كم أنت متفرغة لأمور تافهة. غيري ستائر. غرفة نومك فقط، ولا تعبثي بالقصر الجمهوري، هذا مبنى دائرة حكومية وليس شقة عريسين. : أريد أن يغسلوا السجاد كله، وأن يعيدوا تصميم الحديقة، انظر لدي رسمة ما جديدة لتنسيق الزهور. هناك وهذه الأنواع. . بالمناسبة أريد خياط فرنسي مقيم معنا ليصمم كل ملابس العائلة بحس واحد. هل تذكر عندما زارتنا قبل أعوام فرح بهلوي مع ولديها؟ تتذكر صدام؟ عندما طلبت منا أن نطرد الخميني من النجف؟ المهم هل لاحظت أنهم يلبسون من خامة قماش واحدة؟ الفرق التصميم، العمر، ولكن النمط ملكي مهيب. أريد خياط أحذية إيطالي خاص كذلك. آه، أريد مصفف عربي لبناني، ههه سأحتاجه يومياً، ولن يكن عملياً أن نعين مترجم في حالة اخترت مُصفف أجنبي. أريد.. آه بالنسبة للسائق والسيارة ما رأيك؟ قاطعني.. : افعلي ما تريدين. اتفقي مع كبير موظفي القصر الجمهوري، أنا مشغول. حسناً، أين عدي وقصي؟ هل جهزتهم ليأتوا معنا؟ قال وعيناه تبحث عنهما.

: إنها امتحانات المرحلة المتوسطة هذه الأيام، أريدهم أن يركزوا بالدراسة ولا يخرجوا، لا تدلعهم كما تفعل مع حلا الصغيرة أرجوك.

: آها. همهم. وهو يقف. صاح بصوت رجَّ الأبواب والنوافذ المطرزة بتيجان ذهبية.
: ويلاد. عدي، قصي تعالوا يابه بسرعة، لديكم مهمة مشرِّفة لتصبحوا رجالاً

حقيقين الليلة.

: صدام والدراسة والامتحانات؟ أردد وأنا أسير خلفه.

: ساجدة لاحقاً، لاحقاً.

هبطوا السلَّم قادمين من غرفهم في الطوابق العلوية.

: خيراً بابا. قالا معا.

: هلا هلا بأولادي الشجعان. ذراعاي وعيناي التي أرى به، ولا أرى غيرهما بها.

: شكراً بابا، شكراً بابا. ردَّدا معاً.

: يلا، سنذهب لحفلة في قاعة الخلد. عمو برزان سيأتي بمحمد ابنه لاحقاً،
يلا أولاد غيّروا ملابسكم وصففوا شعركم، سيكون هناك حلوى وألعاب مسلية وكاميرات تلفزيونية. يلا يلا. أولادي الأبطال، يلا يابه.
:هيه، هيه. تقافز الصبيان من الفرح.

حين عادا لم ينم عدي ليلتها، مشاعره مرهفة مستمدة مني، لكن قصي الأصغر من عدي بثلاث سنوات كان مستمتع "بصيد الخنازير البشرية" كما وصفها، ربما لأن عدي أكبر عمراً وتداركاً لما فعل مشاركة مع أخيه، وبأمر من أبيه وعمه. سرد لي عدي وهو محموم ما حصل.

"كنت أطلق الرصاص فتهتز يدي، يوبخني عمي برزان بنظرة حادة، أعيد الكرَّة. أصبت ساقين، رأيت عظاماً تتفتت، ولحماً كقطع العلكة يلتصق في الجدار، شممت رائحة الدم. يقول والدي صدام إني لم أعد نباتياً. ماما ذقت اللحم البشري لأول مرة، ماما غطيني، عيون الرجل الذي قتلته وهو مقيد تتقافز في رأسي، وتعض قشرة دماغي. كيف أطردها؟ كانت أفواه الذين أعدمناهم ملصقة بشريط حتى لا ينطقوا الشهادة، ويذهبوا مباشرة إلى النار، اعتقد هذا. قصي يقول لا

لا حتى لا يشتموا الحزب والثورة؛ لأنهم ساقطين وسفلة وأولاد قحاب.
: ماما، عيب، حبيبي سآخذك لطبيب الأطفال غداً. كنت قررت أن آخذه لطبيب صحة نفسية؛ ليتخلص من ذكرى أول عملية قتل، أو إعدام ينفذها وهو طفل.
: قصي يجيء معنا؟ سألني. أجبته متهربة من الجواب: إن شاء الله، لا أعرف.
لازال قصي يقص لرغد ورنا شقيقتيه ما قام به من عمل بطولي كارتوني، في مخيلته ربما هذا تمثيل أو مزاح، لا أعتقد أنه يعي ما يقول. تقززت شقيقتيه من حديثه، ومثلت رغد أنها ستتقيأ عندما أخبرها أن أحد المعدومين خرج الحال من خاصرته.

وجَّهت كل غضبي لبرزان عندما جاء صباح اليوم اللاحق.: كيف أقنعت صدام بهذا؟ وكيف وافقت أحلام على زج ابنكم محمد وهو أصغر من أولادي حتى. شاهدتك بالتلفاز تنهض وتخرج قبل صدام لتعد الأسلحة للأولاد ليعدموا رفاق بعثيين بعمر والدهم، أي جنون هذا؟ لا أعتقد أن صدام سيفكر بها لو لا تحريضك. أنت أقسى منه حتى. ما الذي تريد أن تثبته لصدام؟ أنك لا تنكسر مثله، ولا نقطة ضعف في قلبك، ولا حتى ابنك؟: محمد فعلها معهم، وأنا أفتخر به. غضبت أمه أحلام كما أنتِ الآن. أخوات طبعاً بكل شيء ههه، لكن أين الإشكال أم عدي؟ أولهم وآخرهم هذا "يكاونون" ويتصارعون ويذبحون مثل الرجال، الرجال ذئاب واحد يصرع الآخر بعرفنا العشائري، أما أن نسكن مدن أو قصور فهذا لا يعني النعومة، ونسيان التوجس والحذر، وشحذ الناب والمخلب لأي عدو، وإلا صرنا خارج هذا العز والقصور والأبهة التي تتباهين بها أنتِ وأحلام زوجتي. جاء صدام يسير بتمهل واسترخاء. يبدو أن كل قلقه وتوتره للأيام الماضية أُعدِم كما الآخرون هناك في ميدان رماية

بسماية. استل سيكارة الكوبي الطيب الرائحة، وانضم إلينا بالحديث.:
ساجدة تبغددت كثيراً ونعمت بشرتها وطباعها، لو سألت الوالدة صبحة أو العمات والخالات لزغردن من الفرح أن أطفالنا صارت رجال تذبح منذ عمر مبكر، لأُرضي والدك الخال خير الله أنا قتلت ناصر السعدون في تكريت بعمر أولادك الآن، وكنت لوحدي وانحبست، والتفاصيل معروفه لك. فما الجديد؟ تعلم القتل كالختان للذكور لا يُستثنى منه أحد.

: أولادي تربية بغداد وليس العوجة، هؤلاء ولد مدينة، ولن أسمح بتغيير طبيعتهم إلى ولد أرياف. الزمن اختلف برزان ويا صدام، هل تعيا ذلك؟

: لا لا نتفق معك ساجدة. ردَّ برزان.

: لكن تتقبل زوجتك أحلام تتجول معك بمكرو جوب، وأنكم تسهرون للفجر في نادي العلوية والسينمات؟ أمك، عمتك، جدتك كانت تفعل هذا بالعوجة؟ نحن ننمو بالمدينة وترف المدينة وحداثة المدينة، لا نعيش في قرية الشوي، أو صباخالعوجة، افهما.

: لكن جذورنا هناك، قوتنا بجذورنا لا بأغصاننا، لا تنسي هذا. ردَّ بصلافة برزان.

: يالله. قام صدام وسار باتجاه مكتبه لينهي الحديث.
في المساء دخل الغرفة متعباً صدام.

: مساء الورد على الحلوين.

تكورت على نفسي في السرير دون رد للتحية، لاحظ أني ما زلت غاضبة منذ حوارنا الصباح.

: يلا اضحكي، وانسي الموضوع.

: رجع عدي مصدوم، وملابسه مبقعة دم، وفي كل مرة يتحدث يتشنج وجهه، هل أنت مقتنع بهذا؟ أطفالي تدفعهم لحمام دم؟ وتريد أصمت؟ ضل صامت ويدخن ببرود لا يتناسب مع الاحمرار المتوهج في رأس السيكار، كل مرة يسحب نفس عميق منها.

: بالمناسبة لِمَ أُعدموا؟ هل الأمر يستحق أن تلطخ أيدي أولادك الناعمة بالدم؟

: خونة كانوا لنظام الأسد العميل. وإن كانوا كادر متقدم بالحزب "الكلب الذي يتبع من ينادي عليه لا ينفع للحراسة، والذي لا ينبح يذبح". ومن لا ينتبه مبكراً، ويحوز عصا طويلة تصل الجميع قد يندم لاحقاً، إذا ما تجرأت عليه الكلاب.

: افعل ما تشاء بعيداً عن أطفالي، صدام أرجوك استحلفك بالخبز والملح.

: أي، وبعد؟ .

وفي الثمانينات، مع بداية حربنا مع الغولة "إيران" كان أطفالي الذكور ينضجون جنسياً، حصل هذا لعدي أولاً، مهام أخرى ستضاف لرأسي المزدحم لمنتصفه بالغيرة على صدام، الذي بدت استفاقة جنسية أخرى تتصاعد في رأسه، ربما كمهرب من ضغط ممارسة لعبة الحكم هذه.

لي عيون مؤجرة، وأذان مسيرة تطوف هنا وهناك؛ لتجيء لي بكل واردة وشاردة عن زوجي كزوجي. لأكون حقيقية بعض هذه العيون ليست بشرية ولا إلكترونية، إنما ما وراء طبيعية.

هل جرَّب أحدكم الموت بالعسل. إحساس لذيذ وقاتل لشدة حلاوته. هذا ما يحصل معي الآن، لدي كل شي، وليس لدي شيء.

أول ما فتح عيني عدي على جسده هو الفيديو كاسيت؟ نعم هكذا. كان يحصل على كاسيتات مهربة للقصر بمقابل مادي مرتفع، أو

بمقابل التهديد للحرس، الذين كانوا في معصرة بين رغبة عدي المراهق، وأوامره وعقوبات والده التي أرحمها الموت.

كانت أم كامل حنا المسيحية إحدى موجهات ومربيات أطفالي، التي لا نخرج أو ندخل دونها، كمربية مسنة كان لديها الوقت والخبرة لتدير موضوع حساس كهذا، فعدي وقصي وبناتي يحترمونها قدر احترامنا لها ويطيعوا توجيهاتها.
كامل حنا الشاب ابنها الأكبر تربى مع ولدي، ولكن كان طموح أكثر مما يجب، فارتفع سريعاً كعمود دخان في سقف مدينة، ثم هكذا تلاشى مخلفاً مطراً أسود بللنا جميعاً، ولا زلنا نعاني إلى الآن منه.

كامل حنا تخصص بخدمة صدام، كونه المصدر الأعلى للصلاحيات والحماية والسطوة؛ ولذا خصَّص جهده لإسعاده بكل طريقة، وفقد بذلك صحبته مختاراً لولدي.

عندما شاب بفارق زمني يقارب الأربعين سنة يصاحب رجل ورئيس، فمليار علامة استفهام تزحف إلى الرؤوس والألسن؟؟؟

كيف ترى كامل حنا؟ سألت صدام مرة على العشاء. أكمل طعامه دون أن ينظر إلي. "كولدي" أجاب بعد برهة. سألت بمرارة "هل يصير الخادم ولداً بالتقادم؟".
دحجني بنظرة ثاقبة، ثم حول نظره عني و أكمل طعامه في صمت شاركته به جدران القصر والستائر والثريات البراقة فيما حولنا.

"حسناً، لن أتصرف بسطحية وأطرده قبل أن أسألك الموافقة".
"لا تستطيعين ذلك" ردَّ بحزم. "ولو خيرتك بيني وبينه" نطقت بآخر ما أملك في رصيدي من ورقة ضغط".

"تغارين من شاب، خادم كما تسميه"، ألقى الملعقة وقام "ما أقول لكي غير كلمتين، انضجي وكوني كفء لمسمى زوجة صدام حسين،

الشاب خدوم ومخلص، وهذه شهادة جدارة له، هل تعتقدين أني أعاشره مثلاً؟".

"حاشاك صدام لا لا أستغفر الله، كيف تفكر هكذا؟ قصدت..

"إذاً. تصبحين على خير، حماية، تعال". صفق بيده، بينما أسرع شخصين لمرافقته لخارج القاعة، وقد خسرت ليلة حميمية معه بسبب حواري هذا.
لا أشك بأن صدام يستخدمه فقط، مُؤكَّد، فنرجسيته تمنعه أن يهتم بأي كائن آخر عدا نفسه. هذا قبل أن يلتقي سميرة شاهبندر طبعاً، ثم إن كامل حنا بسن ولديه.

أستاذ أ. أ هل قرأت تاريخ خلفاء بني العباس جيداً؟ كوننا نحكم عرشهم الآن في بغداد. هل مر بك علاقة "الخليفة الأمين" بفتى، خادم نصراني اسمه "كوثر"؟
يا سبحان الله كامل وكوثر الاثنان بحرف الكاف ونصارى.

رد بتحرُّج ونحنحة : سيدة ساجدة، ولكن هل تعتقدين أن السيد صدام يماثل "الأمين"في هذا المسلك، أقصد "الغلمنة"؟

: لا، مستحيل. مجرد خاطرة، ربما لأني لم أفهم لم صدام متمسك به بشدة هكذا؟

: هو من يعلم ذلك ولا أحد غيره، أساله؟ هه

: يا حفيظ. هل تتمنين لي نهاية سجون في الرضوانية، أو أبو غريب سيدة ساجدة؟

: لا، كنت أمزح. من قال إنه سيسجنك؟ ستتلاشى إذا طرحت السؤال أصلاً.
قفزت إلى راسي حكاية قديمة، تسربت بسرية وتحفظ إلينا النسوة في منزل حاج خير الله طلفاح، سمعناها من خلال ثقوب الأبواب

المغلقة، بينما والدي يؤنب صدام لموضوعة كانت مستهجنة ومقززة لأسماعنا.

: صدام أنت ابن أختي وأنا بمقام والدك، احكي لي كرجل شجاع، ما علاقتك ببعض الأسماء الوسخة في الفضل وأبو سيفين؟ وما حكاية السهرات في بساتين الشواكة مع الشقاوات وال... استغفر الله، من اللوطيين والمنحرفين جنسياً هناك، علي ماما وكريم معلاك وجاسم جنية ووو..؟".

: "خالي. نحن نبحث في الحزب عن "زلم" بقلوب ميتة؛ لنضرب بها الشيوعيين ورجال السلطة، ولا يعنينا إن كانوا منحرفين أو أشراف.

: هل الحزب يكلفك أن تخالط وتوظف هكذا حثالات؟ هذه أفكارك أنت، ثم إن دراستك الإعدادية تحتاج لكل جهودك، أما الحزب فله رجاله، وأنت جزء صغير من تشكيلة هائلة. لماذا تسبق الأمور؟ ستسودهم يوماً ما فلا تخسر سمعتك ولا دراستك. ايش أقول لصبحة أمك؟ هل تريد تنكيس رايتي أمامها؟
: خالي أنا أدرس وأنظم فرق الحزب بنفس الكفاءة، وبخصوص الشقاوات والسهرات الليلية فكله نضال، وبالمحصلة هم أدوات وليس من تنظيماتنا، ولا يحملون شرف العضوية.

سألت عدنان: "أخي، ايش يقصد الوالد بالمنحرفين جنسياً؟ ".

كمَّم عدنان فمي بسرعة خاطفة "اشش هذه مواضيع معيبة لبنات العوائل، ساجدة انهي الموضوع، وامحي ذلك من رأسك، وإلا قسماً عظماً سيضربك الوالد بالخيزرانة.

ولكن حين تسيد صدام الجميع لم يعد محرجاً أن يفعل ما يشتهي، نصحه مرة رفاقه بأن يتجنب النساء والجنس والخمور، حتى يبقى قوياً بلا نقطة ضعف للذة عدا لذة السلطة. كان كامل حنا وزير

الرغبات الجسدية لصدام، تبين هذا يوماً بعد يوم. زوجي الرئيس أثخن بالسلطة وشبع منها، وها هو الآن يبحث عن سلطة على جسده الذي بدأ عصيانه مبكراً، ولا يستجيب لمؤثر خارجي جنسي كالسابق. يقال إن هناك حبوب ما لهذا المشكلة، ولكن الأبعد من ذلك هو فقدان الرغبة في الزوجة، وملل يتكدس من سنوات على أحدنا، لست أنا طبعاً وحاشاي من التفكير بهذا، أن يبحث عن وسائل أخرى ليطوي الزمن للوراء. ألح على صدام "عدي صار رجل، بلغ ماء الرجال". "على أحدهم أن يعلمه السبل الآمنة ويطلقه بعدها". "لا، علينا تزويجه، سجى بنت برزان وأحلام هي الأنسب ". يضحك عالياً. يرد بفضاضة.

"عليه أن يتدرب كرجل على المعاشرات، فهذا غير مخجل وسلوك تُقرَّه التقاليد والعائلة والقبيلة، وليكن تحت أعيينا". أعقبها بضحكة ماكرة "هاهاهاههه".

"لا، صدام، كيف تفكر هكذا، إذا ذاق الحرام مرة فسيستطعمه".

نيسان 1973

طارت عشر حمامات من على شرفتنا. حطت على شناشيل "الجوارين" أو قباب "أبو الجوادين" في الكاظمية. مرَّت على مئذنة سوق الغزل، وساعة الإمام الأعظم في طريقها عشر حمامات، أو عشرة أعوام طارت منذ على زواجنا، عشرة بحلوها ومرها. صدام يعلو كل ثانية في سماء المناصب حتى غاب عن نظري. صعوده فخرٌ لي. أنا هو وهو أنا. بالمحصلة سيعود ثمر كل هذا لي ولأولاده. الرجال هذه هي وضيفتها في الحياة، أن تزيح الآخرين أو تُزاح. بعبارة أدق أن تَقتل أو تُقتل. لا يخفى عليَّ ما يجتهد زوجي ليبقى ممسكاً بسيف القوة، ويبقى أعداؤه راكعين تحت قدميه، كما في جداريات الملوك الآشوريين في المتحف العراقي الشهير. كل هذه اللقى تؤكد سبعة آلاف مرة أن التاريخ مستدير، ويعيد نفسه بأدوات وأزياء ولغات مختلفة ولكن.. الموت، النصر، الأعداء، الرافين، السماء، الوجوه والخوف واحد.

خلال ذلك، صار لدي عائلة متناظرة، صبيان وبنتان، لم أتوقف فيها عن الإعجاب بصدام الزوج. العنيد والغير قابل للكسر ككرستال الحضرة القادرية. أحياناً يناديني بعدم لباقة أمام الآخرين بما لا أحب، حياته الخشنة المكتظة بأمور الرجال وعنفهم وسفالاتهم، أحياناً يفلت منه الدور فيعاملني كرجل. هذا يشبه النشاز والخروج عن تون المقام البغدادي.

ليس أحياناً، كثيراً ما خاطبني وخاطب بناته بصيغة المذكر. كوننا من تكريت المتاخمة للبادية الغربية، فهذا شائع باللهجة المحلية هناك، وأعتقد أن له امتداد في الجزيرة العربية لمن لازالوا يتحدثون اللغة العربية الأم النقية.

كثيرة هي المناسبات التي خفت بها عليه وخافـ بها علينا، هو يحسبنا واحد، أنا وأبنائه، لا يحب بالتجزئة ولا يكره بها. متأكدة أنه يحب بأيقونة هلامية مبتكرة من خياله، وليس لها وجود إلا في رأسه. خليط من قسوة العمة صبحة وصلابتها، وطموح والدي، وادعاء التبغدد عن عدنان وأشياء أخرى، يعدل رأسه كل هذا، ويحقنه ببراغماتية سلوكية، سوفـ ينتج إله مصغرـ بشوارب؛ يأكل الطعام ويمشي في الأسواقـ اسمه صدام حسين.

ربما أنه لا يحبني ولا يحب أولاده ولا جسده حتى بقدر ما يحب الفكرة الصورة، التي يحشد كل وقته وطاقته لصناعتها لتصير "صدام" الذي ليس كمثله شيء وكل شيء مثله في نفس الوقت. الناسخ والمنسوخ، الأول والأخير، الواحد والمتعدد، لذلك صقل واجهته الزجاجية للصورة الافتراضية، والتي تخطف الأبصار، وليكن ورائهـ ما ورائها.

لن يعلم بذلك إلا الله.

أين أنا من هذا؟ يحبني، يحب أولاده طبعاً، يحب العراقيين بشروطه. يحب العرب كمستهلك لصورته، كل هذا حسب مقاييسه، عدا عن الفكرة "صدام"؟ التي لا شك إنه يعشقها، ويسحقـ بلا رحمة من يفكر بخدشها.
لم أترك عملي في المدرسة، صوت والدتي ليلو يرن كمعدن في أذني "ماما ساجدة وظيفتك سلاحك وعزتك وكرامتك، لا تتركيهـ إلا براتب التقاعد، ولو كنت زوجة هارون الرشيد، والدك حُبس وبقيت بلا معيل كسرت الحياة ضهورنا، لو كنت أعمل لماكنت أصبت بالفالج من قهرتي وقلقي على تكاليفكم الحياتية ومستقبلكم، لا تتركي العمل ماما، الدنيا دولاب ولا أحد يضمن الغد. ولذلك وحتى وصدام نائب للرئيس، أو رئيس الظل كما يسموه فأنا أعمل، قد أتلقى تلفون في أي ثانية. كنت مقتنعة بأن صدام الصورة والنكتفـ لها عمر

افتراضي؛ لأن كثيراً ما صعد وهبط في الستينيات، ولن تنتهي منغصات الحياة. أفكر هكذا، ربما أتلقى تلفون في المدرسة.

: مرحبا، حظرتك ساجدة خير الله، تمام أمسكي أعصابك، قُتل صدام، أو جُرح في مواجهة انقلابية، البقية في حياتك. انكت الفكرة عن رأسي. ولكن لنكن حقيقين

ففي العراق السياسية سرك خطير، ممتع، ولكن مميت لأقل هفوة.

.....

لن يسمح الحاج خير الله طلفاح بذلك، لو يسمع به يقلب الدنيا على رأسنا ورأس الخلَّفونا. مهما كبرنا فنحن تحت جنح الأهل وقيم المجتمع والقبيلة. لكن أحلام وبرزان فعلوها سراً لتكون سابقة. الأمور التي تحصل في الخفاء ألذ دائما. حسناً، أتحدث عن أول دخلة لي للسينما، سينما أطلس في شارع السعدون. : تذهبي معي للسينما ساجدة؟ سألني صدام بثقة من يعرف الجواب بالإيجاب. كان صدام تغيَّر كثيراً بعد أن عاش في مصر، حيث النساء تذهب للمسرح والسينما بلا تحفظ. لدينا في العراق يحدث ذلك، ولكن بتشدد عالي ولفئة متحررة حصراً. ليس الجميع يحب ذلك لأكون دقيقة، فمثلاً لا اتصور العمة صبحة أو بدرة أو أمي ليلو يأكلن الفشار، وهن يجلسن في الصف الأول أو في الكابينات العائلية، مرتديات الشيلة المشرشبة على الجبين ومرددات "يابهيابهيابه " كلما قبَّل الممثل عمر الشريف فم ممثلة بحرارة ولذة. العائلة المالكة كانت لها سينما خاصة في القصر، لما لا نفعل هذا للحجيات ليتمتعن بأفلام فريد الأطرش وشادية؟ قلت هذا لاحقاً في القصر الجمهوري لصدام فزمَّ شفته السفلى المتهدلة قليلاً كمن ل للفكرة. سعيدة

وأنا ألج هذه القاعة المظلمة كأنها رحم، ممسكة بزند صدام الصلد كآلة مقاتل متأهبة للعراك إذا ما شاب قد اقترب مني. جلسنا في الصف قبل الأخير، بينما علا صفير استهجنته إحدى النساء بقربي، كان هناك عوائل بغدادية أكثر مما تصورت، فكرت ,ماسبب تأخر أمر دخولي السينما كل هذا الوقت؟ تعمَّد صدام هذا. لم يكن الفلم رومانسياً كما رغبت، كان فلماً هندياً تتطاير فيه الرجال كريش الوسائد بقدرة قادر أو قدرة الإله شيفا، بينما النساء بالساري الهندي يرقصن كل عشر دقائق، مهما كان الموقف ميلودرامي أو كوميدي.

نصف الفلم كان حماس صدام وإشادته بالقيم الهندية العراقية التي تتطابق في الدفاع عن النساء، وحب الوطن، وقهر الكبار، والصعود إلى السلطة والغنا بالذراع وبثوانٍ.

أكلنا كباب من رجل عرفه صدام، ربما رفيقه الحزبي.

: أهلاً صلاح عمر العلي، كبابك طيب، وأنا وساجدة سنتعشى من يديك اليوم.
مجاملة من هذا البائع الطيب لم يقبل أن ندفع ولا فلس. بعد يومين أُعتقل صدام.

موسم تشرين للانقلابات الحادة الباردة كحد السكين، ردة تشرين واعتقال البعثيين كجراد في حقل مغلق بجدران، عبد السلام عارف، الدجاجة العسكرية التي جلبها الرفاق من القن ووضعوها في السلطة في عروس الثورات ثمانية شباط، الدجاجة التي تصلَّب جناحها وتصقَّرت، بينما نما مخلب لها وناب وتحولت إلى آلة مضادة للحزب والثورة.

لا جديد، فمع صدام الباب مفتوح لكل العواصف الموسمية في أي ثانية من العام.

كيف تميز بين الملح والسكر- ماما؟، كلاهما مسحوق ناعم أبيض. كنت أعد كعكة ميلاد رغد الرابع، كان قصي يساعدني في المطبخ، يفتح علب مواد الطبخ واحدة بعد الأخرى بحثاً عن السكر، بينما عدي يلاعب أخته قرب السرير- سيزورنا اليوم الأب القائد الرئيس البكر مع ابنته هيفاء، التي يبدو أن هناك استلطاف ما بينها وبين أخي عدنان؛ ولذا سيكون أول الحاضرين لأجل هيفاء لا الكعكة وعيد الميلاد. الرئيس البكر منا أهل تكريت، ويفهم العرف الذي نجتهد أن نحافظ عليه، دماؤنا ونسبنا وزيجاتنا واحدة، ويندر أن تشذ حالة ويتزوج فرد منا من خارج العائلة أو القبيلة على أبعد تقدير.

سلبني صدام كل شيء وأعطاني كل شيء، بينما أعطى برزان لأختي كل شيء وأعطته كل شيء، أعطاها حباً حقيقياً لم يكن حتى والدي ليصدق ذلك حين تلجلج قليلاً، ولف ودار قبل أن يقول: خالي، أريد أحلام على سنة الله ورسوله. أمتصَّ برزان نظرة حادة من والدي خير الله، أعقب ذلك سكون، الكل يشتت نظراته إلى أ ركان الغرفة لكيلا تلتقِ الآخر، إلا أحلام، وقفت في مدخل الحوش البغدادي النصف معتم "الله يسهل" تمتمت بصوت يفترض أن يغالبه الخجل، غير أنه طار الصوت بين كرخ والرصافة لسعادتها- تحبه، كلنا نعرف ذلك، عدا عدنان كان متحرجاً قليلاً. "أنتم هنا كأخوتي، أتعجَّب أن تتطور الأخوة التي تجمعنا كوننا تربينا معاً جميعنا إلى علاقات حب وطلب زواج، أقصد..". صمت بعدم ارتياح.

: لكني وساجدة بحكم المخطوبين منذ كنا صغاراً في العوجة، هل تشعر بحرج أن أتزوج أختك، أنت ابن عرب وتفهم التقاليد، ساجدة، أحلام عرضنا وشرفنا. : هذا فهمناه بالنسبة لك صدام، وصية عشائرية وتقبلنا الأمر، لكن برزان. . ، أقصد كان ينظر لها ليست كأخت كما نتوقع، كان يعشقها. : أي نعم وهي تعشقه، دمها ولحمها،

ولو كانت لنا أخت وعشقتك كابن خالها وستراً لها كنا سنفرح، عدنان لا تخلط بين قيم الريف والمدينة، نحن لم نخن الزاد ونتعشق أخواتك اللاتي هن شرفنا كما هن شرفك، لازم تفهم قيمنا وأنت جزء منها، نحن لسنا بالعادة نتعشق بالمراسلة، وبعد أول حضن نشبع وإِنْتهى الأمر. : صدام، نصفك مناضل مدني لحزب عظيم عصري، ونصفك بعقال عربي وجلباب. : هذا تكامل، عدنان، هذا تكامل وليس مثلبة، أنا هنا وهناك وفي كل مكان صالح للغرس. : أنا من هنا من بغداد، وإن كانت عروقي تعود لتراب تكريت. : أفهم ذلك، يلا تعال بارك لابن عمتك برزان وأختك أحلام.

كانون الأول 1969.

تُلح أحلام على حمل حقيبتي اليدوية الجديدة نوع "جلد التمساح". ستذهب في نزهة مع خطيبها برزان.

: عيني ساجدة، برزان يريد مكان رومانسي للجلوس على كورنيش أبو نواس، بينما أرغب في مشاهدة فلم لفاتن حمامة في سينما الحمراء.

: لا يهم أين تذهبان بالنسبة لي الحقيبة لازم ترجع سليمة، ناس تتمتع وناس تصرف، أي هذا الحال تعالي يا ساجدة اشتري وغيرك يلبس.

: يواش يواش عيني نحن خوات، ونتدلل على بعض.

بين تمنع خفيف وقبول على مضض أعرتها الحقيبة، بشرط أن تجلب لي شيش كباب عند عودتها. أحلام أختي غير الشقيقة مازالت طالبة في الثانوية، ولها أحلام كاسمها أن تكمل كلية قانون، يشجعها برزان محاولاً أن يتمدن قدر ما يستطيع، على أن يحتفظ بشراسته البرية القبلية للضرورة، أو كواجب يعتاش منه كمدير للاستخبارات بعد أقل من عشر سنوات من زواجهما.

لست أنانية، ولكني أحرص على ممتلكاتي جيداً، وأحرص على التوفير من راتبي كمعلمة، العيش مع صدام هو وضع طن من البيض في سلة واحدة، والسير على سلك أملس. لا ثوابت معه ولا استقرار عائلي، اعتقال ومطاردة، سجن تعذيب، أو قتل حتى، من يدري؟، بعد أن بذر في جوفي شجرتي فحول وشجرتي إناث يكبران بالساعات، ويتحولان لشابين وفتاتين بأطوال شاهقة، وعقول عابرة لسنها الحقيقي نتيجة ما يسمعانه، وما يدور في المنزل من حديث رجال تمتهن السياسة والقوة والصرامة. وخطف الفرص وتعاطي السلاح، وامتهان الحزب والسلطة مبكراً.

قبل أن يغادرا يداعب برزان كرة شعر قصي، كان صغيراً وليس من العملي والاقتصادي أن يحلق كل شهر بمبلغ مرتفع، خمسون فلس، لذلك ارتأيت أن يطيل شعره.

: قص شعرك يا ولد، أنت رجال ابن رجال. قال برزان مازحاً بنبرة جادة.

لم يعقب صدام، كنا تناقشنا بخصوص شعر قصي الطويل، كنت أفكر اقتصادياً، بينما يحسبها صدام رجولياً، وهل يدل طول شعر الصبي على تأنثٍ ما في المجتمع؟، يتحسس صدام من ذلك، معاشرته الطويلة لشقاوات البغادة ,ولَّدت لديه فوبيا ضد "الغلمنة"، نسمع حكايات مخجلة لهذا الصنف من البشر، وكيف يورطون الصبيان معهم في عصابات الشقاوة، بعد أن يغتصبوا أحدهم جماعياً، لكن والدي خير الله وقف معي عروبياً على الأقل. يقول: إن اجدادنا يطيلون شعورهم ويجدولنه دليل الفحولة، وجزء من الوسامة في البادية. ربما هم يفكرون اقتصادياً بأن لا جدوى من تصفيف وقص الشعر تحت الكوفية والعقال في سهول وصحاري لا يعنيها كم أنت مصفف الشعر، أكثر مما كم أنت قوي بيئياً لتستمر ككائن بري.

ثم ما شأن برزان بشعر قصي؟

تموز 1968

تكاسلت عن الذهاب للمدرسة. رغد لم تنم الليلة الماضية، ربما غازات أو برودة الجو هما ما دفعها لهذا البكاء الرتيب، ثم هذا السعال الديكي الذي يوقظني من نومي الخفيف، كلما غطست به مرهقة من يوم مدرسي ثقيل.
أين صدام؟ سألتني أمي ليلو. لديه واجب حزبي، أجبتها، وأنا أدس حلمتي اليمنى في فم رغد. ليلو تتعمد هذا السؤال كل مرة؛ لتُلمِّح إلى وجهة نظرها القديمة بخصوص صدام، حين رفضت زواجي منه "هذا دخان، لا ترين منه إلا نص ليلة في الشهر، هذه متزوج عنفوانه وطموحه".

: ليلو، تعتقدين صدام يتزوج مرة أخرى إذا صار مهم؟

: لا، هذا سلكه ليس نسوان، سلكه سلطة.

جاء وطبان، أسرع للراديو: أم عدي، سوينا ثورة.

: أي ثورة؟ من أسبوعين سويتوا ثورة، ايش بعجل صارت ثورة مرة ثانية؟

: اليوم تاريخي، سبعة عشر تموز، أزحنا أعداءنا بلا نقطة دم.

تشرين الأول 1964..

لم أستسيغ برزان منذ جاءنا إلى منزلنا الأول، كان في الثالثة عشر، منتقداً لكل شيء وشرهاً في الأكل الذي أعده بشكل اقتصادي؛ لتوفير ما أستطيع من مال لأزمنة الشدة، وغياب صدام في اعتقال ما مستقبلاً. كان يدخل المطبخ بعد ساعة تقريباً ويقلي عشر بيضات وحبتين بصل، ويسخن أربعة أرغفة خبز، كنت اشتريتها لوجبة الإفطار في الصباح التالي، ولكن معدة برزان الفتي مثقوبة وتطلب المزيد. لا يبدو عليَّ الارتياح، غير أن صدام يشير لي بطرف عينه أن اسكتي. : عيب أن نكون مناضلين، ونفكر بالطعام كدواجن. : لكن. . . : اشش، أنا اشتري طعام إضافي غداً، إِنْتهى النقاش يلا. وردني أن برزان يحدث العمة صبحة والدته عن بخلي، أو انزعاجي من المصروفات الإضافية والضيوف، عاتبته.. : هذا رد إحساني لك. تحدث العمات عني بسوء. تقدر أن تدرس وتعمل، وعندها لا تحتاج لي ولا لغيري؟ صمت مؤكداً ما سمعت. يتجنب النظر لي، والرد كوني زوجة رفيقه وأخيه الأكبر، وبنت خاله، وأخت زوجة لاحقاً. عندما أُعتقل صدام، رغم حزني لترك منزلي، شعرت بالراحة من إطعام برزان ذو معدة الفيل هذا، في مساء ثقيل أخذت طفلي وسكنت في بيت والدي. لأزعجه وأنا أغادر: سنغلق البيت حتى يرجع صدام من المعتقل، لا معنى لأن أدفع آجار المنزل بلا رب منزل.

عدت لمدرسة الأصالة للبنين، استقبلتني المعلمات بابتسامات أولية, ثم بالأحضان وقبلوني. "مبروك مبروك عيني ساجدة".

: شكراً عيني ست افتخار ـ شكرا بنات. يارب الفرح للجميع والعزباء تتزوج، هههه. كنت، كسولة لأداء يومي الدراسي؛ بسبب التعود على الراحة لأسبوعين، أجازتني الست خيرية العمري لأن أشغل بعض الحصص بإخراج التلميذات للساحة ينالهم بعض ضوء الشمس الفاتر، شكرتها وأنا أقدم طبق البقلاوة لتلتقط قطعتها المثلثة منه، "سأكمل الدروس كما هي، ست، أخاف التعود على الدلال، هههه". ابتسمت لي "عفارم، ست ساجدة، ياريت يسمعن البقية كلامك ويلتزمن".

قهقهن وهن يذهبن لدروسهن على وقع الجرس الحديدي، "حصلنا توبيخ بسبب صدامك هذا" نبت سعاد مازحة، وقف الفراش عبود متكئ على مقشته عند باب الإدارة، رجل مسن بكوفية مرقطة بالأسود والأبيض كما أهل الجنوب في العراق، يسكن مدينة الثورة، ويعد من "الشراكوة"، "شايفة الخير ست". "أشكرك عبود عقبى لبناتك هدية ونرجس، أدخل للغرفة أخذ بقلاوة".

: صار ست، الله يوفقك ويرزقك النسل الصالح.

في الصف، حييِّني التلميذات، كان تسرب لهن سبب إجازتي، ابتسمن كمن يفهم ما حصل لي من تغير بايلوجي بخصوص العذرية، ماكرات بنات بغداد، وإن كن صغيرات، "ست، مشتاقين لك، أين كنتِ؟". "مسافرة، يلا نبدي الدرس بنات. انهيت سيل تساؤلاتهم البصرية الغير بريئة هكذا.

1962 ايار.

احتفظ برسائله التي تأتي سراً في معاطف بعض الرفاق الحزبيين من القاهرة مروراً بالشام، يالله كم يتطلب ذلك من مجهود ووقت وانتظار؟ أضم الرسالة إلى صدري كمراهقة و"أتمزمز" بتناول حروفها ببطء، حتى لا تنتهي لذة الرغبة في هذا الرجل جسداً وذاكرة وشخصاً. لن أورد نصوص الرسائل، فهذا عسل خاص لن يشاركني به أحد لئلا ينتهي، أو يعرف الآخرون مذاقه. العائلة تقول أنتم مخطوبون من الثالثة من العمر، شكراً لهم. أنا موافقة على هذا، وربما كان هذا أفضل ما يهدى من قبيلة لشخص. الحب النامي من خلال قفص التعليمات العائلية كان يخضر وينشط حتى تجاوز القفص. ربما معاشرتنا لصدام الطالب في المنزل هو ما عزَّز هذا، أقصد لو لم يكن معنا في بغداد لسنوات لما تحمست لوصية العائلة في الزواج منه، وربما لن أوافق كأنثى متشبعة بجو بغداد المتمرد. إذاً غداً ستتزوج أولى بناتي، رغد. سأصير جدة، ابتسم لنفسي في المرآة المُؤطرة بخشب السنديان. "الله يسعدها، بنتي كبرت". أفكر مع نفسي، وأنزلق بالذاكرة إلى يوم أُبلغت من الأهل أن صدام خطبني وسنتزوج.. بالمراسلة. الزواج المقنن قبلياً وعائلياً، مع طيف حب خفيف لتكمل الصفقة. رغد في عمر الخامسة عشر وحسين في أوائل الثلاثون. هل سينجح هذا؟ : تحبيه ماما رغد؟ : طبعاً رجل وسيم ومن دمنا ولحمنا، وله مستقبل. : انتبهي رغد، لا تسمعي صدام أباك هذه العبارة، المستقبل هو ما يقرره أباك صدام فقط. : لا أفهم ما تقصدين ماما، قصدت سيترقى بالجيش والسلطة تحت إمرة والدي.

: حبيبتي أنا أقرأ رأسك جيداً، لن يكون حسين كامل نسخة من صدام حسين، ولن تكوني ساجدة طلفاح، طموح حسين أو طموحك يجب

أن يحد بسقف عزيزتي، وإلا ضغط هذا الحلم إلى الأرضية وربما تحتها. : هذا مبكر جداً ماما. أرف بشرود: ولكن قد يحصل. : طيب هل أنت موافقة؟ ترددت وتمنعت عن الإجابة، إلا أنها وريثة دهاء أبيها. أضفت بانزعاج: حسناً يبدو أنك موافقة. بالنسبة لي فأنا لا أرغب أن تتزوجي من رجل مدني يعيش طويلاً لا يعيش كثيراً. يعيش أفقياً أكثر مما يعيش عمودياً. فهمتي ما أقصد؟

لم يكن مفاجأً بعدها أن يغضب برزان وأخوانه سبعاوي ووطبان. وألقوا باستقالتهم التي تقبلها صدام، وهددهم خطياً وشخصياً أن لا يقتربوا من عائلته وسلطته، وأي شعرة من كيانه الهائل.

: لماذا؟

: العمة صبحة قننت زيجات "البنوات" من "الويلاد" منذ البداية. وعندما لم ينفذ صدام الوصية حدث ما حدث، وانتهت العلاقة أو فترت بين الأخ الرئيس وأخوته الغير أشقاء.

آب 1962

: تلقيت رسالة جديدة من صدام صباح اليوم. جلبها لي رفيق حزبي التقاه بالقاهرة، يسلم عليكم واحداً واحداً، أتصور ليس والدتي ليلو من بينكم؟؟ لازال يشير بحنق لرفضها زواجنا، خاصة الفكرة التي عرضها عليَّ مؤخراً، الزواج ورقياً؟

: وعليكم السلام. هل أوصلوها لك في المدرسة؟

: نعم "يابة". بنتك صارت مناضلة بعثية وإن لم تنتمي، صدام أخبر رفاقه أني بنت خاله وقسمته ونصيبه من أيام الابتدائية.

ردت والدتي ليلو: آه، كأنك فرحانة ساجدة؟ عيشوا وشوفوا بعد وبعد من صدام وأفعاله.

لم أكن أتصور أن أتزوج هكذا في يوم من الأيام، أعني اتخيل نفسي كالأخريات أمام القاضي الشرعي أو الشيخ الشرعي، يسألني هل قبلت صدام المجيد زوج لك؟ أصمت، يكرر عليَّ، أرد في الثالثة، نعم. تنطلق الزغاريد بعدها من صويحباتي المعلمات وأهلي.

ليلو على حق، تقول إن هذا فأل غير حسن، سيكون زواج على فراق كما عقد على فراق. "يابة", عدنان يشجعني على القبول بهذا العرض، يحب صدام حتى أكثر مني. لا أريد أن أثقل عليه بغربته، سأتزوجه بطريقته بالمراسلة، ليكون الله بالعون.

"يا بغداد ثوري ثوري خلي قاسم يلحق نوري". 8 آذار 1963 لم يتوقع حتى أكثر المتفائلين أن ينتهي الزعيم عبد الكريم قاسم في ساعات "حلبة شاة" قال والدي خير الله مستبشراً فرحاً، وهو يمثل تلك الحلبة بيديه... "هكذا..." في الهواء. :كان الرجل قوي. أي قوة أزاحته برأيك؟ : فلتكن أي قوة. الشيطان نفسه، المهم لا شعوبية بعد اليوم. والدتي ليلو غير سعيدة وقطعت صيامها لمغص معوي

أصابها. توقفت الحركة لأيام في بغداد عدا الحرس القومي يجوب الشوارع ليلتقط الشيوعيين. يعتقلوهم أو يعدموهم. "قد يكونوا أعدموا زميلي المعلم عماد القاضي؟" هكذا خمنت. نجحت عروس الثورات وعادت الحياة لسياقاتها المنهكة نفسها. مازال دجلة يجري، والباعة ينادوا على بضاعتهم، والنسوة تتشاجر في الدرابينوالعگود مع بعض، والأطفال تلعب، والرجال تذهب للعمل، ونسي الجميع أن كان هناك زعيم أو تناسوا اتقاءً للمشاكل وجلب للسلامة. مات الكثير من أنصاره في الشوارع. أعدموا من أمسكوا أو عذبوا على أقل تقدير. ست نجاة حاولت رفع صورته من الصف المدرسي. كان يبتسم للصبية وسدارته تميل جانباً. حتى بعد موته كان يبتسم في الصورة. بكى الطلاب الذين أحبوه، ورفضوا أن ترفع صورته من أعلى السبورة. : حسناً. هذا أمر الثوار وليس قراري يا تلاميذ. قال أشجعهم: ست نحن نحب الزعيم. ابقي الصورة وألصقيها بلاستر على وجهه. أرجوكِ هو مثل أب بالنسبة لنا. بابا يحبه أيضاً؛ ولذلك هو معتقل في قصر النهاية، وربما لن نراه مجدداً كما تقول ماما.

سيعود صدام اليوم من مصر، سيصل إلى منزلنا بعد ساعة أو يزيد قادماً من القاهرة عبر دمشق جواً، فكرت بتوجّس "كان عليَّ أن أبقي عمتي بدرة على الأقل لخبرتها بهكذا مواقف". تجربتي الأولى بعد مراهقة عادية. القصص الجسدية السرية نفسها لكل فتاة مراهقة بلا شريك بالجسد والمشاعر. سيلامسني الليلة، بجسده الجائع والمتعب من اغتراب قاهري قهري لسنوات، هل ذاق نسوان (عرائس) النيل هناك؟ من يعلم، أنا الآن زوجته على الورق، وأمام الشهود ومحضر الله، استقيتُ من عمتي بدرة وعمتي صبحة بعض أدبيات الجنس، كنَّ تقليديات وغير واضحات أو نافعات لمن تربت في مدارس بغداد، في زمن مختلف وجغرافية مختلفة عن بيئتهم الريفية المغلقة، والتي يتم فيها كل شيء في الظلام وبشكل آلي. "إسقاط فرض" فلنقول لا أكثر ولا أعتقد أنهن يصلن الذروة مع رجالهن، كيف والطرفان يمارسان الجنس بملابسهما كاملة؟ متوترة؟ نعم، لم أرى صدام منذ تلك الليلة. : كان عليه أن يغادر، يهرب بعد أن أدى ما عليه، وتلقى رصاصة في ساقه اليسرى ثمن لبطولة ستخدمه في الترقي في الحزب، وإن كانت حدثت مصادفة، حيث -وكما أخبرني يومها- لم يكن عليه أن يجازف في الهجوم. كان دوره أن يحمي المنسحبين. لم يسلحوه حتى، ولكنه وليدخل فقاعة اللحظة التاريخية التي لا تتكرر للأبد، عت سلاح أحدهم وأطلق رصاصات على سيارة الزعيم في ليلة حالكة في شارع الرشيد وسط بغداد. هذا القفز للأحداث هو الفارق ليصنع التاريخ. الجرأة فعل لحظي، أما التخطيط والتفكير كثيراً لفعل هذا فهو عجز وكسل كما قال لي صدام. بعدها وبساق جريحة كان عليه أن يهرب إلى تكريت أو شمال العراق، لا أعلم المهم يختفي فما فعله مدان قبل أي محكمة شعبياً، حيث يعشق

الملايين الزعيم قاسم، وقانونياً فالتآمر والشروع بالاغتيال حتى لو كان لفرَّاش في "مصلحة حكومية" عقوبته الإعدام.

لملمت ليلتها الشاش والقطن المبقَّع بدم داكن، كما لو قهوة سكبت فوقه وجفت، حرقت في "تنكة" صوره مع فؤاد الركابي، وبعض رفاق البعث ومخلفات جرحه، عانقته كحبيب وزوج مؤجَّل، وسمحت له بأن يتلاشى.

كنت أخشى عليه لأن أعرف نهاية القصة، سيكون لي وحدي، سيرفعني معه لنستوي على عرش بغداد. العهد الذي يتداولنه العمات والخالات سراً بهمس مشفر ينبأ بذلك، خبرتني عجوز ذات ودع تسيح قرب خرائب قلعة تكريت، نفحتها حينها بربع دينار، قالت، ستلعبون في الأرض، وتبطشون بعز بعدوكم، وسيصيرك الله يا ساجدة أم لشبلين جبارين، تهابهم الأرحام وما حوت قبل الرجال، ساجدة سيخلع عليك الله حلل "زبيدة" ملكة الدنيا، ستغدين أم الليثين الأميرين.

: ههه، يا امرأة بربع دينار منحتني عرش بني العباس. لو أني نفحتك ديناراً كاملاً هل ستفتحين لي قلاع أوربا؟ ما علينا، فلنحلم، وهل للحلم كون يتسع له؟

ساهية فيما تقول العجوز. يرن في رأسي صوت.

: صدقي "الهامسات". ومنهن هذه العجوز، صدقي الحلم فيصير العالم تحت

إبطيك.

يا الله لم أكن أعتقد أن الحلم خطير هكذا، ومتطلب حد أن يلتهم آجالنا وآجال أجيالنا.

ساق هذا الحلم صدام لتغريبة مصرية قضمت أربع سنون، وانتهت بالزعيم جثة لذيذة لسمك دجلة ودولته دالت لغيره، لرجال من صنف أبي وأخي وزوجي.

"صدقي الهامسات، صدقيهن ساجدة".

{ولتعلون بالأرض علواً كبيراً}

وصل أخيراً، يبدو مرهقاً، جسده نحل كثيراً، زادت نظراته حدة وسرعة، لا تستقر كقطٍ مستفز إثر إطلاقة، جال في المطبخ "تبحث عن.. "رد سريعاً "مصدع، قهوة مرة إذا موجود". "حاظر"، أرد وأنا أجتازه باتجاه رفوف المطبخ، أحتك به لضيق المسافة، أشعلني ذلك، بينما لا أرى شرارة حتى من جانبه.
بعد القهوة، التي تعلَّم شربها من المصريين، أستحم ونشف جسده الحنطي جيداً، ليس صدام الذي أعرفه، أو أحتاج لتحديث مشاعري اتجاهه، كم تقسو الغربة على الرجال فتميت قواهم الحسية بالآخر، تثلج ذاكرتهم حتى إشعار آخر، أو دفء تجود به الفرص المتوقعة.

: "هذا كل ما لديكِ من أكل؟ جائع ويمكن أن ألتهم قطيع خرفان براعيه دفعة واحدة".

: بالعافية، عيني، بالعافية، خير من الله، هذا شيخ محشي وهذه كبة برغل، هذه دليمية، وهذه. . . قاطعني مازحاً.

: هه شيخ ومحشي، فعلاً مشتاق للأكل العراقي، بعد سنوات الفول والطعمية والكشري. امتلأ وجهه حياة وشبع.

: بالعافية أبوية، بالعافية. أردد ميكانيكياً.

جلسنا بعدها، شربت شاي عراقي مهيل، بينما دخن سيجارتين، وطلب قهوة مرة مجدداً، أعددت نفسي كعروس، طقم نوم أبيض مشغول بزهور وردية ناعمة، تعطرت بياسمين وتكحلت برسمة عين

كبيرة تسمى "البلابل"، اندس قربي في السرير، كان مرتدياً بيجامة مقلمة أزرق وأبيض طولياً، أنا من اشتراها له لهذا الغرض، أقصد..، تم كل شيء بسرعة، كان عطشاً لجسد أنثى، أي أنثى، أنا أو غيري، بينما أنا محرزة له بمشاعري وقلبي وجسدي، أحبه ولم أقنع بقصر زمن ما حصل سريرياً عندها، لازلت متوهجة للمزيد، بينما توهج هو وانطفأ بسرعة كعمر سيجارة.

نام عميقاً، في بطن محيط ربما حتى أني لم ألحقه لىهذا العمق من النوم، خزنت مشاعر لليلة قادمة، فرصة أخرى غداً، من يصبر؟ حضنت رأسه على صدري، شممت تراب المنفى المصري في شعر رأسه المجعد، يقال إن من يشرب من النيل يعاود العودة إليه، طردت من رأسي هذه الفكرة وابتسمت بسكون وحميمية ونمت. في الصباح الباكر الذي لم يعد باكراً بالنسبة لي، أعددت إفطار من البيض المقلي بالدهن الحر وباقلاء وخبز، هذا لصدام وبالنسبة لي قيمر عرب ومربى خوخ، شاي ساخن طبعاً وبالنعناع بالنسبة لي، وقهوة عربية "قومية" كما يسميها صدام له، "سجود، لا تخلي سكر، حليب فقط". "صار عيني" تصلنا نسمة صباحية باردة، محملة بتموجات صوت سليمة باشا مراد وهي تعلو لسماء وقباب بغداد بأغنية "نوبة مخمرة ونوبة مغشاية" جاءت من شرفة "شنشول" الجيران، الباعة المتجولون، ونساء القيمر، وفاخت بغداد الخرافي يتقافز بين الشناشيلوقاشاني القباب الأزرق، "جيه مالي والي، بوية اسم الله" يردد صدام بعين نصف مغمضة مع سليمة باشا في أغنية أخرى، تخترق نوافذنا وتنتشر في بيتنا.

: كم يوم مجازة ساجدة؟

: أسبوعين، عيني، أسبوعين عسل. وقرصت زنده المشعر بغنج. نظر إلى موضع القرصة ثم إلي، أراد أن يقول، غير أنه عدل من

رأيه، لا يحب الدلع النسوي، ويعتقد هذا يطري روحه الجافة، ويميت حدة نصاله الباردة.
"عيني ومي عيني يا عذيب يا يابة" أغنية أخرى وأخرى وأخرى، صدام يفلِّي الجرائد، سألني "هذه قديمة، أين صحف اليوم؟".

: عدنان لم يجدد الاشتراك. طرق الباب بتسارع، قفز صدام جهة النافذة، وجل وترقب طلى وجهه، ابتسمت. :يواش، يواش، أنت بأمان، إِنْتهى زمن المطاردة، إِنْتهى زمن قاسم، هذا ولد يبيع الحليب في الباب، لا غير.
أقول وأنا أفتح الباب لأتناول قنينة، وأُسلِّم الصبي خمسة أفلاس.

تشرين 1963

هجرت منزلي في منطقة راغبة خاتون، كنت أدفع إيجار منزل فارغ، عدا عن صبي في الثالثة عشر ينام فيه ليلاً اسمه برزان، شقيق صدام من الأم العمة صبحة من زوجها الثالث، منزل أهلي، غرفتي، أمي ليلو، والدي وأخواتي من زوجة أمي كنا نعيش الترقب، كل يوم تعيد الحاجة ليلو علي موشح "قلت لك، صدام لا يصلح زوج ولا بطيخ، أنت تعرفيه أكثر مني، هل أقول أكثر، ساجدة آخ من رأسك اليابس".

تعرف أمي صدام، ينقل لها نسوة الزقاق وشايات وأسباق صحفية عن تحركاته قبل أن نتزوج، علاقاته بشقوات الفضل، وحكايات في أروقة "الشيخ عمر" وليالي نصف مقمرة في بساتين الشواكة، وحكايات الملاهي والعنف ونزق الشباب في ليل بغداد العباسي الأزلي.

لكن قلبي أطاع القبيلة قبل عقلي، دستور العائلة الغير مُنزل، والذي يوجب خلط دماءنا ومنينا ومصائرنا للأبد.

بعد أقل من سنة، ها أنا عزباء متزوجة من جديد، أحمل صغيري بين المدرسة والسوق وزيارات السجن، ها هو زوجي العزيز يسحلني معه في اهتماماته، يسحل ابننا الصغير ذو السنة في العمل السياسي، تهريب المنشورات داخل حفاظته عدي، أبتسم لنفسي عندما أتوقع أن تكون مبادئ الحزب وتوصياته لصدام تصل غالباً رطبة ببول عدي الطازج، أو تكون بزازة الحليب قد خالطت محتوياتها مع الورق الأصفر المطبوع يدوياً؛ خشية أن يتعرف أحدهم على خط رفيق ما إذا ما كتب بيده. قلت مرة لأبي خير الله:

"أنا متعبة.. يابه أنت السبب؟"، ولأجيب على نظرته المتسائلة "كل ما زرعته من حب السياسية ثمر، في رأس صدام ورأس عدنان". "وأنا فخور بنتي، هذه فخر لبيت المجيد". "لكنك فعلت هذا انتقاماً لجرحك". سحب نفساً عميقاً من سيكارته "أكملي" قال بعيون مُسلَّطة على كلماتي التي لم أنطق بعد "يابة السياسة سبب طردك من الجيش، وسبب لثقل الحياة والتقشف وشلل أمي، وسبب كل تعب وهم وغم".

"نحن رجال ساجدة، عندنا قضية". "وحياتنا العادية الأسرية؟ ومتطلباتنا اليومية؟ هل لازم أن نفتح كل هذه المحاور ونشتغل عليها بنفس الوقت؟". ألقيت جملتي وأخذت عدي للحمام، كان يملأ البيت بكاءً بسبب التسنين، وكانت حرارته تزداد مع توغل وتغول شمس بغداد أكثر وأكثر في سماء ساخنة كمقلاة على النار. ندهني والدي "اسمعي ساجدة كل الحكايات العظيمة وسير الرجال الأشداء تبدأ هكذا، ثم هوب قفزة للأعلى، أو ميتة مشرفة مريحة ومُحرِّضة للقادم". وأشار لعدي، "ليستمر وإذا أخفق -لا سمح الله- يأتي اللاحق، هذه العائلة يجب أن تؤدي دورها، صدقيني سيكون هناك صعوبات، ولكن الثمرة ستكون القصر وبغداد ومن عليها". "مت يا حمار.. آسفه يابة" أرد، أو غير آسفة، فعلاً يحتاج أحدنا صبر الحمير ليحصل على ما يدور برأس خير الله والدي، قلت لنفسي.

"خير ياساتر"، كانت الست وفاء تبكي جالسة على الكنبة في غرفة المعلمات، بينما تحلقن حولها بعضهن، يطبطبن على كتفها أو يمسحن دمعها، الذي كسح كحل أسود معه إلى أسفل وجهها المستدير والدقيق التفاصيل ببراءة.
"أستاذ عماد، خطيبها، أُعتقل البارحة، ربما أخذوه لقصر النهاية، رجال باللباس الأسود، حرس قومي، مسلحين، عماد يا عيني"، نشجت كلماتها وسحبت رطل مخاط لتكمل بكائها. أواسيها:

"اصبري، صدام اعتقل في معسكر الرشيد، ليس كل معتقل يذهب لقصر النهاية أو يقتل، ربما شبهة شك وسيعود إليك الليلة". كفت عن البكاء وكأنما أحدهم وعدها بأن سيخرج الليلة فعلاً. مسكينة، في الاعتقال والسياسة لا فرق بين الناعم عماد والخشن صدام، ولا فرق في النوايا، أو العقيدة، أو الشجاعة والجبن، أنت مُسيَّس إذاً أنت معتقل أو مقتول.

أسحب نفسي للصف لأباشر الدرس.

حدثني لاحقاً صدام عن عماد القاضي، قال

: نعم التقيته في السجن، تعرفينه طبعاً.

بتلعثم: معلم معي في المدرسة، ايش جاء به عليك.

: لم أقل إنه مدير المطار، طبعاً معلم. قال بغيرة رجولية ظاهرة وانزعاج.
ثم أردف: الغريب أنه كان طيلة فترة السجن يراقبني كعدو له أو منافس. هل تعرفين السبب؟

: ايش عرفني؟ لماذا لم تسأله؟ أرد وأنا أهرب من عيون صدام إلى غرفتي.
: غير مهم، ربما لأننا مختلفين عقائدياً هو شيوعي وأنا قومي، على كل حال أتمنى ألا ألتقي زملاءك في السجن في المرة القادمة، فهذا يحرجني ويحرج عدنان كذلك.
: صار. سألتمس الحاكم العسكري أن يحبسكما في مكان، وزملائي في مكان مرة أخرى.

: يلا، انتهينا. لا داعي للنرفزة والاستهزاء بما أقول.

: يعني غير مقبول أن تقول إنه يحرجك أن تذكر زوجتك في السجن، بالنسبة لعدنان هو يفتخر بي كأخت ومعلمة كما كل البغادة المتنورين. صدام أنا شرف لمن يعرفني، ولست عار لأحرجك كما قلت.

: ساجدة كفى. قلنا انتهينا وأنا اعتذر عن سوء التعبير. أم رأس، خليني أبوس رأسك كلما تغضبي تصبحي نسخة من "وحيدة خليل" المطربة، ها هاها.
هرب صدام من السجن. فرحت قليلاً، ثم تذكرت، لا فرق، لن يعود لمنزلنا في راغبة خاتون. لجأ إلى وكر في منطقة اليرموك، عليك أن تقنعي ساجدة، على الأقل لن تكوني مضطرة لزيارة دورية للمعتقل بحفاظات عدي الطفل الملغمة بالمناشير.

خرج عدنان من المعتقل، كان مع صدام، خرج مهشم الجسد؛ بسبب "العراكات" المتكررة بين الشيوعيين والبعثيين، لم ينم ليلة واحدة في السجن، خمنتُ هذا من هالات داكنة حول عينية كمؤخرات القدور، عدنان مؤمن بصدام أكثر مني، يستمع لكل رغباته وينفذها تحت مخدر عيني صدام العسليتين، لو أني لا أعرف صدام لقلت إنه يحب عدنان أكثر مني، لكني أعرفه جيداً، صدام يحب صدام، نقطة إِنْتهى السطر.

أيتها العرافة أخبريني أين ستنتهي هذه الأخوة بين أخي وزوجي؟
{إنك لن تسطع معي صبراً..}

"ماذا؟ كوني كريمة وافصحي أكثر".

{هذا فراق بيني وبينك..}

"متى"؟ {والسماء زيناها بكواكب}

"السماء، ما قصدتي، يفترقان هناك؟ أم ماذا؟ أجيبي إني أدفع لك لهذا، لتجيبي لا لتصنعي لي دوامات تنبوئية ولفضية، وتدفعيني في جوفها، هيه أجيبي".

. . ..

سمعت أن عماد أخرجوه مكسر الأطراف، وقد قلعوا أضافره وعينه اليمنى، سيبدو كسيارة فولكسواكن "بتك" مصباح أمامي واحد.. هه خجلت من نفسي، كيف أسخر من هذا المسكين هكذا.

خطيبته المعلمة الجديدة "وردية" كانت منهارة، قلقتُ على صدام، هذا عماد الأليف وحصل له ما حصل، ما نهاية صدام إذاً وهو سنور بري لا يمس له شارب، يطارد أحلامه بالناب، ويطارده الآخرون بالرصاص.

كنت حبلى بمولود جديد، يتحرك بنشاط، هذه قدمه أمسها من جلدة بطني، أو أني أتخيل هذا، تقول عمتي صبحة: "ابنك منبع رجال". "تتوقعين أنه ذكر؟" أسألها "تذكري العارفة، تذكري الحلم، الزبيدة، الأمين، المأمون، عرش بغداد".
لا أتكل على هذا خصوصاً وصدام ليس من دم ملكي، "أقصى ما سأصير مديرة مدرسة أو معاونة". "لكن صدام سيملك البشر والطير والشجر، صدقي صبحة ياعمة".

عندما ولدت قصي كان صدام ينمو حزبياً بتسارع واطِّراد.

المخطوطة 6

"يامن تعب، يامن شقى، يامن على الحاضر لقى" زكية جورج من الگرامفون بلوعتها في أغنية تحمل الصدفة مسؤولية نجاح وإخفاق الجميع. في يوم بغدادي أصيل في 1959 أكدته رائحة الطعام المتبل المتبادلة بين شناشيل العكود، وأنين الفاخت المكتوم فوق تيجان النخيل المتمايلة بغنج. قال والدي بشعور ملأه الرضا لما حصل: المهم وصلوا إليه، إن قتل أو جرح لا فرق. كبرياء العسكري كشرف المرأة، إذا انثلم بعضه انثلم كله. أردف بصوت عميق وثابت، إلى أن تتضح الأمور سيكون علينا البقاء في المنازل بعد السادسة مساءً بأمر الحاكم العسكري. علمت من الراديو مسبقاً بأن الزعيم عبد الكريم تم اغتياله، ولا أحد يعرف حي هو أو ميت.

رغم أن والدي نهرها بعصبية إلا أن والدتي ليلو، التي اعتادت مناكفة والدي بأي مناسبة كانت، دعت للزعيم بالسلامة بعد أن سمعت "مائدة نزهت" تغني في الراديو. "الحمد لله على السلامة قايدنا ترف أعلامه أقوى من رصاص العدوان.." تساءلت من هم العدوان؟ الزعيم له أعداء أعرفهم، مثلاً والدي الحانق عليه بسبب الحس القومي، تم فصل والدي من الجيش لأسباب سياسية في عهد الملك فيصل الثاني، في حملة شملت كل من له ميول هتلرية، لكن ليلو تعزو فصله لله وحده كعقاب؛ لأنه تزوج عليها الريفية الصغيرة، ولن تنسى ذلك للأبد.

ذهبت صباحاً لمنزل جارتنا أم نصيف أفندي، سيدة سبعينية بيضاء جداً قلباً وقالباً، ابنتها ليلى زميلتي في الدراسة منذ المتوسطة، ساعدتهم في تقطيع الخضار، ونحن نجلس على حصير من الخوص

من مشغولات الريف العراقي، والد ليلى شرطي لذا منزلهم أكثر معلوماتية من منزلنا، هنا يمكن أن أجد أجوبة لتساؤلاتي.

قضيت نص اليوم معهم، وفي الثانية ظهراً تناولنا الغداء؛ من مرق العدس والرز العنبر وسلطة اللفت والطماطم والخل. وصل والدهم بملابسه الرسمية حوالي الساعة الثالثة عصراً، يرتدي بنطال قصير وقميص معرق من الأبطين، علت رأسه "سدارة" متربة مزينة بوسطها بشارة بشمس تموز، شعار الجمهورية العراقية.

: عمو ايش راح يصير؟ من ضرب الزعيم؟ سألت وأنا أنبش صحن الرز بالملعقة، دون رغبة بالأكل.

: الملاعين أو الملاعين كلاب عبد الناصر الجبان، والله سنسحلهم لمحكمة المهداوي واحد واحد، ونخرج حليب أمهاتهم من أظافرهم. غيرة سز، شرف سز، وصلت بكم "السرسلوغية" تهاجون الزعيم؟، أولاد "الكلجية".
أطرقت للأرض بخجل.

"ليس أمام البنات داده أبو نصيف أعصابك؟"، نبهته زوجته فصمت وانسحب لغرفته. قلت لليلى: لم يشتم أبوك الناس إذا كان الأمر سيرجع لمحكمة الشعب، ويحاكموهم كما يقول، فما ذنب أمهاتهم وعوائلهم لتشتم؟
: هو يحب الزعيم أكثر من أباه حتى؛ ولذلك هو غاضب، لا عليك ساجدة، الوالد شرطي وقد اعتاد في عمله سماع كل ما تتخيلي من شتائم العراق والعالم.
: والدي كان عسكري ولم أسمعه يشتم أمام النساء، ربما لأننا أصلاً من تكريت، ونحترم النساء بحكم العادات القبلية، أما أنتم فالأمر يختلف كونكم من بغداد.
: تقصدين أننا بلا أخلاق ساجدة.

: لا ليلى، ولكن بلا تقاليد قبيلة محافظة.

كان أبو نصيف أفندي يعرف والدي كضابط مطرود من المجال العسكري، سألني

: ايش رأيه ل خيرالله بما صار؟

: والدي حاله حال الجميع، يسمع الأخبار ويطالع الصحيفة، دون أن يعلِّق أمامنا.

: هذا الشاب الطالب صدام أين هو؟ لم أصادفه منذ أيام، اعتدت أن أراه ذاهباً للإعدادية أو برفقة عدنان؟

: نائم بالبيت، حرارته مرتفعة وعنده كسر بالقدم، دفعوه على الجسر. ناس كانوا مسرعين يتدافعوا لبيوتهم بعد الذي صار.

في البدء كانت الكلمة.

"ساجدة لصدام و صدام لساجدة.

زرعت عمتي صبحة في رأس صغيرها صدام أني قبليَّاً زوجته، منذ كنا عراة في القماط، لم ننقطع عن بيت عمتي وولدها، إما كان معنا أو كنا معه، باستثناء وقت طلاق أمي ليلو، حيث ذهبنا لنعيش في بيت أبيها في صوب الكرخ.
آلم أمي ذلك فطلبت الطلاق، أقصد زواجي أبي من امرأة من الكورد، حالتها الصحية تدهورت.

سيذكر صدام لها أنها رفضته عندما كان عادياً، وتقبلته عندما صار سيد بغداد الأوحد.

مرة سألتني أم يعرب، صديقتي المقربة ورئيسة اتحاد نساء العراق، في جلسة نسائية خاصة بلاتحفظ، "عيني أم عدي، كيف حبيتيه لصدام؟ من أول القصة، عيني".

ابتسمت، سرحت قليلاً لاستنزل ذاكرتي الثقيلة، "يا الله، نصف قرن مرَّت مثل نصف ثانية".

"عيني أم يعرب، عندي ذاكرة متعبة عن الأيام الأولى، ضباب ذاكرة، أنا بنت ثمان سنوات، كنا بزيارة للشويش في العوجة، عدنان وصدام يتصارعون من يبطح الآخر أرضاً، عدنان أصغر من صدام كما تعرفين، المهم خشونة صدام غلبت ترافة عدنان رغم قوته البدنية، بالنسبة لعدنان كان مزاحاً، أما صدام فخنق عدنان بشراسة وعصبية عالية، اعتبره تحدي حقيقي لفحولته، خاصة أن هذا تم أمامي كأنثى، كانت عمتي صبحة تهمس له كل يوم ساجدة قسمتك ونصيبك، حصتك. هجمت ونبشت أظافري في رقبته، تركت خطوط وردية بارزة، دفعت صدام عن صدر عدنان، أراد أن يدفعني مثلاً، ولكنه بدَّل رأيه ولم يمسني حتى، غير أن عينيه ترقرقت بدمعة ساخنة، ونظرة توعُّد جافة كافية لإخافة عشر زلم بشواربهم، أمم جاءتني صفعة أطارت ضفائري المنتصبة، من خالتي بدرة، هذا ما أذكره، وحبيته لأن احترمني كحرمة كما هي عاداتنا ولم يؤذني.. ياريت ضربني بوقتها، ماكنت أحبه ولا صار الي صار، آه، ايش ورطني به؟، مر مثل الدواء وواجب علي تقبله لأني تعودت عليه. "أبو عدي" "أهمس في أذنه اليسرى" أبوية أنت، أريد منك توعدني تنتبه لنفسك، الحسد والعين فلقوا الحجر، إخوانك صعبين وممكن -لا سمح الله- يتهوروا ويحصل الأسوأ، يتآمروا عليك مثلاً، كل شيء جائز، لا أعرف كيف أحلام أختي تحب برزان هذا حد الخيال، من كان شاب في بيتي لم أحب وجوده، متصنِّع أحسه ومغرور، هذا لو كان صدام كان ايش سووه، ها؟ "هههههههه" يضحك صدام باهتزازات مميزة بأكتافه، كعادته عندما يكون مرتاح البال، أو يكون الكلام مس قلبه الأملس وانزلق دون أن يثقل عليه.

ولِدَ قصي، كنت أسكن في منزل والدي عندها، اختار صدام اسمه متناغماً مع عدي، يجتهد صدام الأب في انتقاء ما قل تداوله من الأسماء، ويحرص على أن تكون متناغمة، كوني معلمة حكومية، حصلت على إجازة لشهرين فقط، كانت فترة طيبة للراحة، في ألف وتسعمائة وسبعين جاء قانون الأمومة لست أشهر، حتى يبلغ الطفل أربع أشهر. كون صدام متزوج وأب ولديه أطفال ساعد بإصدار قوانين لصالح الأسرة لتماسه مع العائلة.

"أي نعم موافقة" قلت بصوت واثق أزعج الوالدة: "هذا الصدام نسخة من خير الله طلفاح زوجي، كل أهل الريف في العوجة نسخ من بعض، يحبون بنات العم كزوجات، لكن يستمتعون خارج المنزل بالنساء أكثر، وقد يصدف ويتزوجون كما فعل والدك" السفيه" ".
وختمت رفضها المدبَّج بنبوءة قاسية لم أتوقع أن تتحقق "والله، ماما هذا يتعب بلد".

كانت نبوءة ليلو في محلها، ولو بعد سنوات. رغم أن زواجنا تم حسب العهد الشفاهي المقطوع والتقاليد العائلية، بنات العم وبنات الخال لأولاد العم وأولاد الخال حصراً، إلا أنني كان ممكن أن أرفض كفتاة بغدادية مستقلة، لا كبنت قبيلة لازالت إلى الآن تسكن العوجة. بالحقيقة كنت معجبة بصدام؛ بفحولته وجسارته ووجدت به نسخة أجود وأعلى طموح من والدي وأخي، الذين أُحبهما أكثر من أمي، نشكل أنا، عدنان والوالد خير الله مثلث متماسك.
"أي أحبه ل صدام" بحت لنفسي ولزميلتي المعلمة الكوردية في المدرسة، "شيرين، أنا بحكم المخطوبة اليوم، أو منذ كنت في عمر الرابعة".
لكن عماد مجدداً يطرق أبوابي الصلدة بيديه الحريرية، عماد المحب للمقام العراقي والموسيقى والفن، ولكل ما هو متميع ومترف من وجهه نظري. مرة كنت متعبة، نصحنني الأخريات بالاستفادة من

شمس أيار في الساحة المدرسية قرب الحانوت. تطوعت زميلتي الكردية شيرين لتذهب بدل عني للدرس؛ إسكاتاً لإلحاح المديرة سعاد الصفار بأن لاتكون هناك دروس شاغرة، ويحاسبنا المشرف عند قدومه المفاجئ.

اشترى لي عماد حبة برتقال من الحانوت المدرسي، قشرها واحتفظ بقشورها بيده حتى نصل لسلة القمامة، قابلته لأقفل مجرى حلمه بي إلى هذا الحد ونجح الأمر. بعد سنوات سمعت أنه تزوج وأنجب، ثم صار جندياً في الجيش الشعبي، بينما صدام القائد العام للقوات المسلحة.

: لو فرضنا أن صدام يعلم أن عماد كان يحبك، ما سيكون مصير المسكين هذا؟
: لا شيء، سيربطه في فوهة مدفعية ويطلق النار بيده، وقد يحسبه شهيداً لاحقاً.
: لكن صدام أحب، و.. تزوج لاحقاً، كان ممكن أن تزعجيه بقصة عماد المعلم كامرأة تفكر برد اعتبارها.

: لاتكن وقحاً لا تقارن هكذا. أنا لم أحب عماد هذا أصلاً، بينما هو أحبها وتزوجها.
أعرف صدام جيداً، صدام الموشور كما أسميه. شاهدته بوجوهه المتعددة، مرة كان الصبي الصغير اللاهث خلف غنمه في البرية، أو خلف أمه ممسكاً بثوبها الأسود الأزلي. المراهق، والجسد الهزيل اللدن المتموج كحقل حنطة نفخته الريح.

مرة الشاب الخائف والهارب من أجهزة الجمهورية العراقية الأمنية في الخمسينيات. الزوج الحليق الشارب والوسيم كممثل سينما مصري، لا أتذكر اسمه الآن.

أو المناضل المسجون، المناضل الهارب في الأوكار الحزبية، الأب المختفي دائما لأسباب أمنية.

مقدم البرامج في الجمعيات الفلاحية، تصوَّروا طلب كل شرائط البرنامج هذا لاحقاً من مكتبة التلفزيون وأتلفها بيده، أو الحزبي النشط في المكتب العسكري لحزب البعث.

الرجل الملتصق بسلطة الرئيس البكر ثم.. الرجل الرئيس، والعسكري والقائد، والسجين مجدداً، ثم الشهيد.

بايولوجياً بحكم صلة القرابة، وبحكم المعاشرة الزوجية، ورابطة العائلة التي كونَّا، وسنوات الحكم التي تسيدنا فيها، أعتقد أني أعرفه لحدٍ ما، أو أعرف الشيء الذي أراد أن أعرف.

بين أول يوم انطبع فيه وجهه وصوته في متحسساتي البصرية والسمعية، وآخر يوم غاب بها عني للأبد، دورة زمنية بقطر مجرة أو اثنتين.

: العمة صبحة تشبهك كثيراً، أليس كذلك؟

: الوالدة صبحة وخالي خير الله يتشابهان جداً، وقد يشبهاني كلاهما وجهاً وصلابة.

لا يتذكر صدام وجه العم حسين والده. كان قد رحل مبكراً قبل ولادة صدام. تصفه العمات بأنه يتناسخ مع وجه العم إبراهيم، عم صدام وزوج العمة صبحة الثاني. بالحقيقة زيجاتنا المتقاربة عائلياً طبعت ملامحنا بسمات موحدة، انفعالاتنا، أصواتنا، حيواتنا، ونهاياتنا متقاربة، عدا عن تمايز نوعي آخر هو "العهد" الذي خُصَّ به صدام.

: متى رأيت صدام أول مرة؟

: في العوجة ربما كان صيف. أنا أكبر منه بسنتين، عدَّل تواريخ تولدنا لاحقاً في دائرة النفوس ليسبقني بسنتين، وبذلك صار بيننا

أربع سنوات رسمياً وبايلوجياً. لو كنت عراقياً ستفهم كم هو محرج أن تكبرك زوجتك بالعمر. رأس العائلة الأب هو الأكبر صدقاً، أو تحريفاً بالسجلات ليستقيم الأمر، عدا أن يكون رب الأسرة رب ثلاثين مليون عراقي، ورب لبضعة ملايين من العرب. لايهم كسيدة تحب أن تصغر كل سنة عن الأخرى.

حتى ونحن صغار كنت لا أقل عنه خشونة، تلك جينات المسلط؛ الجذع المستقيم الطويل، والأكتاف العريضة، والعظم الخشن. كما أني تمسكت بقصة شعر قصيرة أقرب للرجال منها للنساء، أعتقد أنها عدوى الخشونة التي أصابت الجميع، ولولاها لما وصلنا عبر هذه الممرات القاتلة للقصر الجمهوري.

لبس والدي السدارة والبزة العسكرية ماسكاً بعصا التبختر، كان بشوارب ضباط الأربعينات المتأثرة بالانقلابي الأول عربياً وعراقياً، بكر صدقي المتأثر أصلاً بهتلر الرايخ، الذي كانت شواربه ماركة مسجلة للشهامة والرجولة والقسوة العسكرية، قبل أن ينهزم هتلر هذا، وتصبح شوارب ستالين هي الموضة والعلامة المسجلة للقوة. تأثر صدام بذلك، وعمَّم التأثير لكل رفاقه حسب الموضة الستالينية. تخيل لو كان المنتصر هتلر، أقصد لو اتخذ صدام تلك الربع شوارب كشعار لوجهه وللآخرين، هههه سيبدو مهرِّجاً أكثر منه رئيس.

كانت الشويش القرية في العوجة في تكريت، حيث آل المسلط هناك منتجع صيفي للزيارة والتذكير بالجذور كل سنة، ولكن الزمن الروليت دار بحدة، وألقى بنا في تكريت ليس للاصطياف، وإنما للسكن هذه المرة.

انفصل والدي عن أمي وعن الجيش مرة واحدة. مرة عاد والدي خير الله فاستقبلته ليلو والدتي بالصراخ في وجهه. تقاطر الجيران تجذبهم صيحاتها المندلعة للسطح، حصل هذا حين دخل علينا والدي بزوجة

جديدة يسحبها من يدها. فتية وجميلة، بيضاء مضيئة يلتمع جيدها ووجهها من خلف العباءة. جنَّت أمي ساعتها، صاحت: يبببو، خير الله هل كنت هناك لتقاتل "الإنكريز"؟ أم تتزوج الريفيات؟ طلبت أن تغادر إلى منزل أهلها وأن تأخذنا معها، أشار أبي لعمي لطيف ليوصلها ويعود.

تعقدت الأمور بعدها. العقداء الأربعة أعلنوا الحرب على الإنكليز. هرب الملك الشاب والوصي على عرشه إلى طهران. سمعنا أن الزعيم هتلر أرسل طائراته "الهنتر" عبر الموصل لتساندنا ضد دول الحلفاء، لكن.. إنْتهى الأمر سريعاً، دخل الإنكليز بغداد، عاد الوصي والملك الشاب فيصل، وانتهت الحرب الإنكليزية العراقية في بضعة أيام، وأعدم قادتها الأربعة.

: علَّقوهم مصلوخين على أعمدة الكهرباء عند مدخل القصر، الوصي تعمد ذلك ليمر بهم كل يوم ويتف على شواربهم. قال والدي خير الله بمرارة زادتها أنه استدعي لمحاكمة عسكرية كضابط شارك الآخرون بالتمرد، وحبس بعدها لخمس سنوات، ثم بمرحمة ملكية عامة أطلق سراحه. كنا في منزل جدي لوالدتي، بينما عمي لطيف، وقد كان شاباً يعمل في حقل لوالدي في العوجة، يزورنا شهرياً ليدس في يد أمي بضعة دنانير لمعيشتنا. أصبحت المواد الغذائية شحيحة وزاد الجوع. الحرب العالمية والمجاعة والأوبئة تحوم في طرقات بغداد.

: الإنكليز يأكلون الأخضر واليابس كالجراد في معسكراتهم في الحبانية وسن الذبان، وأينما وجدوا، ستر الله الوصي والملك فيصل يجودون على الشعب بحصة تموينية لكل فرد من طحين وسكر وزيت ورز، وإلَّا متنا من الجوع. دعت أمي في صلاتها. لكن الأيام جاءت بجديد لكسر الميلودراما هذه، ولو بفرح خاطف.

: بنتي ساجدة وبني عدنان، أبوكم رجع من السجن لتكريت، سأرسلكم إليه.
: وأنتِ؟ سألها عدنان.

: أنا لست زوجته الآن، أنتم كبرتم وتعرفون ما حصل. أبوكم شهواني ونسوانجي، لم يحترم عشرتنا الزوجية وتزوج في أول نزوة، هل تعتقدون أن ليلو تسامحه.
: يا أم عدنان أنت قلبك عطوف وسموح سترجعون عائلة من جديد. نصحتها جدتي، وبداخلها رغبة بالتخلص من تكاليف من أم وطفليها بلا أب معيل.
زاد إلحاحنا، واشتدت عاطفتها اتجاهنا، مما سهَّل أمر إقناعها بالعودة لزوجها.
تنفسنا الصعداء لعودتها. همهمت ليلو وعيناها في مكان آخر. : خير الله، رجعت لك لخاطر الله ولخاطر أولادي، لا شماتة، ولكن شفت ايش صار يوم انفصلنا، الله حبله طويل.

كان تربط بين زواجه وحبسه وفصله من العسكرية "وجهها نحس هذه البنت على أبوكم، قلبت أحواله وجلبت الفقر والحبس له" قالت بتشفي.

: ليلو إذا بقيتِ تتكلمي هكذا سأتزوج ثالثة. صاح بسخرية مصطنعة. ردت بيأس وتقبل للأمر.
: عيني خير الله، المبتل مرة لا يخشى البلل.
حدث في صباح تكريتي ما أن جاء صدام إلى منزلنا بدشداشته المتسخة، والمعبئة برائحة صوف الخراف التي يسرح بها. سحبتني الرائحة الخروفية تلك لأخرج من غرفتي، وأتفحَّص القادم بفضول.

فكر والدي: كيف وصلت إلينا؟ هل كان يتذكر أزقة مدينة لم يراها منذ سنوات، كما لو كان قط مبوصلبايلوجياً ليعرف مكان أهله.

لم تكن ليلو تطيق صدام منذ طفولته. همسن لها العرافات أو الهامسات: هذا سكين تنمو في الخاصرة، حين تتمدد وتشتد ستمزق صاحبها.

نطق صدام الصامت منذ دخل: السلام عليكم خالو.

: هلا بابن اختي، خيراً، ما سبب مجيئك من العوجة دون صبحة، هل هي وزوجها إبراهيم بخير؟

بتردد ثم بإصرار مفاجئ: تركتهم، لن أعود للعوجة، أدخلني المدرسة أرجوك خالي، كعدنان وساجدة، أريد أن أتعلم وأصير ضابط مثلك يوماً ما، أقدر أعمل وأدرس، ولن أكلفك فلساً واحداً.

: عفية خالو، أنت ذكي وطموح ولن أخذلك، لكن تذكَّر الإنكليز وأذنابهم بالقصر سيوقفون نموك العسكري يوماً ما. استدرك، لكن الهمة التي بداخلك ستدفعك لمصارعتهم وستسود عليهم، أليس كذلك؟

: لن أتوقف، ولن أتراجع، ولن أخسر، أعدك خالي بذلك.

: تذكر بين الصخرة والتاج "شط دم وشطين.." ههه. تلفت خير الله خجلاً أن يكون النسوة سمعن باقي الأهزوجة من قبل، وخمنَّ ما لم يقل.
: طين حر بين إيديك أنا، خالي شكلني واتكِ على كالعصا لموسى.
: بين الصخرة والتاج قبضة ونار، وتحمل وصبر يضاهي صبر الله على عُصاته.
: والعهد؟

: حدثت صبحة به؟ أنت صغير لتعي ذلك. كل شيء حولك سيقسو ليشتد فقارك ويحتد نصلك، أنت مختار من قبلهم، وإذا لم نجتهد سيخنقونك بلعابك.
: أعي، وسأفعل ما يأمرني طموحي به، ولن أخرج عن العهد.

التحق بالمدرسة بسن العاشرة، بدشداشة وجسدٍ نحيلٍ، ومحمَّصٍ بشمس تكريت. لم أتذكر أننا تقبلناه، كنا ننسج النكات عليه أنا و عدنان.
كونه لم يستعمل اللباس الداخلي من قبل، كان مادة مسلية لنتهامس وننسج النكات. أنَّبنا والدي لاحقاً، وأرغمنا على الاندماج معه.
"في درس الرياضة اليوم هرب صدام خارج المدرسة، إذا نزع دشداشته وهو بلا لباس سيعاقبه المعلم". قال عدنان ساخراً.

: كلنا نسبح في النهر عراة، فلماذا تعيرني بالعري؟ بحدة رد صدام.
: لكن المدرسة مدرسة. أليس كذلك أبي؟ ووجَّه كلامه للوالد خير الله، الذي أخذهما للحديث في باحة المنزل بعيداً عن مسامعنا.

صار حديثهم الخافت لا يصل لمن في المنزل.

: لا تسمعي أحاديث الرجال هذا عيب يا ساجدة، همست في أذني العمة صبحة.
كلما تصارع صدام مع عدنان الأصغر منه غلبه. مرة تدخلت ودفعت صدام، نهرني عدنان. بينما انسحب صدام، وجلس قرب جدار المنزل ينظر من بعيد.
: لا تفعليها مرة أخرى ساجدة، أنا رجل وعار أن تعينني بنت في عركة.
: لكن صدام تمادى وسحق عظامك هذه المرة خارج اللعب، فعلها بِغُل لأنك تسخر منه.

: ابتعدي، أنت غبية وتهينني بتصرفك، نحن رجال وهذا لعب لا أكثر.
صحت بعصبية: لكن عدنان هذا..

عالجني عدنان بصفعة، فانسحبت حانقة على الاثنين. تمنيت أن أصفعهما معاً مرةً واحدة.

: سيدة ساجدة هذا مستحيل بعرفكم القبلي، أن تفعلها بنت مع رجل أليس كذلك؟

: لكني صفعت صدام مرة. ذكرته بها بعد ثلاثين سنة، وقد صار رئيس فأنكرها. قال صدام: خرفتي ساجدة، من يصفع صدام حسين، ويأكل بيده في نفس اليوم؟

: أبا عدي هل تقنعني أنك في السجن لم تصفع مثلاً؟ أحرجته فطلب أن أسرد له لماذا صفعته، حسب تخاريفي وخيالي الضعيف كما يقول.

"يومها تعمدت استفزازي كأنثى صغيرة صدام. كنت أفهم فيزياء الرجال مبكراً من أحاديث الجدات والعمات. اجتزت باب الحمام، لم تتنحنح أو تبدي صوت، بينما كان البيت شبه مظلم والسراج النفطي بالكاد يضيء لنفسه. وفجأة وجدتني أمامك عارياً، وشيئك منتصب بين فخذيك المبللين.

: ها هاها. ضحك ثم أردف.

: ربما، تذكرت لم أكن أقصد سوء مع شرفي وابنة خالي. استدرك، "ولكنك كنتِ من نصيبي منذ الصغر؛ ولذلك كان هذا شبه حلال".

: لا لم أكن حلالك عنده، ولا زوجتك أو خطيبتك حتى لتفعل ذلك. :"سكونك في الحمام دون حركة كان تواطؤ لتريني جسدك الفتي المراهق". عندها تجمدت لثوان بين الفضول والغضب. لو أخبرت والدي وقتها لطردك، ولعاقبنا نحن الاثنين معاً، وقد يتصارع معك عدنان كذكور الأيل وقت التزاوج وقد وقد..
: كنت حكيمة أكثر مني إذاً؟ همهم صدام.

قلت لنفسي: "الصفعة تكفي، ولن يكررها" لم يبدو عليك أي انفعال لا ساعتها، ولا بعد يوم حين التقت عينانا لتهديدك بنظرة حادة وأبتزك لتخافني، وكأنما محوت المشهد من رأسك متعمداً. أنهيت تلك الذكرى. صمت بعد أن شفط نفس من سكارته، نهض مغادراً ليميت الحكاية للأبد.

كانت عمتي صبحة تعاملني منذ الطفولة كخطيبة لصدام، وما يؤجل الأمر للزواج هو امتلاء جسدينا بالهرمون الخاص بالتزاوج "ساجدة لصدام" سمعتها، وحُفرت في قشرتي الدماغية، ولكن هذا لا يعني أن أتسامح مع ما فعل، كان إعلان ذكوري مباشر- وجريء، وقد نال الرد المباشر- وصمت.

حين انتقلنا لبغداد الكرخ، محلة التكارته، بعد أعوام جاء صباحاً مع العمة صبحة. كنت أُعد البيض المقلي والباقلاء قبل أن أذهب للإعدادية، صادف أن الملح كان قد نفذ في المطبخ، عدنان يكوي ملابسه بمكواة الفحم الثقيل، ووالدي يموج قرص الراديو ليلتقط إذاعة الجمهورية العراقية، ليلو أمي لم ترجع بعد، ذهبت لشراء حليب الجاموس، كان عليَّ أن أُذكرها أن الملح قد نفذ صباحاً، الخبز كان قليل، اكتفت العمة صبحة بقدح الشاي، بينما تناول صدام لوحده أربعة أرغفة قبل الإفطار؛ ولذا أحرجنا. لست بخيلة، وإنما اعتدنا التنظيم والاقتصاد منذ فقد والدي عمله، ما تبقى إلا أربعة، سيضطر عدنان للإفطار في المطعم الشعبي القريب بخمس فلوس كاملة، تأخرت عليَّ أن أذهب للإعدادية، يجلس صدام في الحوش حتى يعد عدنان مكان مناسب له في غرفته، أعرف صدام وأشم رائحة العوجة من مسام جسده، أعرفه كما لا يعرفه أحد، أحلام أختي الغير شقيقة تصافحه بطرف أصابعها، بينما أمي لا تود مصافحته حتى. صدام بالنسبة ل ليلو أمي يعني تكريت، يعني الرجوع خمسون سنة عن زمن بغداد، الخمسينيات الملكية المدهشة.

نامت العمة صبحة على "القريولة" في وسط الحوش، كانت متعبة من القطار القادم من الموصل صوب العاصمة. بينما انفرد صدام مع والدي خير الله في غرفة الضيوف في مدخل باب البيت، قبل الطرقة الصغيرة التي تقود للحوش، دار حديث أُخمِّنه دون أن أسمعه، سياسة وتنظير، أغلقت الباب ورائي وغادرت، وأنا أهبط السلَّم تبعني صدام، "خير إن شاء الله"، ردَّ باحثاً عن عذر لتسرعه "تحتاجين أرافقك للإعدادية؟ شزرته فبرَّر "أحميكِ من الشباب مثلاً". كان مراوغاً منذ صباه، ابتسمت مستعجلة "لا حاجة لذلك، بنت خير الله معروفه بالمحلة عن سبع رجال، بالحقيقة لا أحد يضايق أحد هنا لا

بكلام ولا بالفعل، ابن عمتي نحن في وسط بغداد، وليس قرية "الشويش"، الله وياك".

لإنها تُصر حتى وهي تسير منحنية بزاوية تسعين درجة نحو الأرض، على أن تقوم بكل متطلبات المنزل؛ لذلك وجدت الوقت الكافي لأعمل كمعلمة، بالحقيقة كانت ليلو تتفاخر بي وسط "حبيباتها" في العائلة والمحلة. العمل الوحيد الذي تتقبله ذائقة العائلة القبلية هو التعليم، حيث يجوز الخروج من المنزل والاختلاط كون الوظيفة محترمة، ولماذا يمثل المعلم من صانع للفكر وللجيل. ساعدني والدي خير الله لأعمل معلمة كونه مارس التعليم في مدرسة خاصة أسسها في تكريت، بعد أن فُصِل كضابط من الجيش. لكل هذا كانت وظيفتي حدث مهم عزَّز تمسك صدام بي لسنوات منفاه في القاهرة. كان يعي أن الزوجة المتعلمة، والتي تعمل ستكون سند له.

كانت بغداد الستينيات الجمهورية التي تدفع بالنساء ليكن مواطنات فاعلات شريكات في العمل والمسؤولية. قد لا نحب الزعيم عبد الكريم قاسم، ولكني ثمرة من هذه الدفقة في المساواة بين الجنسين حد تسلُّم السيدة" نزيهة الدليمي" أول منصب وزاري منذ سومر وأكَّد وبابل، عندما كانت النسوة يحكمن الممالك الرافدينية.

: هل كان عصر الزعيم قاسم متحرر نسوياً نوعاً ما؟

: جداً حد مشاركة النسوان في حمل السلاح في قوات المقاومة الشعبية والشبيبة.

: ربما لهذا كانت ليلو والدتكم تحب الزعيم قاسم؟

: نعم تحبه وتزعج زوجها خير الله بذكر ذلك كل مرة. أقصد ربما لما تفضلت.

استلمت أول راتب في حياتي، عشرون دينار وخمسون فلساً.

شعرت بأني أملك قاصة مصرف بأكمله، لا أخفيك حاجتي للمال كفتاة في بغداد التي تشهد تغيرات سريعة من موضة ومنتجات استهلاكية، تدخل البلد عن طريق الوكالات التجارية الأجنبية، كان اقتناء إحدى منتجاتها وإن لم تكن بحاجة له، يعد تفاخراً. الكائنات الضخمة كالكرامفون القديم والراديو وغيرها، اقزوزمت حتى أصبحت تحمل باليد، التلفاز، الصندوق السحري، وحلمي بأن يصبح يوماً في غرفتي لأشاهد السند والهند، الحاضر والماضي، الغرب والشرق، وأنا على سريري الخشبي المتواضع. كان حلم أو يكاد.

أتحسس الدنانير بأصابعي، لأتأكد أنها لا زالت بخير، لم تُتلم في جيب سترتي الرصاصية، هذه السعادة تعادل أول كلمة "ست ساجدة" سمعتها من تلميذ في الفصل الدراسي. "صرتِ امرأة عاملة ولم نجني من (صرمايتك) فلساً واحداً". قال والدي مازحا أو جاداً، كنت أدخر لبيتي المستقبلي مع صدام.

إِنْتهى نصف الشهر وأنا أتحسس النقود. شعورٌ ما يقول ساجدة لا تفرحي سريعاً، ولا تنغمسي بالتبذير. وفِّري كل شيء، تذكري ما فعل أبي عندما تزوج غير أمي، واقتسم دخله الضعيف بين منزلين. كانت أيام تقشف حد جفاف الجلد، رغم خيرات بغداد التي تتراقص في معروضات الأسواق، وتمد لي لسانها.

الزمالة التعليمية تقود لدراما مقطوعة مسبقاً. الآخر لا يعرفني إلا سيدة بجذع مستقيم، وبنية قوية كما لعريف بالجيش، هكذا وصفتني المعاونة أميمة البكري أول مرة شاهدتني. حقاً سلوكي كذلك ينم عن تشرب لمفردات الرجولة العسكرية من والدي وأخي عدنان، الذي التحق مؤخراً بالكلية الملكية العسكرية. أما الجينات وذكريات الجدات والعوجة وآل بو ناصر، فهذا كافٍ لضخ اعتداد بطولي نوعاً ما، انعكس بنبرتي بالكلام، ومشيتي وحتى نظراتي للآخر، أياً كان..، مثلاً "عماد القاضي"، من عائلة بغدادية ثرية معروفة، معلم

رياضيات، بشرة كريمية وابتسامة غنية بالصحة وأسلاف تصل لمنتصف الوجه، عملي وودود، كرجل بطول مئة وخمسة وستين سنتمتر، أثاره طولي وانتصاب قامتي خاصة مع كعب عالي اشتريته قبل الوظيفة بأيام، يشعرني ببرودة ما واسترخاء أثناء الحديث، ابن خير ونعمة، ربما أراد معادلة شخصيته الناعمة بشخصيتي القوية الخشنة.

بالحقيقة لا يعجبني الشخص الضعيف، وإن كان ذكي ومثقف. لا يخفي عماد هذا ميوله اليسارية، يستخدم مصطلحات أهل السياسة، ويحلل الفقر والغنى بمنهجية تعلمها من تنظيم حزبي بالغالب، عرض عليَّ أن يكلمني جانباً، لم أستسغ الفكرة، ولكن قبلت بداعي الاكتشاف، قال لي: إن الحياة أسهل مع رفيقة، مع من نحب. قال أشياءً أخرى، ابتسمت، قلت بداخلي، أنت بغدادي من الجلد إلى الجلد، وأنا بغدادية من الفصل الأخير إلى نهاية الحكاية، نصفي غاطس هناك في دجلة الذي يتهادى في تكريت، نصفي تكريتي، وإن كنت ولدت في بغداد ونما بدني وعقلي وحسي فيها، عماد لستُ لأحدٍ غيره، كيف سأقولها لك؟، لا تنعتني بالمتخلفة القبلية الرجعية وهكذا كلمات، لا تفعلها ولا في عقلك حتى، أنا من هناك، وأنت من هنا والمسافة بعيدة لنلتقي. أنا من كوكب تكريت هل تفهم.. : عفواً، أنت لاتصغين لي الآن، هل أزعجك كلامي؟ قال بنبرة طربية خافتة تند عنها ترافة لا أستسيغها. لا أتصوره في عراك رجولي، أو يقتل يوماً ما لأجلي.

: لا، عفواً، أنا أسمعك، لكن اسمعني أنت كذلك، أنت أخ وزميل، ولي شرف معرفتك وبس.

: هل علم صدام لاحقاً بعماد هذا، وإعجابه بك في المدرسة؟

: أنت مجنون؟ ثلاثة يعلمون هذا فقط، الله وأنا وعماد، وأنت الآن.

: هل أحببتي صدام؟ : "صدام لا ينحب ولا ينسب" كما تقول أمي ليلو، هذه رأيها، لكني كرهته و إِنْتهى كل أرشيفي العاطفي معه بثانية. يوم شممت الدم والدخان بجثة أخي عدنان، وهي تمر أمامي لتزور منزله لآخر مرة كما هي التقاليد، وحيث يتصارخن النسوة من حولها مكتظات في المنزل والحديقة، قادمات بملابسهن السود للعزاء. مما اضطرـ الحمايات لسحبها بسرعة إلى السيارة الستيشن الحكومية في الخارج.

: لم تنفصلي عنه أو تعلني ذلك علناً؟ : من يقدر وهو ما هو؟. أقصد معنوياً كنت مازلت أحتاجه كدواء وداء في آن واحد، مر كعلقم طب البدو، ولكن لا مفر منه. : هل هذه ماسوشية؟ عفواً للعبارة.: انتبه في المرة القادمة، واستعملـ كلمة ألطف وقعاً، وان كان ما قلته حقيقي. اسمع، تعلمت أن الخسارات والنجاحات لها طعم الإثارة نفسه، صدام هكذا طعم الخسارة والنجاح، شعورـ بالعلو وأنت بالأسفل. : هل كنت قادرة على أن تكرهيه؟ : حاولت وفشلت. أراه في بناتي وأبنائي، دجَّن الجميع فصاروا نسخاً منه. كم تخيلت بنتي الكبرى بشوارب، حين تقلد نبرة أبيها وطريقة جلوسه وكلامه. حاصرني حتى وأنا بعيدة عنه. بالنسبة لي لن يقبل بخسارتي؛ لأني ملكه كما همست له العمة صبحة في العوجة في سنواته السبع الأولى، حتى الموت ممنوع مع صدام إلا بأمره. يستحيي من يشاء منا رغم أنفه، وإلا أقول لك لكنت انتحرت حين جاؤوا ب عدنان مشوياً في تابوت واتهموا الريح، العاصفة، محرك الطائرة، المطر أو حتى الله بقتله، ولم نكن نجرؤ أن نتهم الفاعل الأول، والذي لا تذرق الطيورـ في دولته العراق إلا بإذنه.

هل فهمت أم تريد المزيد؟ أشعر بإرهاق لنوقفـ التسجيل.

أطلب ما تشاء من العاملات ريثما أعود من حديقة القصر، أريد هواءً أزرقـ نقي بعد كل هذ السخام الأسودـ من الذكريات.

حدثني والدي "العرَّاب" خير الله طلفاح المسلط قال

: غداً عيد الفطر، سأصلي في جامع أبي حنيفة النعمان. زوجتي الرابعة ذات العشرون ربيع تعرف ألف باء رغباتي. حصلت عليها من قرى سهل نينوى. بشرتها الكريمية بضربة وردية في الخدود أحييت التسترون في خصيتي. لهجتها الغريبة المبعثرة تشي أنها تركمانية، إلا أنها تنفي ذلك وتؤكد كرديتها، كان عليَّ أن "أعرِّبها" بيدي. العربية كما عرفها أسلافنا في الفتوحات هي أن تنطق الشهادتين واللغة العربية، عندما كنا نخاطب السحاب من بغداد المجد، إمبراطورية الزمان. : هيه، كل مطرك سيعود قمحاً وذهباً لمخازننا. كنا أمة لا تغيب عنها الشمس، قبل أن يفعلها الإنجليز ويرتقوا موقعنا من الجغرافية والتاريخ بالدهاء لا بالشجاعة، كما فعلنا كأمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة. كم أكره الإنكليز رغم تقانة أقمشتهم الجوخ، وأسلحة الصيد وعلب التبوغ والقبعات والأربطة الحريرية. أتشرَّف أني قاتلتهم في الأربعينيات.

جهزت لي "الدشاشة" الحريرية بصفرة كالزبدة، وأخرجت عباءتي الرجالية المذهبة "الكلبدون" ونعلي من جلود الحبشة. أوقدت مبخرة فاح منها احتراق الصندل والمسك. كم هانئة هي الحياة بمعية صبية تطيع شهوتك في كل الأوقات من اليوم.

لي وقت للقراءة والكتابة، ووقت للاستماع ليوسف عمر والمقامات البغدادية، ووقت لمتابعة أملاكي في تكريت وبغداد. لي زوجة أولى مطلقة مسترجعة، لم أمسسها أو يمسسها قط بشرٌ منذ الستينيات، تعيش مع بنتها ساجدة في جناح في القصر الجمهوري. لي عدة أبناء

يعملون في الدولة من رأسها حتى أخمس قدمها. أحدهم وزير الدفاع عدنان الذي أذاقنا حلاوة النصر على الفرس في العام السابق. "لماذا خلق الله الفرس؟ أستغفر الله لا اعتراض، ولكن لطف والتماس العبد للمولى لفهم الأسباب". "الفرس فقط؟". "الفرس واليهود والذباب.. كنت سأضيف الخراء، ولكن لهذا فائدة تذكر". لازلت أكن احتراماً خاصاً للسيد "الفوهرر هتلر" منبعه أنه عالج الأمر بيده، وإرادة ربانية مستترة لم يصرح بها أو عنها حينها، أقصد حين طهَّر الأرض بالنار والحديد والغاز من اليهود؛ لذلك قاتله الغرب مدفوعاً من آل صهيون وآل روتشيلد. "سيد طلفاح، بعد اطِّلاعنا على سجلك العسكري كضابط وطني شريف، يكره الإنجليز وهيمنتهم على مقررات ومصائر الأمة العربية المجيدة، قررنا نحن التنظيم النازي العربي أن نفاتحك بالانضمام إلينا".

سعيد، ويا نعم الزعيم لأمة .... يعيث بها عبد الإله وصاحبه "أراق عبيد الإنكليز دماءه ... ولكن في برلين ليث يراقبه، يرن صدى أبيات السياب، وإن كان "شروكي" هذا الشاعر من أهل الجنوب إلا أني أستسيغ نظمه للمديح والقريض.

فقدت وظيفتي كعسكري حين فشلت ثورة مايس ضد الإنكليز، وعادوا وأعادوا "كلابهم الملكية" للسلطة. إنه في يوم كذا وساعة كذا قرر المجلس العسكري التأديبي فصلك من الجيش، وحبسك لمدة خمس سنوات قابلة للتمديد وإنه.. "طز.. السجون للأحرار، والعبيد لهم طول الأرض وعرضها. نقرة السلمان مصنع المبادئ والرجال". صاحت زوجتي ليلو. "لك أبو عدنان من أين نعيش؟ الله ياخذ "أبو ناجي" الإنكليز وأتباعهم.. يبوووووه" : الله يرزق الدود والطير والشجر.. هذه الحال. اليوم تحت، غداً فوق. الدنيا دولاب. .... من منا لا يملك العصبية لابن خلدون أيها السادة. ها، نحن العرب مثلاً نزفنا الكثير من أجل الآخرين، وشيدنا إمبراطوريات صارت نُسخ

استغلها الأتراك العثمانيون وغيرهم. نحن من أسس لهذا. من قال إن العالم واحد، نحن لسنا العالم، ولن يكون العالم نحن. لدينا فجوة ساحقة في كياننا الأول، برأي إن الحضارة طاقة لا تفنى ولا تستحدث، وبين ما تبلورنا عليه الآن في صيغة مختلفة لا يسمح لها من الآخرون أن تكون فاعلة، النتيجة طاقة تنسف المشغل الدولي كلما حاول أحدهم كبتنا للأبد. هكذا علمت صدام. نحن طاقة عظيمة يجب أن تتبعث، الغرب لن يسمح بذلك، وقد مضى بعيداً في منجزاته، ولن يجعلنا نتشارك إلا فضلاته. فلنقل كنا في مباراة، هم حقنونا بمخدر في الساق ومضوا عدَّائين بعيداً، علينا أن نخرق قواعد المارثون، الكل يفعل هذا، ولكن النجاح يكمن كيف تفعلها دون أن تبدو مذنب أو يلمحك منافس آخر فيشهر بك. صدام، سأصطفيك وسأنجزك علَّك تكون عمر بن الخطاب آخر، أو المنصور العباسي. لن أحيل هذا الدور الكوني لولدي عدنان، لا، لا، عدنان ابن أمه وابن بغداد المتلونة، العجوز التي فقدت نظارتها وخشونتها.

لكنك ابن الصخر والعقارب والجوع، أنت ابن العاصفة، وحقد النوق، وخوف الأرملة، ووجع الأيدي النسوية في الحقول منذ الضوء الأول للشمس وحتى وأدها.سنقلب الطاولة معاً، أنت بساعدك وأنا بما أملي عليك، كن من نار ونحاس، من مسك احترق، ومن لاذ بنورك اهتدى، كن من سموم الزواحف؛ من شربك هلك، ومن طلبك ترياقاً نجا، كن من غضب النيازك من هوت على رأسه تلاشى، ومن خطفت في سمائه استبشر بك خيراً. هكذا تعيش ألف سنة وسنة، قاس ولين، سهل وجبل. ذباح وبكاء، أوحد ومتعدد، مخيف ومحبوب. الماء والأسيد في وقت واحد.

: خالي، هل تؤمن بالنازية والفاشية.

: حسناً، كل ما ضد الإنجليز نحن معه. لن تنسى أمتنا مكرهم وخديعتهم، لماذا قاتل العرب الأتراك وثاروا عليهم، ليتسيد مود ومكانزي مثلاً؟ استبدلنا الطربوش التركي بالخوذة الإنكليزية؟ "نفس الطاس ونفس الحمام".

لن يمكر أحد بالعرب من قبل، ولن يقبلوها. كان العرب الأجلاف في الجزيرة يتماحكون مع الله ويتبارون معه بالمكر.

{ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}.

هل يعجزهم أن يسحقوا هؤلاء الشقر ذو العيون الملونة، والمرد كالنساء؟ يخسؤون، وإن ملكوا الآلة الحربية، إلا أننا نملك قوة الرفض، وهذا قنبلة متجددة. كنت في تنظيم "النازيون العرب في العراق"، هل تعتقد أن النازية سوء، لا، من وصفها بهذا؟ أعداؤها؟ الإنكليز؟ الأمريكان؟ لن يعمم الأمر علينا. وليس هذه كتلك، وليس الأمر موضوعي هكذا، للغرب صراع مع النازية ونحن لا يعنينا ذلك، علينا تعريب نازيتنا والأمر كذلك مع الفاشية، علينا أخذ الجوهر من الآية {كنتم خير أمة أخرجت للناس}. فليقل من يقل إننا متعصبون لعروبتنا، افتح صدورهم ستجد أنهم أشد تعصباً لأعراق أقل شرفاً من كلابنا حتى، هم يجبنوا أن يعلنوا ذلك. لن نخجل من دمنا العربي في عروقنا، ولا يعنينا ما يقول الآخر عنا، لسنا لأحد نحن هكذا، افهم الأمر صدام.

: ماذا لو تصادمنا معهم؟ : ماذا لو تصادمت الكواكب ببعض؟ سيهلك الجميع، وإن كنا أقل خطراً منهم، إلا أننا أقوى بفكرة الهلاك للجميع، كلما تعملقوا جبنوا خوفاً من الخسارة. وكلما قزمونا زادت طاقتنا بالضغط وصرنا أخطر. الخاسر لا يخسر أليس كذلك؟، المبتل لا يخشى المطر، وهم يخشون حتى صوت البرق. : هل من الحكمة أن ننسف أنفسنا والآخر؟ : لا، علينا أن نخيف الآخر بهذه الفكرة. أن

يخاف مكسب أعلى من أن يهلك، الخوف أداة لا تصدأ. : ماذا لو تكالبوا علينا ومحونا من التاريخ والجغرافيا؟ : عندها ستنمو بذورنا من الرماد في يوم ما، عندها سنكون حاولنا، وما البعث والنصر إلا من عند الله العزيز القدير، والأيام دول. : ما الرحمة؟ الشفقة؟ الإنسانية؟ : ضعف بشري يبرر به الجبان تردده و"خناثته". : ما الشجاعة، الإقدام، المبدأ؟ : أن تكون إما أنت، أو أنت لا شريك لك في الحياة إلا من ارتضيت بدرجة أدنى.

حين فشلت "دكة رشيد عالي الكيلاني" يسموها البغادة هكذا، ونسميها العسكر "ثورة مايس". طُردت من الجيش وحُبست كضابط متمرد. حين عودة الوصي والملك الصغير فيصل المثنى للحكم. بينما عُلِّقت جثث العقداء الثلاثة في مدخل وزارة الدفاع؛ ليتف الوصي عبد الإله عليها في بداية اليوم ونهايته. كان نرجسياً معتنياً بجلده وملابسه حد الإفراط، أقرب لسلوك راقص أو ممثل تياترو منه لعسكري خشن؛ لذلك تكاثرت وتناسلت النكات الجنسية عن نعومته، عززها أنه لم يرزق بطفل.

: يقولون الوصي فحل بارد يفشل عادة بتلقيح زوجته هيام، هههه. يلا ايش علينا منه.

: يقولون هو نفسه يحتاج لفحل يلقِّحه. عجيب أمور غريب قضية. معيلاً لعائلة ونصف. أختي صبحة وابنها صدام ضمن رعايتي ورعيتي.

كان عليَّ إيجاد مورد للمعيشة، افتتحت صفوف لتدريس الأميين في تكريت. سارت الأمور بسلاسة، إلا أني كان لدي حقل في العوجة قرب النهر، يعمل به لطيف أخي وبعض المزارعين، نزرع شعير وحنطة. في العطل أرسل عدنان وصدام للحقل للعمل.

في يوم صيفي مر أُستدعيت لإدارة تربية تكريت، وأُبلغت بإيقافي عن العمل كمدير ومعلم لمجموعة الصفوف الخاصة، التي أديرها كمورد للاحترام وللرزق.

في تكريت مساءً يجتمع الرجال في الباحة الأمامية لمنزلي، أعدت زوجتي الجديدة البسط المزركشة منذ العصر. رشَّت التراب بالماء؛ لينبسط ولا يتطاير عندما تدب الأقدام وتتكاثر فوقه، جلست بينهم كالهلال بين الغيم، وبدأت أُشرِّق وأُغرِّب بحكايات وتحليلات سياسية، بالحقيقة كنت عينهم وسمعهم ووعيهم، حين لا يوجد فيهم من يقرأ أو يكتب أو يسمع للراديو، ليس لأنهم مواطنو مدينة طرشان، ولكن لعدم وجود الراديو أصلاً، عدا جهاز وحيد في إحدى المقاهي، وكان يتعطل ليومين في الأسبوع، ويريحه صاحبه ليوم يسميه إجارة جهاز الراديو، حسب قوله لتبرد اللمبات التي تعمل بداخله.

سألوني وأنا الضابط والمعلم عن كل شيء يمكن أن يعرفه قروي في الأربعينات، كنت أُغذي النزعة القومية للجميع بروح إسلامية، تستند على عدم التقاطع بين الإيمان بالعرب والإيمان بالله.

وبما أني متهم "عدلاً" بالترويج للنازية بين الجنود، فلتكن التهم واقعاً وأعمل بها أفعلها، لاسيما أني دفعت وظيفتي كضابط ثمن. حدثتهم عن زيارة مفتي القدس أمين الحسيني للفوهرر في برلين. عن الجنود المسلمين في الجيش الألماني. وكيف أن مفتي القدس أمين الحسيني اعتاد زيارة برلين، والصلاة جماعة في مبنى "الرايخستاغ" في برلين.

: بالحقيقة أخوتي، يقال -والله أعلم- إن هتلر هو المهدي المنتظر، إلا أنه يخشى أن يعلن إسلامه في دول الغرب كي لا يُقتل. قال أحد الجالسين فهمهم الجميع بالتوكيد.

: الله أعلم. ولكن المؤكد أن الهتلر هذا هو من جنود الله، الذين يهلك بهم اليهود كما كان نبوخذ نصر البابلي، وصلاح الدين الأيوبي ابن مدينتنا تكريت.
وكما سيكون القادم منا ليدك عظمهم، ويسحق مجدهم المزيف.
يسيل لعاب آذانهم لما أسرد كل مرة، بينما تحلق عيونهم كحوامات ملأت المكان ولاتعود لمهابطها أو محاجرها، إلا حين أنتهي من محاضراتي هذه.

.....

في بغداد سألني صدام مرة، أو حقَّق معي بطريقته الناعمة.
رغم أنني أنا من أعيله وأسكنه بيتي، إلا أنني أشعر بطاقة عالية تخضعني لعيني صدام المراهق الذي أخاطر بصناعته كرجل الآن.
رجل غير قابل للخدش. معدن غير مسبوق، ولن يتكرر.

: لماذا طردوك من الجيش خالي خيرالله، لم حبسوك في نقرة السلمان في الأربعينيات؟

: شاركت مع فصيلي في الجيش في الحرب العراقية البريطانية.
كانت لأيام، انتهت بعودة الكلاب الملكية. عبد الإله استرجل برأس العقداء، وهو خادم لأبو ناجي "الإنكليز" لا وبعد.. مطية لهم، ومطية للركوب... أستغفر الله.
: مطية لمن آخر؟

: كلنا بالجيش نعرف السايس "عبود"، الذي يمتطي الوصي سراً ليلاً لينيكه عميقاً.
: هذا مقزز، ولكن غير مهم الآن، من كتب التقرير لفصلك من التدريس خالي؟
: الشيوعي القذر، سعدون الناصري.

: راح أكسر رأسه. قول خالي "الله يرحمو" الليلة أذبحه.

: "الله يلعنو"، والنعم من ابن اختي، سأزودك بمسدس "أبو البكرة"، خالك يستاهل تذبح لخاطرو هذا الكلب.

نفَّذ الغالي صدام ثأر خاله، عندما عاد يلهث ليلتها، حضنته تحت ضوء المصباح الأصفر الهزيل، قبلت جبينه. أنفاسه تطارد بعضها.

ولد صدام ليلتها، تنفس رائحة الدم، آه كم كنت سعيداً ليس لمقتل "سعدون" الشيوعي فقط، وإنما للولادة الجديدة لقاتل حقيقي في عمر الثامنة عشر، لمن لا يمنعه الليل ولا الخوف، والتردد مجبنة الرجال، من أن يتوكل على الله ويتربص كذئب

لسعدون، يغرس طلقاته في صدغه، ويأتي لي بدمه في أطراف دشداشته الممزقة.

: بابا ماذا حصل؟ استيقظ عدنان، ثم ساجدة. تساءلوا بالنظرات لم أحضن صدام؟، بينما يلهث كمن يطارده تمساح إفريقي.

: وليدي صدام، ايش صار؟

: خير الله، لم أنت والآخرين متجمعين. سألت زوجتي ليلو.

كان جوابي، بوجه غامر بالفرحة.

: فرقوا للجيران حلوى صباح الغد، مبارك علينا موت كلب الشيوعية الواشي سعدون الناصري، مبارك علينا ولادة الشبل صدام، سجلوا تاريخ ميلاده اليوم، نيسان 28، تذكروا هذا اليوم كمناسبة صار فيها هذا الصبي رجلاً وقاتل رجال.

حين نضج على مهل وتحت عيني وسمعي ويدي، أصعدنا معاه، ثم طبيب هكذا دفع الجميع من السماء السابعة بعد الألف، وتسيد لا شريك له في الملك إلا هو. لأنني فقدت لجام الخوف حين قتلوا ولدي

عدنان خير الله المسلط، قلت كل السر مرةً واحدةً... "ابن صبحة، الذي ربيته عض يدي، عض ابني وذبحه".

: ساجدة، هل أتاك حديث أمين بغداد، أباكِ. انا الذي كُسرت قدماه وأُقعد في كرسي بعجلات. ساجدة هل يرضيك أن أموت جلوساً هكذا؟ : هذا غرسك والدي. صدام ربيبك، "من يزرع الريح يحصد العاصفة".

: ابن صبحة تجاوز الريح والعاصفة والسماء ومن تحتها وما عليها.. أسقط متعمداً طائرة ولدي عدنان. بن ال... قتل ولدي، سأصرخ بهذا في كل مكان. في وجوه الجبناء والأتباع، والمخصيين والشرفاء، وأهل بغداد وتكريت والجزيرة والجنوب والشمال. : لن يسمعك أحد. صدام أغلق ثقوبهم عن السمع والبصر. لن يروا إلا ما يرى، ولن يسمعوا إلا ما يسمع. ماذا توقعت عندما تعاهدت أنت والعمة صبحة والقدر وال "الهامسات" لتصنعوه وتطلقوه هكذا؟ هل فكرت أنه سيلتهمكم كلكم لينمو ويكبر؟ : ساجدة، اقتليه بالسم أو بالرصاص. : كأنك تتغافل عن ال "العهد". تعلم أنه لا يموت بالرصاص ولا بالسم. هل تريده أن يشنقني بباب غرفتي، ثم ينعيني بالتلفاز ويدعي أني انتحرت؟

: أويلي على عدنان، أويلي على شبابه. من يأخذ بثأري منه.

: أي ثأر؟ أن تبقى تتنفس الهواء هكذا تستحق الحمد والشكر. إنها مكرمة منه أن يترك شفاعة لشيخوختك، لا تستفزه فيلحقك بمن رحلوا.

المخطوطة 8

حدثتني "أم المناضلين" السلطانة الوالدة صبحة طلفاح المسلط قالت. في ردهة مخصوصة للشخصيات.. vvip هكذا يسمونها، أليس كذلك ساجدة؟ في مشفى ابن سينا التابع للقصر الجمهوري أرقد الآن، ونبضي بين حياتين؛ الحياة الدنيا والآخرة . ابتسمت للطبيب الأصلع جزئياً عندما لمس نبض رقبتي ليتأكد من موتي، أشفقت عليه، فخبرٌ كهذا لن يسعد سيده الرئيس، ولن يأتي بمكافأة كما لو أبلغه أن أمه شفيت من الشيخوخة، ولن تموت أبداً... حسناً لم أُخيب ظن الطبيب، ومت بهدوء بعد شخرة أو شخرتين خرجت من رقبتي الغليظة. من المعيب على رجل كالطبيب هذا أن يتجنب النظر في عيني ميت شاخصتين لسقف الغرفة. لم أحب هذا، ولوكان باستطاعتي أن أقوم وأصفعه لفعلت. "كم هو جبن؟ رددت". بآخر نفسي المتبقي في صدري، أسألهم كل يوم، يجيبني صدام كل مرة نفس الإجابة. : وليدي صدام هذا الطبيب من أين أصله وفصله؟ سألت صدام بفضول مرة. : ها والدة، هذا طبيب العائلة وفنان، ايش يهم أصله بالنسبة لكِ، هههه. : يبدو من لهجته أنه ليس من تكريت، عليك أن تطببني بأيدي أبنائنا البيجات.

: هذا طبيب أصله من البصرة، الرجل موثوق به ومجرب، هل تخافين منه؟

: لا أخاف على نفسي، أنا راحلة اليوم، غداً أو بعد مئة سنة، أخشى على نسلك. : اطمئني، البصاروة طيبون، ولا يطمعوا بملك أو سلطة

كالآخرين.
: هل هو شيعي؟ هل سألت عليه إذا كان إيراني؟

: هههه والدة، ارتاحي، لا يوجد إيراني يعمل مع عائلة صدام. لكني علمت لاحقاً من حسن كامل أن الطبيب هذا، ورغم كونه خادماً مطيعاً وأميناً، إلا أنه فاجأ صدام بأن قريبه اعتقل وهو يهرب لإيران، بعد تجنيده في حزب ديني محضور.

: الوالدة لها حس أمني عالي. قال صدام لولدي وطبان وبرزان، وهو يشير لي.
: خير، ما تقصد؟

: الطبيب يتصل بي اليوم؛ ليعلن براءته من قريبه الذي أمسكه رجال الأمن كمتورط في العمالة لإيران، لكن الطبيب سيستمر بعمله، ولن يثلم ذلك الثقة به، الرجل أبلغنا عن ابن عمه مُقدَّماً، وهذا يشفع له.
: لا تغمض لك عين عن قريب أو بعيد، توقع أن ذراعك ستخونك يوماً، عندها اقطعها بالأخرى.

: ارتاحي أم صدام، ساجدة ستزورك غداً، مشغولة بتجهيز قصرها الجديد.
: لا يهم ذلك، عليها أن تهتم بتجهيز نسلها للحكم، وتولي ذلك رعاية أكثر من شعرها ومجوهراتها وقصورها، بنت خير الله لا تطيع ولا تسمع للعمات منذ كانت صبية.

: لم يعجبكي ولم تتقبلي بغداديتها يوماً، هي لم تتربى بالريف، بالعوجة. والدة، مرَّ ثلث قرن من الزمن ولم تهضمي هذا. إنها أم نسلي الذي سيحكم النهر والبحر بعدي.

: اتركني لأموت قليلاً صدام، سنتحدث عن هذا لاحقاً.

بالمناسبة، هل جهزت ضريحاً فاخراً لي في تكريت؟ من المرمر الإيطالي والثريات؟

حسناً، ما الداعي لأسرد حكايتي لأحدهم، حتى لو كان التاريخ، الأمة العربية أو الله نفسه. إنه الله عليم بذات الصدور. يعلم ما حصل ليلتها.

لا أفتح جرابي هكذا للريح لتذري الحكايات، كما نفعل في حقول الحنطة في تكريت قرب الفرات العظيم.

لكن أخي خير الله المسلط يعلم، والآخرون يعلمون، كلاً حسب نيته وقراءته للمشهد. دع عني هذا، فهذه الليلة طويلة في الثلاجة المخصصة للموتى الرئاسيين في مشفى ابن النفيس الخاص بالقصر الجمهوري. لدي طاقة محدودة للبوح، حد الصدق وحد الشجاعة، وليكن بعدها ما يكون.

: حسين، لا تدر وجهك عني كما تفعل كل ليلية، هذه المرة سأكون عندكم صباحاً، لا أعرف هل تختلف منطقة توقيت الموتى عن الأحياء. أي خطوط طول وعرض تتبعون في القبور؟

.....:

: الله، لم تكبر عن عمرك الذي مت فيه، لازلت في العشرينيات هناك، بينما تجعد وجهي وابيضَّ شعري كثيراً، وترهلت بوزن مئة كيلو غرام.

تسمع، صوت "هلاهل" هناك، إنها زفة عرس. أترى نفسك بين أخوتك؟

أنا أسمع كل شيء وأرى، لعله الرصاص في زرقة يوم مبهج، احتكاك الأكف بالأكف، والأهازيج والمواويل الشعبية.

بينما يسيل هذا السيل البشري المتكون من بضع عشرات من القرويين باتجاه غرفة من الطين، هُيئت منذ أسبوع لعرسين في قرية الشويش في العوجة.
غرفة لم ينم فيها إنسٌ من قبل ولا جان، سندشنها الليلة بطينها الرطب وفتحات التهوية، ثقوب مربعة في زواياها الأربع، بينما حط طائر واعتش هناك كما في لوحة زيتية لعائلة ريفية صغيرة في القرن التاسع عشر.

تركونا في جوف الغرفة. أوقدنا السراج فنفث دخانه البكر ليصبغ إحدى الجدران المطلية بالنورة حديثاً. مؤكد أن أخوتك همسوا لك بما يجب أن تفعل الليلة، كما همست لي أمي حليمة وأمك ياسة بما يجب أن أفعل وأطيع برضا ما ستفعل. كنت متوقعة الكثير من فلاح معضل. لكن.. حسناً، قد أكون أنا المخطئة، وهذا هو الحد الطبيعي لرجل ما في هكذا ليلية.

: مصباح مبارك عليكم يا معاريس.

: هلا أخيتي، تفضلوا، سأوقظ حسين.

: إفطار من التمر واللبن والبيض من عمتكم، ومئة فلس هدية الزواج الميمون.
: هه، والنعم منكم، من رخصتك، أغتسل وأرجع عمة، هذا بيتك وحسين ابنك.

: دعيه نائم، النوم صحة وعافية وطاقة يحتاجها المتزوج منذ ليلة واحدة فقط، ههه. اخجلتني وهي تنهي عبارتها بزم شفتيها للداخل، كتلميح لما حصل وسيحصل خلال أسبوع العسل هذا.

حبلت كفرسة عربية أصيلة، بعد شهر من إفطار صباحية العرس هذا.

: ماذا نسميه أو نسميها؟ : صالح أو صالحة. : فليكن، الله ييسر الأمور. قلت وتدثرت باللحاف، وأدرت جنبي للجدار المصخَّم بدخان السراج، بينما حسين بجانبي متمدد على ظهره ووجهه لفتحات سقف الغرفة الطينية، يراقب الفاخت التي باضت هناك. عندما ولد، أسميناه أنور، كان وضَّاء الوجه بزغب أشقر في حاجبيه وفوق فمه، وملامح حادة كرجل.

يقول خاله خير الله طلفاح بعد أن كبَّر في أذنه اليمنى:

كأنه جندرمةعصملي، نسل جيد صبحة. بينما حسين كان يذبح الدجاجات التي جلبها أخي خير اللة : مرتاحة صبحة مع حسين؟

: ردت رجل ياهواي عن وحشة الليل.

فهم خير الله المثل، شجعني على تقبُّل زوجي بسلبيته هذه، وأن الطفل الصغير سيكون الرجل المنتظر، الذي يليق بصبحة القوية أن تلد وتربي، الرجال بذَّارة، النساء هن الأرض التي تمسك الزرع وتثبته على صدرها وتغذيه، الرجال نطافة تنقل هنا وهناك، الزرع للأم، الزرع للأرض. هلا يا نور عيني ويا هليه.. يا وليدي من تمر سلِّم عليه. أردد وأنا أُقلِّب صغيري بين كفي، وهو ملفوف بإحكام بقماطه كشرنقة في كيس أبيض.

صار الوقت مساءً، وحسين لازال في الحقل. أتطيَّر من هذا الوقت مع صرخة طائر غريب، كأنما يُذبح بسكين مسننة، خرجت لخلف الغرفة لأتبول، ولأرى مصدر هذه الصرخة. عندما عدت كان صغيري مُزرق بلا سبب. قرصته حشرة؟ طير ما حط عليه ربما ونقر يافوخ رأسه؟

ليلة طويلة وأنور يموت مني، بينما حسين مؤخرته باتجاهي ووجه للجدار، يشخر كثور متعب. "حسين، من أين تأتي بالنوم والصغير ملاك يحتضر ويتفرط ريشة بعد ريشة؟ حسين أيها المبعد عن دائرة

"الهامسات" و"العهد" والذي لا يرى ما أرى، ولن يرى ما سأرى من نسلي، الذي تعهد له القدر بالسمو والأزلية".
صباحاً. أتم صغيري ميتته الرائعة، قُطف زرعي قبل حصاده، ومت قبله من الغصة، أُهزز الطفل المتخشب، والمهيَّأ للدفن.

: لم خذلتني مبكراً؟ ألم يشرفك أن أكون أمك فتظاهرت بالموت لتتركني؟
من سينجز ما رأيت؟ ها؟

ناحت بعض النسوة ولطمن معي "راح أنور الأشقر.. يبووه" راح شبيه الجندرمةالعصملي، ولن أصير "سلطانة أم" كما تنبأت العجوز جدة جدتي بذلك.
على هذا الزوج، والذي لا يعنيه أن يملك نسلنا دجلة والفرات وما بينهم، أن ينطف في رحمي مجدداً، أن يبذر في حقلي لأثمر، ليجيء من قرية "الشويش" المقفرة "العهد" المنتظر.

افعلها حسين، أو دع القدر يفعلها. القادم من نسل العاصفة، ابن سنون الصخر في أطراف الجبال والمنحدرات الحادة، الذئب الذي لا ينام ولا يمنح النوم لعدوه. سأصنعه كما يتقن الماهر صنع حربة سامة بلا مقبض، لات مُسك ولا تمُس حتى.
في ليلة باردة، والرياح تصفع نفسها بنفسها، وتصفع الأبواب والدواب والشجر.
جئن متلفعات بسواد اليل والثياب، ثلاث نسوة يتكئن على بعض، أصغرهن يدنو سنها من التسعون. يلبط شيبهن للأسفل كسمك فضي منزلق من عباءاتهن.
تصرخ الأولى: هممممم، هممممم، همم.

تجيبها الثانية: ليغرز الليل قضيبه في الشمس.

تعزز قولهن الثالثة: نطفة خوف ودخان وسلطان. هنيأً لك صبحة.
جلسن متحلقات حول موقدة نار مجمرة جيدا تعكس حمرتها في عيونهم، وبشرتهم المنقبضة كوجه الموت، بينما أصابعهن تتشغل في فرك حجر رمادي فوق النار.

صحت بهن: فألكن خير لو شر، من جاء بكم؟ من أين؟ من خرائب نمرود؟ من القوش؟ من مخمور؟ لالش؟ ما قصتكن؟ وما وهذه الريح الساكنة التي حرضتنها على العويل والهياج بطرف أثوابكن البالية؟

أنتن أموات أم أحياء؟ نطفة وسلطان؟ هل "العهد" جاء أوانه؟

صفعن الباب بقوة، بينما استمرين بالنهيم حول النار. في الصباح وجدت الرماد فقط. كن حقيقة وخيال في الآن نفسه.

: حسين، حلمت البارحة بكذا وكذا..

: كابوس، ربما غازات أو حمى صبحة، لا تكثري من البصل ليلاً.
: العن أبو...، اذهب للحقل قبل أن أنفجر بوجهك من الحنق.
: سخني حليب الصخل، بينما اغتسل عن جنابة، وتلفلفي عن ريح الشمال الجارحة.

: روح لشغلك، أغضبت وعصبت، لا زاد ولازواد، روح.. اغسل جنابتك بدجلة.
: ها.. أزعلانة بت طلفاح المسلط، ياويلي ويا سواد ليلي، صار، أنا ذاهب.
في الصيف اللاحق، وبينما "الذبيبينة" تدخل منخر البغال والحمير فتحرن، كنت أنوء بحملي، بينما أعمل في الحقل خلف الحواصيد أجمع ما يسقط منهم.
أطال النضر إلى بطني أخي خير الله، جسَّها بعصاه من فوق الثياب "زرع آخر، ها، لي نصيب منه هذه المرة، إذا اشتد عوده سأتعهده

بالتربية؛ ليشد أزري ويكون زندي ومخلبي، لن أتركه لحسين أباه. أجبته "حسين باذور لا غير، ولن يرى ما نرى".

استفسر خير الله "لم أراه منذ أسبوع يحصد مع الزلم، ما به؟ لم لا يأتي؟".

"يبول لبن أبيض، ويهصر ثوبه عند خاصرته ويتلوَّى، أسمعه يأن آناء الليل وأطراف النهار، ولا أعتني لذلك". "همم، رؤية جدتنا يا صبحة، هذا المحصول في بطنك لن يرى الشمس إلا بقربان موت أحدهم، تذكرين". أترك الحديث وأعود لعملي، يصيح بي خير الله، وأنا منحنية على الحنطة أجمعها: "حاذري تسقطي الموعود، سيف الزلم ولجماهم". "ابتسم له من زهو دون أن يراني".

قبل أن يولد "المحصول" مات الحاصد والباذر للبذرة "حسين".

لم أحزن ولم أفرح. أخذت فحولته بفحل بين أفخاذي الآن، الحرمة مستودع لنطف الذكور لتلد ذكور، ولا يعنيها من كان الباذر، الأول، الثاني، الثالث، مثنى وثلاث ورباع.

صرت في بيت والدي طلفاح وحليمة. مع أخياتي بدرة وهيله، وأخوي لطيف وخير الله.

ساعة ألد، حضر وجع شديد، خفت أن لا أصير بقوة أنثى الثور وأضعف، صاحت إحداهن:

"قولي: يا راكب الميمون يا بو حسين يسر أمرنا". أخرى ردت: "زتها يا.. باقي الصوت يا جد الأشراف".

كلما ثغبن تعرقلت الولادة، تعرقت وتألمت حد مرور حد حربة في جوف وريد، صرخت توقفن عن طلب الميمون وصاحبه.

صرخت "يا..... فكتم الصوت في الفضاء، ولم يسمعه الا من دعوت".

قفز بخفة المولود إلى الأرض، وجلس متربعاً على الحصير بعينين حادتين غرز نظراته في وجهي، ابتسم بمكر داهية عجوز، اصطبغ وجه بوجه رجل ناضج بشوارب. خفت فتسحبت بفزع للخلف. شكله عينيه الشازرتين هما هما منذ ولد، حتى أغمضت لم يتغيرا ثانية واحدة.

تبدلت سحنته إلى طفل رضيع عادي بثوان، صرخ باكياً فتلقفته النسوان من حولي هازجات ومرددات "ع... الخير ما جالك، ولد، هذا صبي "عجي" سيرفع رأسك.

ابتسمت بداخلي كأني لا أعلم بذلك". هههه، تنهدت.

"ما تسمينه؟"، سألوني بعد نصف نهار من الولادة، أشرت لخير الله أن يجيب.

"أ. . . . صـــــدام" أجابهم أخي خير الله. . .....

تضاءل الشمس العظيمة لجمرة انطفأت في ماء دجلة، ألملم عباءتي وأنقعها في ماء النهر؛ لأزيل ما رسب عليها من طين وتيبس بعد يوم شاق في الحقل. ولدي الصغير على مقربة مني بدشداشة سوداء ينتعل التراب حافياً، يسألني بنظراته البريئة: إلى متى هذا الشقاء أماه؟

: إلى أن ينضج العود، وتسود الرجال يا صغيري.

يوم مات زوجي حسين، جاء أخي عبد اللطيف لمنزلي. كان بعمر الحادية عشر. ليس من المقبول أن أبقى في "المقطع" بيت الطين هذا، وليس لي غير ساعدي لأعيل نفسي وما في أحشائي من جنين. لا نملك حقل خاص، وإنما نحن فلاحو أجرة، بالمقايضة بحنطة أو شعير أو نقود أحياناً.

سألني الجنين الذي في رحمي "إلى أين ولمن تتركين منزل الطين هذا؟".

"إلى بيت جدك طلفاح، سيبقى منزل الطين فارغاً هكذا. إذا لم يسكنه أحد، قد يهدم، ويبني آخرون منزل في موقعه، صغيري الذي لم ترى الشمس بعد لاتفكر كثيراً، وتمارس الحزن والشقاء مبكراً".

طويلة هي الطرق من قرية الشويش إلى تكريت. ركبنا البغال أنا وعبد اللطيف. كنت أتألم كوني حامل، لكني كابرت على الأوجاع والتعب واستعنت بالصمت.لمن تشربت العناء منذ طفولتها، لن تشكو لأحد وجعاً، أو صفعات القدر القاتلة.موت الابن، موت الزوج، والحمل الذي سيجيء ليجد نفسه في الفراغ، لا أب، لا منزل لا مستقبل. أقسى ما سيصير إليه نسخة من أبيه، فلاح أجير أو راعي ماشية. ولكن "العهد" الذي سمعنا عنه، وأن بطني ستحمل "آفَة" تجاوز "أنور" صغيري الذي مات مبكراً، وها هو يطابق هذا المولود الشرس منذ كان في رحمي.

كل هذا تختثر في رأسي وأنا أتجاذب الحزن، وأطرد النوم عني في منزل والدي في الليلة الأولى. مستلقية على لحاف مصفر من القدم، تحت رأسي وسادة محشوة قش، يطل الفجر برأسه والكل نيام، إلا أنا وحمل بطني. كنت أكلمه وأتعهده أن يطوي الأرض والزمن ليهرب من لعنة الفقر هذه، ويعلو حتى يكاد لا يرى. كيف لمن تملك ثوبها

الأسود وصرة ملابس وجنين أن تحلم بعرش ورخام، وجيوش مليونية تحت أصبع قدم صغيرها القادم؟

: لي مجد رأته الجدات بأن أكون جدة سلطان عراقي ما.

: نسلي ليس سلطاني أماه، كيف آمنتِ بهذا؟

: بنيتي، البعض يولد سلطان، والبعض يصطنعه.

حين استوظف خير الله في الجيش أخذنا لنعيش في بغداد، كان والدي طلفاح قد توفي لشهرين خلت، وكنا أنا وصغيري صدام تحت رعايته.
سنسكن بغداد إذاً، مدينة الأميرات والقادة والذهب والثروة والترف والمعرفة.. ياالله خطوة ما نحو المستقبل. سيرى صغيري عاصمة ملكه السلطاني لأول مرة، سيحبها ولن يفارقها إلا كجثة تعود إلى مقبرة القفرية العائلية في العوجة، هكذا هي النبوءة.

: لمن كل هذه البساتين والقباب؟ لمن دجلة والشمس والأرض والناس والهواء والنور والطير والشجر؟

: ليس لأحد، لمن ينهبه بشجاعة قبل أن ينهبه الآخرون.

: هل هذا سهل؟

: ليس صعباً كذلك، ولكن احذر، هذا مميت، ولذلك عليك أن تسبق الموت

بخطوة كل مرة؟

: ما هو الموت؟

: أن لا تصير شيء كأبيك، والموت أن تقبل شركة الآخرين فيك.

: لم نموت؟

: لأننا نفشل في أن نمارس الحياة أو ينهبها منا قبلنا الناهبون.

: إذاً عليَّ أن أعيش الزمن مقدماً لأعرف ما ينوي الآخر.

: ذلك سهل بني، تتعلمه وتجيد استخدامه.

لاحقاً سكنا حي التكارته في بغداد، رائحة الطبخ المتبادلة بين المنازل خلال شرفات الشنشول تفصح عن هوية أهل المكان.

هنا يأكلون اللحم كل يوم تقريباً، ويشربون ماء يأتي بأنابيب إلى أفواههم ومؤخراتهم كذلك، بينما كنا نستأجر أحدهم ليجلب الماء في العوجة على حمار أعرج.

لا يصطبغ جدار منازلهم بسخام السراج، يستعملون مصابيح الغاز "اللوكس"، وبعضهم يستعمل الكهرب لإنارة منزله، سمعت أنها تُصنع من شحوم الخنزير، وقد حرَّمها بعض المشايخ.

كل شيء سهل في بغداد. لا دواب للتنقل، ولا أقدام حافية. البغداديات عكرات المعشر، يتغنجن بالذهب في معاصمهن والعلكة في أفواههن، لا يرتدين العباءات باحتشام. إحداهن يقدر الزلم على تحديد لون صدرها ورقبتها بسهولة من خلال ما يكشفن، حتى من ترتدي عباءة منهن.

نسوة الريف يعملن في الحقل كالرجل، بينما هنا النسوة نسوة أكثر من اللازم.

: لم أتغنج ولا في سريري زوجي هكذا، بينما نسوان المحلة يفعلنها مع بائع الخيار والخبز، وأي رجل غريب دون تحرج.

: لا يعنينا ذلك صبحة، نحن نسكن هنا، ولكننا لسنا من هنا، العروق في العوجة.

: صدام سقط من القطار حين جئنا. تعثر فسقط ضرس منه، تغير عليه المركوب.
: لا تقلقي تلك أسنان تسمى لبنية، ستنمو أنيابه قريباً، ذئبك الصغير البري مُكيَّف لكل حال. ستقولين بعد سنين.. آه قالها أخي خير الله، هذا الذئب وصل لما أراد.

: إن شاء الله، سأزور خضر الياس مع أم ساجدة ووالدتي، لدي نذر ما.
: أذهبن برفقة عبد اللطيف وعدن قبل المغيب، خذي صبحة.. ناولني خمسة دراهم.

قرب خضر الياس ألح صدام "أريد أن أسبح في دجلة".

لم أوافق، دجلة في بغداد مكتظ بالقوارب، و"الكلك" القادم من سامراء وديالى محمل با الفواكه والخضار. أمسكته من دشداشته، تملص مني كسمكة زلقة وخلعها، ضحك الناس من حوله، هذا عاري تماماً، اخجل يا ولد هنا نسوة يرين خصيتيك الورديتين كجلد فرخ الطير الوليد. تحشَّم ياولد، هيه هل تسمع؟
لم يعرف صدامي الصغير ما المشكلة، فهو اعتاد السباحة عارياً في دجلة العوجة، لم نكن نحتاج للباس داخلي هناك، ولا نعرف لم وكيف يستعمل؟ لدينا هناك قطعتي ملابس فقط نتبادل لبسها طوال العام.

: البغادة منافقين، يخجلون من طفل عار، بينما نسائهم بسمانات السيقان المكشوفة يملأن السوق.

عدنا، كان إبراهيم أخو حسين زوجي قد وصل من تكريت ضيفاً على خير الله.
: سلمي على ابن عمك أبو دهام.
: ايش لونك أبو دهام، ايش لون عيالك وزوجتك، ايش لون ديرتنا العوجة؟
في المساء اختلت بي أمي حليمة "فهمتي بنيتي، نحن تسعة في رقبة خير الله، بغداد غالية المعيشة، وأنت حرمة بالعشرين وتحتاج المرأة رجلاً من ثوبها، إبراهيم لا يعيبه أنه متزوج، والدك كان متزوج أخرى".
: لا أقبل بضرة.

: يحصل هذا، وسيحصل ليوم الدين. الزلم يفعلون ذلك لأنهم زلم، والنسوان يقبلن الضرة لأنهن نسوان، مكسورات جناح.

: خير الله أخي جناحي، وصدام سيكبر و....

: اعقلي يا بنية. . ليكبر صدام عليك أن تقبلي بهذا. حين يكتمل الغصن ويزهر سيكون لتضحيتك معنى ما، "العهد" لن ينجز بلا بذل. العاصفة لن تأتي إذا لم ينحنِ الجبل قليلاً لتمر أليس كذلك، عليك أن تعطي لا أن تأخذي.
: لكنا ذقنا طعم بغداد، وصدام سينمو كالأفندية هنا.

: سينمو هناك كالجوارح والذئاب، هذا ما يجعله يحلِّق ويعدو. الأفندية هنا دجاج وخراف حليقة ومطيبة بالقولونيا، لا مخالب لا أنياب. هل تريده هكذا؟
لا أعتقد ذلك.

بعد زواجي وعودتي للعوجة، تزوج أخي خير الله مجدداً، جُرحت زوجته ليلو عميقاً لذلك، حد أنها كسرت التقاليد وطلبت الطلاق.. الرجال فقط تقرر أن تطلق كيف تجرأت؟

طلَّقها مرسلاً ساجدة وعدنان معها إلى أهلها وعائداً إلى تكريت، حيث استأجر منزلاً لزوجته الجديدة، بمعية أخي عبد اللطيف وأمي حليمة وأختي بدرة.
لم يطل احتمال ليلو لتكاليف المعيشة لابنيها طويلاً، فأرسلتهما إلى والدهما في القطار الصاعد إلى الموصل برفقة أخوها. سلَّمهما لأبيهما وعاد في اليوم اللاحق.
كان أخي خير الله قد فُصل من الجيش كضابط لأسباب سياسية، هكذا سمعت رغم، أني لا أعي الكثير من ذلك، إلا أن الحرب العالمية الثانية، الإنكريز والجرمان، قسمت أهل السياسة لرجال بشوارب، ورجال بربع، ورجال بلا شوارب كما يقول خير الله في جلساته المسائية مع الفلاحين في الباحة الأمامية للمنزل.

وعندما استعلم أحدهم عن هذا التوصيف أجاب: "عروبيون وعراقيون بشوارب، وأتباع الإنكليز بلا شوارب، ومحبي ألمانيا وهتلرها العظيم بربع شارب".
يسرد بطولاته لهم في "دكة الكيلاني"، حرب الجيش العراقي المتمرد على الإنكريز ومقاتلتهم، بينما الملك الصبي تحت وصاية خالة الوصي.

: على الخال ثلاث، يسلِّح ويخيِّل ويعرِّس.

: هل تقارنيني بالملك فيصل الأول؟ وخالي بالوصي؟

: كلكم من نسل واحد، سادة أشراف، مكانك في القصر، ولن يخذلك ذراعك والقدر أن تصل إليه، وعيني لازالت ترى، وأذني تسمع،

وقدمي تطأ، أمك ليست خرفة، وإن بدى ذلك مستحيل من راعي الغنم إلى سيد العرب والعجم على عرش بغداد.

تنازلت ليلو عن بطرها وغرورها، وعادت زوجة لخير الله أخي. بينما الأيام تسير بشقاء العمل في الحقل، ومزاجية الزوج المتنمر دائما من صدامي الصغير، يردله أن يصقل كحجر صوان، بينما أوافقه على ذلك، لكن عاطفة الأم تسربت غفلة مني إلى حليبه، وأورثته حزن على حزن يتمه الأبدي.

ألبسته أقراط وفستان بنات؛ لأخفي فحولته وجذعه الممشوق كرجل في جسد طفل، خفت أن تخاطفه عيون الحساد، وأترمَّل مرة أخرى برجلي وصغيري صدام.
كانت مهام إبراهيم له تفوق قدرته العمرية. تحمَّلها كلها، ساكنَ وحوش البرية، وصاحبَ الذئب الذي يعوي، والجوارح التي تغير لتلتهم الخراف الصغيرة. قاتل خوفه والوحشة والضباع وخنازير بعلو بغال. جفت غدة الخوف لديه، وماتت حاسة التردد، إلا أنه كان سهل البكاء وشاعري جداً. كل هذا القسوة درَّعته بصدفة سميكة فصار يتقي مشاعره بها أن يراها أحد. على الجميع أن يتقوا حساسيته المفرطة وعاطفته اليتمية، التي لم تنفطم مهما اجتهدت أنا وخاله في ذلك.

: إذا لمح ضعفك عدو فلا تتركه يقرر هل يستغل ذلك أم لا؟، بادر وأمت سره.
: كل ما توغلت في الطريق زادت الأشباح، عيونهم تشزرني أو تتقافز هنا وهناك، لا تخيفني، ولكن لا أطيق أنها لازالت مفتوحة لحد الساعة. أنا من أغلقها بالرصاص والموت البارد، فكيف لم تمت؟

: هل تذكر سعدون، هل عيونه مع ما ترى من أشباح؟

: لا، ربما يكون في آخر الطابور- من ملايين العيون، أذكر من ومن.
: صدام، أوصي لي ببط ورز- وليطبخ بالسمن الحر، أنا أموت ببطء كاللبوة الآشورية في الحجر الذي أريتنياها مرة، من السخيف أن أحتضر وبطني فارغة.
كبت ابتسامته بين شاربيه الغليظين. نزع بيريته وجلس قربي، واضعاً سبابته وإبهامه على جبهتي كهلال، وبدأ يفركها ماراً بأصابعه المدببة على حاجبي الأشيب.

سكن قليلاً ليفكر، صاح "اجلبوا لأم المناضلين كل ما تطلب الليلة، كل طعام تشتهيه وكل شراب".

: سيدي، أستميحك العذر لكن سكر الدم مرتفع لديها إلى درجة..
قاطع الطبيب "شكراً لمهنيتك، لا أحب الأطباء كما تعلم، ولكنك فنان وطبيب وهذا يزكّي هذا.. لتأكل الوالدة صبحة ما تشتهي فمن يعلم ما يحصل غداً.. حتى المعدوم له طلب أخير، فما بالك بأم الرئيس؟همَّ صدام بأن يغادر غرفتي في مستشفى ابن سينا الرئاسي. تقافز رجال حماياته والمرافقين من هنا وهناك من أمامه لتأمين سلامته. نصف مبتسمة أتذكر فيلتقط الذكرى من رأسي بعينيه الثاقبتين. "كم ليلة سرت فيها إلى بعقوبة والقوش والبيجي- لوحدك، تحرسك خرافك أو تحرسها بعصا لا تقتل جرو كلب حتى؟".

"أتذكر، كان الله معي وشجاعتي- المبكرة". "لم يكن لك خيار، إبراهيم كان ليطردك لو لم تطع، وعندها ستكون الليلة أو الاثنتين في البرية حيث يرسلك، ستكون أشهر وسنوات".

من لا أب له لا بيت له، كم مرَّ من سحاب على العوجة، وكم حوَّم طير فوق أحراش شط دجلة هناك؟ كم مرَّ من دهر ليشتد الساعد الماسك على النار والأعمار؟".

بعثه مرة زوجي إبراهيم، عمه كذلك "اذهب لعرب العامود، ولا تعود إلا بالأمانة التي سيرسلوها لي بواسطتك". "إبراهيم، صدام بعمر ثمان سنين، هذا يتطلب زلمة يصارع الذيب وقطاع الطرق، ماذا لو.. ". "هشش، سيذهب وسيعود. غريزته ستحميه".

عند أول الليل والبر انطلقت، أتذكر؟ لحقت بك، وتحت شجرة متيبسة بكينا معاً، لكنك كنت قاسياً وصامتاً، شفطت مخاطك وقمت لتسير، عندها باغتك بصفعك بكف الذئب. كنت غير مندهش وواعياً لما فعلت. لم تصرخ من ألم، أخرجت لك عينيه لتأكلها نية وكبده لتمص دمها، لم تسألني حتى من أين حصلت عليها، فعلت كل هذا ثم مضيت.

عندما ثقل جسدي، ولم أعد أنفع للخروج للحقل استعنت بالله وبالودع وتخت الرمل لكسب معيشتي، أتجول بين النسوان، أبيع مناديل وكوفيات وأخبار المستقبل لمن يدفع، أقرُ الكف وتخت الرمل، وأجيد تبيت خرز الرزق و"عرك السواحل" الجذر النباتي الذي نسرقه من القنفذ في البر، يأتي به ليفجر الطين لما يمتلكه هذا الجذر من قدرة على ذلك.

"يا صبحة الخير. جاز لك أن تسترزقي باسمنا، كل ما تقوليه سيحصل، وكل ما تقوليه كان وإن لم يكن، انشطي وارعي ولدنا صدام ".

أسمع هذا الصوت كل ليلية.

فجراً ومع طقطقة الأباريق النحاسية في الخلاءات قرب المنازل الطينية، حين يتوضأ من يصلي الفجر، أو يقضي حاجته من يهم ببدء العمل باكراً، وبينما النساء "مسعدات" نائمات و"رائحة الخضيرة بطي كذلهن". صحوت أتلمس في ظلمة زرقاء الشال الملقى قرب

فراشي، لأضعه وأخرج، يغط إبراهيم في نوم مصاحب لشخير عالٍ في فراش منفصل قرب الباب الخشبي لمنزل الطين هذا.
: ولدي، صدام، تسمعني، تعال لتشرب حليب الماعز قبل أن تنتشر بغنمك.
صحت وأنا أقف في الباب، بينما لا شيء يشي بوجود الصبي.
اختفى!، ثغاء غنماته وتدافعهن باتجاهي، أهشهن بعصا فيرجعن للوراء.
: أين راعيكن يا غنمات؟ بسذاجة أسال الماشية.

: مممممممععممممعع

: إبراهيم، أبو دهام انهض من نومك، ودرج على العرب شوف صدام، نهبوه أو ذبحوه؟

قام مردداً "ياصباحياصبحة".

: ايش تقول؟ الولد راح؟

: لا راح ولا بطيخ، ها الساعة أجيبه من البر.

قبل ليلة من هذا أو ليليتن أو عشر كان صغيري صدام يلح بهوسٍ عالٍ على إبراهيم عمه أن يقبل "أقنعيه وإلا لن يجدني". بحدة وإصرار همس لي، بينما إبراهيم يغمس كفه وشاربيه في طاسة اللبن الخاثر.

: وليدي صدام أنا عمك وأبوك وأعرف صالحك من طالحك، أنت شاوي، راعي غنيمات. الله يخلق البشر بأشكال وألوان ومقامات وحيوات.

هل تعترض على إرادة الله الذي جعلك ما أنت؟ أهل المدارس ما كانوا زلم ولا يكونوا زلم، العصا والمحراث والمنجل كارنه وهذا شأن الله بنا، كتافك من خيري وخير هذه الحرمة، وأشار إلي. "أنا

بحاجتك كرجل لا كتلميذ، مستقبلك في البر يترعى ويكبر عدد ماشيتك حتى تصير بيوم ما مئة رأس، قول إن شاء الله يا ولدي".

لم يقتنع صدام بهذا. يقول إبراهيم إن علي أن أرقيه، أو أكشف الفال وتخت الرمل، وأستعين بقرين من الجن ليشفي صدام من هذا الهوس، عدوى التعليم التي أصابته، وجعلته يكفر بنعمة رعي الغنم.

: أريد أكون متعلم مثل خالي خير الله، أدخل الجيش وأكون ضابط. ليس كل متعلم مخنث ومتميع، بناء الدماغ مع الذراع مزامنة هي من تفرق بين شاوي وباشا.

: هل أنت أفضل من النبي محمد، ها، كان راعي غنم و...قاطعه صدام

:ولم يستمر هكذا طوال عمره.

بغضب صاح إبراهيم: ياولد، تجرؤ وتقارن بينك وبين النبي محمد؟ ردَّ صدام دون أن ينظر إليه: لم أفعل، أنت من فعلت، لا أقارن نفسي الآن إلا بي، ولكن إذا قرر النكرة أن يكون معرف فحتى النبي سيفرح لذلك.

: لا تتفلسف يا صبي، والله تحتاج تأديب لجسارتك.

: عمي إبراهيم، الشاة والدواب فقط من تسيرها العصا، اضرب ما شئت لن يغير هذا من نيتي، ما في رأسي ليس ما في رأس الدواب، أنا قررت و إِنْتهى.

أشاهدهم يتجادلون. صدام وإبراهيم، وأنا أستعين بتمائمي وتمتماتي لتقف مع صغيري صدام وليكتمل "العهد".....

لو خُيِّرت بين إبراهيم الزوج والابن صدام للحقته إلى بيت أخي وعشت معه، لن يقبلني أخي ولن يرضى زوجي. كنت سأخسر الجميع، ولكن يعز عليَّ ألا أرى صغيري يومياً.

: أنا بخير مع ساجدة وعدنان. قال لي يوم زرته أول مرة في بيت خاله في تكريت، حيث هرب واستقر هناك.

: هذه فلوس، مجيديات وهذا خنجر، صغيري اشتاق لك كل مرة أتنفس الهواء ورائحتك لا تخالطه.

: كذلك أنا أشعر باليتم مجدداً من فقد الأم، ولكن هذا مقابل ذلك.. علينا أن نطأ الجمر لنعبر معاً إلى المؤجَّل والموعود.

أتم مدرسته في بيت خاله خير الله طلفاح في تكريت، خاله المفصول من الجيش أنشأ فصول دراسة أهلية للمتوسطة والثانوية، وصار مديرها.

تخلو تكريت من مدرسة حكومية لما بعد الابتدائية، كان مشروعاً موفقاً أغنى العائلة نوعاً ما من أن تذهب للفلاحة.

سينتقل خير الله طلفاح بعائلته لبغداد مجدداً، ستطول مدد رؤياي لصغيري، فسيلي الذي صار ينمو بعيداً ويشتد جذعه وذراعه. خامرني زهو، وألم، وغبطة، وغصة، وعطش، وارتواء حين لمحت شاربه يخط فوق شفتيه، بينما نمت شجيرات الشعر في كهوف إبطيه.

: من ولد له ولد، لا مات للأبد.

وهبته للقدر ولنفسه وتعلمت أنه لي وليس لي، أنه له وحده فقط. روحي تغادر ببطء ينتظرها هناك "الهامسات" وأمواتنا.

عدت صبية؛ حنة في الكعب، ونقش "دكة" في الحنك، واليوم زفافي على حسين المجيد ال "بنوات" يتمايلن بخجل. "الويلاد" تطلق الرصاصات في الهواء.

العوجة تدفع أهلها لزفافي. يصفق الصغار ويجمعون الزغاريد والملبَّس المتناثر في الهواء. صوتهن يزفني الآن، ودبكتهن على الطين أحسها في صدري.

"الف هلا يا عيني وهلاوين

عبايتك يا حسين من كلبدون
ألف يا عيني وهلاوين
لو قابلوا الحكام بس أهله يحكون
ألف هلا يا عيني وهلاوين
خطابتك لفونا قومي ياصبحة
ألف هلا يا عيني وهلاوين
ما أنطي بنت عمي لو أسويها ذبحة
ألف هلا يا عيني وهلاوين. .

قبل أيام في دوحة العز في "قطر" المحروسة..

تلقيت اتصالاً بالأمس من الشيخ هذال الهذال؛ للسؤال عن صحتي واحتياجاتنا أنا وبنتي حلا. شكرته وتمنيت له ولدولة قطر شعباً وقيادةً المزيد من التوفيق والتقدم والرخاء. الشيخ هذال الهذال إنسان مكتمل من عدة نواح، عراقته وأصالته لا تنسلخ من سلوكه ومنطقه ووعيه ومزامنته للمفاهيم المتقدمة في العالم، مع واقعية وعلمية في المنهج والتطبيق في سلوكه الإنساني والوظيفي. تمنيت لو وِجِدَ مثله في العراق سابقاً ولاحقاً، كلنا تجنب الاتكاء على المزاجية والارتجالية في إدارة العراق، ولما ضاع وضعنا معه.

إلى وقتٍ قريب كنا نتصور متعمدين أن هذه الصحراء الشاسعة المحقونة بمليارات البراميل من النفط فراغ، يعلوها رعاة إبل وخيام ودواب. وأن التاريخ توقف بهم عند ذلك. كم كنا عُمي أو مغترين، كيف نسينا أن هناك مجتمعات حية لها أحلامها وعمقها السيسلوجي والتاريخي، وأنها تنمو ببطء، ولكن بثقة، بينما نحن نموت ببطء وجنون.

كان الشيخ هذال الهذال وهو المسؤول عن إقامتنا في الدوحة. منذ وصلنا قبل عدة سنوات والجميع يقدم أقصى ما يمكن ويفي بتعهده الإنساني والأخلاقي والعروبي. ربطتنا علاقات صداقة أسرية حين زارتني والدته الشيخة حمدة، واستذكرت العراق السبعيني عندما زارت بغداد للعلاج في مدينة الطب.

: شيخة ساجدة، إن طال الأمر أو قصر- سيعود لكم أهل العراق الفخر والعزة، العراق قد يعتل طويلاً كل مرة إلا أنه لا يموت.

: أشكر لكم مشاعركم الأميرية الحقيقة اتجاهي واتجاه أسرتي، مؤكد لن يموت العراق، ولم يمت هذ الشيخ المعمر منذ سبعة آلاف سنة، إنها محنة واختبار- وسيكون الله بالعون شيخة حمدة.

لكن الشيخ هذال الهذال فاجأني- حين طلب زيارتي- لأمر ما. تعللت بالمرض، وأن للشيخوخة أثرها في اجتناب الخروج من الفيلا حيث أسكن.

: إذاً سأزوركم سيدة أم عدي في دار ضيافتكم-

: هل الأمر مهم شيخ؟

: بالنسبة لي هو كذلك، وقد يحمل بشارة خير وخبر- سعيد لكم، لا أريد أن أستبق باب الأحداث وأُفشل صنعة المفاجأة.

: إذاً هكذا، غداً في العاشرة صباحاً سأكون أنا وابنتي- في استقبال سموكم.

: إن شاء الله، أنقل لكم تحيات الشيخة الوالدة، وتعذرها عن التواصل لوهلة لسفرها للعلاج في برلين.

: لها منا السلام ودعواتنا بالشفاء العاجل.

"حلا، ماما أين صرت؟، بكرى عندنا زيارة أميرية استعدي جيداً.

: ولكني لم أكتبها للنشر. يالله كيف وصلوا إليها؟ هل يمكن أن أمنعهم قانونياً من ذلك، وأن يرفعوا المسودة من الموقع الاستخباراتي الأمريكي؟ أنا خارج السياسة منذ كنت زوجة للرئيس، فما الغرض من حشر مذكراتي الخاصة في هذا الشأن؟
هل سموكم اطَّلع عليها؟ هل سمو الشيخة قرأتها؟ أنا خجلة جداً، وغاضبة أن تكون أفكاري وخلجاتي الشخصية متاحة مجاناً على الإنترنت. حذرني صدام ألا أكتبها، قال لي لن تقدري أن تمنعي الكلمة من الوصول إذا نُطقت أو كُتبت. ليتني استمعت إليه، لم أكن أتوقع أن ينهار صرح العراق، ويصل الطوفان لأوراقي الشخصية وذاكرتي.

شعرت بألم حاد في معدتي وبرودة في أطرافي. استأذنت الشيخ أن أنسحب لغرفتي.

: شيخة ساجدة لك كل السلامة. أتفهم صعوبة موقفك، ولكن الأمريكان أمريكان، ولا يملكون قيمنا العربية الأصيلة، وخصيصة العفة والشرف الذي لدى جنابكم.

من فضلك دعيني أخبركِ ما وردني شخصياً.

: تفضل أنا آسفة إذا أبديت غضبي عليهم بوجه سموك. ردَّ بدفء أخوي.
: لا إشكال فنحن أهلكم، وأنتم سترنا وشرفنا شيخة ساجدة. أكمل بنبرة رسمية.
: حسب ما سمعت من مركز الدراسات الذي يشرف عليه رتشارد ثرون، وهو مقرب من صانعي القرار الاستخباراتي في واشنطن، أن المشروع يسمى "إكمال تجميع البازل" الفكرة هي إعادة التقييم فيما يخص شخصية الرئيس صدام، والشعور بأن أجهزة المخابرات الأمريكية خُدعت بواسطة عراقيو الغرب وأمريكا كغسان مكي

وغيره من سارقي الفرص والأضواء. بالمناسبة حتى طبيبكم الخاص بشير باع حكايات للنشر ولل إم بي أي، رغم أن ذلك غير أخلاقي، عدا أنه غير مهني لطبيب أدى قسم أبو قراط عند التخرج؛ ليحافظ على أرواح وأسرار مرضاه. بإطلاق مذكراتكِ فالأمريكان يقولون إن الحقيقة هنا، وإنهم أي الأمريكان مسبقاً لو أكملوا هذا "البازل" المشروع الذي يعملون عليه الآن لم خسروا مليارات وقتلى بلا عائد يذكر، ولكانوا تجنَّبوا غزو العراق وإعدام الشهيد صدام؟
السيدة ساجدة المسلط قد لا تكوني مهتمة لهذا، ولكن ذاكرتك ثروة بالنسبة لهم لإعادة التقييم، كما قلت فيما يخص شخصية محورية كزوجكم الرئيس. أعتقد أن لديهم أشخاص آخرون لا زلوا ينبشوا تاريخ هذه المرحلة بتمويل سري أمريكي، وأن هذه المذكرات ستكون نقطة العسل التي سيتجمع الآخرون حولها لقول ما لديهم، كلٌ من جغرافيته وموقعة الاعتباري، في العراق أو خارجه، بأسماء صريحة أو مموهة.

: بعد ايش شيخ؟ بعد خراب البصرة؟ أنا في أواخر أيامي، وكرمكم لن يجعلني أحتاج لمخلوق، عدا عن طلب واحد هو مناشدة النظام العراقي الحالي بإطلاق سراح لؤي أخي، وجمال زوج ابنتي حلا.

: شرف لنا معيتكم ولن أقول استضافتكم لأنكم أهل الدار. الدوحة وبغداد دار واحدة، والحال إنكم بعض أهلنا وعشيرتنا شيخة ساجدة، رحم الله الشهيد الرئيس وولداه وحفيده. واجبنا يأمرنا أن نضعكم موضع القلب من الجسد ما تنفس أنف منا وكنا أحياء.

: دام العز وأهله. كفيتم ووفيتم بالعهد، ورعيتمونا كما الأم لولدها، أشهد الله على ذلك.

: لو أستطيع لخاطبت الأمريكان مباشرة؛ ليأمروا رجالهم بالعراق بإطلاق سراح أخوكم لؤي، وزوج ابنتكم جمال من سجن الحوت في ذي قار. أراك تبتسم شيخ؟

: نعم، الأخبار ليست سيئة بالمطلق. هناك تعهدات حقيقة بإطلاق سراح لؤي أخوكم قريباً، وخذيها من هذه اللحية.

: الحمد لله. الحمد لله. يارب أشوفه قبل أن أموت.

: عمرك طويل شيخة، بالمناسبة مذكراتك تبدأ باستشهاد أخوكم عدنان خير الله، وأعتقد موعد إطلاقها لم يأتِ مصادفة مع التلويح بإطلاق لؤي خيرالله.

: نعم كتبتها عند ما فقدت أخي، وكانت الدافع لأن -دعني أقول- أُرمم ذاكرتي، أو أهرب من الموت، أو حتى التشفي بأبو عدي حينها؛ لأني حمَّلته وحسين كامل المسؤولية.

: الآن بإطلاق سراح لؤي ستكون منصة أخرى لإكمال مذكراتك لأسرتك، وستكون بمأمن هنا، وأُفضِّل أن يتابع معك نفس الصحفي أ. أ.

: سأفكر بالأمر شيخ. ربما إطلاق سراح لؤي هي حياة جديدة له، بعد أن فقدنا الأمل بعودته منذ أربعة عشر سنة، وأُعدم من أعدم ومات بالمحبس من مات.

: على كلاً، لكم القرار وسنكون في خدمتكم في الدوحة، وسيلتئم الجرح ويلتم الشمل قريباً، عليَّ أن أغادر الآن، السلام عليكم شيخة أم عدي.

: وعليكم السلام شيخ هذال الهذال. انقل تحياتي للعائلة الأميرية أطال الله أعماركم.

يتبـــــــــــــــــــــــــــــــع. . .

ياسين غالب .

كاتب وشاعر عراقي

بكلوريوس أداب اللغة الانكليزية

صدرت له :

- رواية (+15) عن مؤسسة أروقة للنشر والترجمة والتوزيع في القاهرة 2020.
- مجموعة شعرية باللغة الانكليزية والفنلندية (Stigma) 2021.
- مجموعة شعرية ثانية باللغة العربية (عرش بغداد) السامر للنشر والتوزيع .العراق

عضو رابطة القلم الفنلندي والقلم الدولي.
. ينشر بالانكليزية والفنلندية في صحف هلسنكي.